جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليـــا

الاستعطاف في الشعر الأندلسي
عصر ملوك الطوائف
(422 – 484 هـ)

إعداد الطالب
محمّد جاسر جبالي أسعد

إشراف
الأستاذ الدكتور وائل أبو صالح

قُدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس – فلسطين .

الإهداء

إلى روح الوالدة التي ما غابت عن مخيلتي منذ فارقتنا لحظة

إلى الوالد الذي علمنا حب العلم والتفاني في العمل

إلى (أم ضياء) زوجتي الغالية

إلى (ضياء ورجاء) ابني الحبيبين وفرقدي المنيرين

إلى الأخوة الأعزاء والأخوات العزيزات

إلى كل من يحب لي الخير

أهدي هذا البحث

الشكر والتقدير

أتقدّم بالشكر الجزيل والامتنان العظيم لأستاذي الفاضل الدكتور وائل أبو صالح الذي كان له فضل كبير عليَّ في تعميق معرفتي بالأندلس ، تاريخها وأدبها ، وفي مساعدتي باختيار موضوع دراستي ، وقد اتّسع صدره ؛ فأشرف على بحثي، وأرشدني إلى الصواب ، ومنحني من وقته وعلمه ما أنار ليَ الطريق ، وذلّل أمامي الصعاب ، كما أتقدّم بالشكر والامتنان لعضوي لجنة المناقشة الفاضلين الأستاذ الدكتور محمد قاسم نوفل ، والدكتور تيسير عودة ؛ لتفضّلهما بقراءة بحثي، وتوجيههما لي الملاحظات القيّمة .

قال القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني :

(إنّي رأيتُ أنّه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلاّ قال في غده : لو كان غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زِيدَ كذا لكان يُستَحسن ، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العِبَر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر)[1] .

---

[1] يُنسب هذا القول خطأً إلى العماد الأصفهاني ، والصحيح أنّه للقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني وكان قد بعث به إلى الأصفهاني . ينظر : إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين : محمد بن محمد الحسيني الزبيدي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط1 ، 1989م ، ج1 : 4 .

المحتويات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

فهرس الملاحق

الملخص

هذا البحث يتناول دراسة شعر الاستعطاف في الشعر الاندلسي في عصر ملوك الطوائف 422-484هـ وقد قُسم البحث إلى تمهيد وفصول أربعة.

أما التمهيد فأُشير فيه إلى بداية عصر ملوك الطوائف ونهايته، كما تمّ الحديث فيه عن الحالتين السياسية والأدبية اللتين سادتا فيه، حيث كانت الحالة السياسية متردية ،أما الحالة الأدبية فقد شهدت ازدهارا لم يسبق له مثيل .

وخُصص الفصل الأول للحديث عن معنى الاستعطاف، كما تمّ تتبع الأشعار الاستعطافية في العصور السابقة ابتداءً بالعصر الجاهلي وإنتهاءً بالعصر العباسي، حيث لم يخلُ أيّ عصر من تلك العصور من أشعار نُظمت في الاستعطاف، إلا أنّ جُلها كان مُوجهاً للحاكم.

وأُفرد الفصل الثاني للحديث عن الشعراء المستعطفين في عصر ملوك الطوائف ودوافعهم للاستعطاف، حيث لوحظ أنّ استعطافهم يندرج في أقسام ثلاثة هي:استعطاف الحاكم واستعطاف المحبوبة واستعطاف الوالد، وتنوعت أساليب الشعراء في الاستعطاف، فمنهم مَن استعطف مباشرة، ومنهم مَن خاطب وسيطا عله يتوسط له ويتشفع فيه، ومنهم مَن استعطف تلميحا.

أما الفصل الثالث فقد تناول الحديث عن أهم الأغراض الشعرية التي امتزجت بالاستعطاف، حيث كان المدح ملازما لشعر الاستعطاف منذ العصر الجاهلي، أما في عصر ملوك الطوائف فقد امتزج الاستعطاف بأغراض شعرية أُخرى حيث استُقصيت تلك الأغراض وعُرضت شواهد عليها.

وتمّ الحديث في الفصل الرابع عن ابرز السمات الفنية لشعر الاستعطاف في عصر ملوك الطوائف، كبناء القصيدة، والأخيلة والصور ، والمحسنات اللفظية والمعنوية ، كما تمّ التطرق لوصف اوزان القصائد والمقطوعات الاستعطافية وقوافيها ، وخُتم هذا الفصل بالحديث عن استلهام الشعراء التراث في أشعارهم الاستعطافية .

وقد أُتبع البحث بفهرسين:الأول للشعراء والأعلام والقبائل، والثاني للبلدان والأمكنة، كما أُتبع بملحق يُبين الحكام الأمويين الذين تعاقبوا على حُكم الأندلس كي يسهُل التعرف على بدايات عصر الطوائف ، ثم أُضيفت خريطة تُبين مواقع اشهر دويلات الطوائف وأُعطيت نُبذ موجزة عنها.

المقدمة

الأندلس بلاد عزيزة ، ما إن يمرّ ذكرها على الآذان حتى تعتري النفس أشجانٌ وأحزان ؛ فضياعها يشكّل – في نظر العقلاء ممّن يفقهون التاريخ وأحداثه – واحدةً من النكبات الكبرى والفواجع العظمى التي حلّت بالإسلام والمسلمين ، ولا نبالغ إذا قلنا إنّها أكبر نكبة حلّت بالمسلمين طيلة تاريخهم الطويل .

لقد مكث العرب المسلمون في الأندلس ثمانية قرون ، وكانت الأندلس خلالها أرضاً إسلامية خالصة ، وعندما أُخرجوا منها لم يبقَ وراءَهم أحدٌ يتكلم بلسان عربي ، أو يعتنق الإسلام ديناً ، والعرب المسلمون دخلوا بلاداً كثيرة ، كما دخلوا الأندلس ، ولكنّهم عندما خرجوا ، أو أُخرِجوا من بعض تلك البلاد خلّفوا وراءهم عروبة وإسلاماً معاً، أو إسلاماً يدين به قسم عظيم من سكان تلك البلاد ، أمّا الأندلس فلم يترك العرب المسلمون وراءهم فيها إلاّ آثاراً عمرانية ما زال لسان حالها يتحدث عن حضارة لهم سادت ثم بادت ، وعن مجد لهم بسق ثم هوى .

كانت القرون الثمانية التي شهدت مكوث العرب المسلمين في الأندلس فترة ناصعة ، كلّها ازدهار وتألّق ، وكان الازدهار والتألّق ينعكسان أحياناً على الجانب السياسي والعسكري ، وأحياناً على الجانب الأدبي والفني ، وأحياناً أخرى على الجانب العمراني .

لقد استهواني هذا الازدهار ، وذلك التألّق ، كما استهوى غيري الكثير ، لذا لم يكن اختياري لموضوعٍ له علاقة بالأندلس حدثاً اقتضته الضرورة ؛ لأنّ اهتمامي بالأندلس يرجع إلى أيام دراستي الثانوية عندما ألممتُ بطرف من تاريخ الأندلس ، ووجدتُ نفسي مشدوداً إليها ، متعلقاً بها ، أقرأُ بشغف كلّ كتاب تقع عليه يدي يتحدث عنها ، وأتطلّع إلى معرفة المزيد من تاريخها وأدبها ، وزاد من إصراري على اختيار موضوع أدبي أندلسي قلّةُ الباحثين في الأندلسيات ، ذلك أنّه لم يسبقني في البحث بموضوع يتعلق بالأدب الأندلسي إلاّ قلّةٌ قليلةٌ من الباحثين على الرغم من مرور سنوات على إنشاء برنامج الدراسات العليا في جامعة النجاح .

اخترتُ موضوع (الاستعطاف في الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف) ليكون موضوعاً أبحثُ فيه بعدما تيقّنْتُ أنّ هذا الموضوع لم يُبحث فيه من قبل ، ورأيتُ – وأنا بصدد دراسته – تقسيمه إلى فصول أربعة وتمهيد .

أمّا التمهيد فأشرتُ فيه إلى بداية عصر الطوائف ونهايته ، ثم عرضت فيه للحالتين السياسية والأدبية اللتين سادتا فيه ، وبينتُ أنّ الحالة السياسية كانت متردية ، أمّا الحالة الأدبية فكانت على النقيض من ذلك ، حيث شهد هذا العصر ازدهاراً أدبياً وفنياً لم يسبق له مثيل .

وخصصتُ الفصل الأول للحديث عن معنى الاستعطاف ، وتتبّع الأشعار الاستعطافية في العصور السابقة لعصر ملوك الطوائف ابتداءً بالعصر الجاهلي وانتهاءً بالعصر العباسي ، وأوضحتُ أنّ شعر الاستعطاف عُرف منذ العصر الجاهلي في أشعار شعراء سبقوا النابغة الذبياني الذي كان يُظنُّ أنّه رائد هذا الفنّ الشعري ، ثم لاحظتُ أنّ شعر الاستعطاف وُجد في شتى العصور ، لكنّه كان مقتصراً على استعطاف الحاكم.

وأفردتُ الفصل الثاني للحديث عن الشعراء المستعطِفين في عصر ملوك الطوائف ، ورأيتُ أنّ استعطافهم يندرج في أقسام ثلاثة هي : استعطاف الحاكم ، واستعطاف المحبوبة ، واستعطاف الوالد ، ثمّ لاحظتُ أنّ الشعراء المستعطِفين سلكوا مسالك شتى كي ينالوا عطف مَن يستعطفون ، ويستجلبوا قلبه ؛ فمنهم مَن استعطف تصريحاً ، ومنهم مَن خاطب وسيطاً علّه يتوسط له ويتشفع فيه ، ومنهم مَن استعطف تلميحاً وهو ما انفرد به المعتمد بن عبّاد الملك المُرزأ .

وحاولتُ في هذا الفصل أن أربط بين استعطاف الشاعر وعزّة نفسه ، حيث بيّنتُ أنّ استعطاف الشعراء واكبه غالباً تذللهم ، وإهراق ماء وجوههم ، وتخلّيهم عن عزّة نفوسهم وكرامتها .

أمّا الفصل الثالث فقد عرضتُ فيه للأغراض الشعرية التي امتزجت بشعر الاستعطاف ، ورأيتُ أنّ المدح كان ملازماً للاستعطاف منذ العصر الجاهلي ، أمّا في عصر الطوائف فقد مزج الشعراء استعطافهم بأغراض شعرية أخرى ؛ كالغزل والهجاء والوصف والرثاء والحكمة ، حيث استقصيتُ تلك الأغراض ، وعرضتُ شواهد شعرية عليها .

وتحدثتُ في الفصل الرابع عن أبرز السمات الفنية لشعر الاستعطاف في عصر ملوك الطوائف ؛ فتحدثتُ فيه عن بناء القصيدة ، كما تحدثتُ عن الأخيلة والصور وعن المحسنات اللفظية والمعنوية التي شاعت في تلك الأشعار ، وعرضتُ لوصف أوزان القصائد والمقطوعات الاستعطافية وقوافيها ، ثم ختمتُ هذا الفصل بالحديث عن استلهام الشعراء التراث في أشعارهم الاستعطافية .

وبعد ، فإنّ دراستي هذه تعدّ دراسة متواضعة وجهداً بسيطاً في طريق طويـــل يحتاج لمزيد من البحث والدراسة ، وكلّ ما أرجو منها أن أضيء بها مشعلاً من مشاعل النور ينير طريق الباحثين ، ويرشد مَن يسيرون فيه .

ولا بدّ من وقفة أتقدّم فيها بالشكر الجزيل والامتنان العظيم لأســـتاذي الفـــاضل الدكتور وائل أبو صالح الذي كان له فضل عظيم عليَّ في تعميق معرفتـــي بـــالأندلس تاريخها وأدبها ، وفي مساعدتي باختيار موضوع دراستي ، وقد اتّسع صدره فأشـــرف على بحثي ، وأرشدني إلى الصواب ، ومنحني من وقته وعلمه ما أنار لي الطريـــق ، وذلّل أماميَ الصعاب ، كما أتقدّم بالشكر والامتنان لعضوي لجنة المناقشـــة الفـــاضلين الأستاذ الدكتور محمد قاسم نوفل والدكتور تيسير عودة ؛ لتفضلهما بقـــراءة رســـالتي ، وتوجيههما لي الملاحظات القيمة .

وأخيراً ، فلستُ أدّعي الكمال لدراستي هذه ، فالكمال لله وحده ، وإنّما أنا بشـــر مجتهد أُصيب وأُخطِئ ، وللمجتهد أجران إن أصاب ، وأجر واحد إن أخطأ ، الله أســـأل أن أنال الأجرين ، وأن أكون ممّن يجتهد فيصيب ، إنّه سميع مجيب .

التمهيد

عصر ملوك الطوائف والحياة السياسية والأدبية في ظله

التمهيد

عصر ملوك الطوائف والحياة السياسية والأدبية في ظله

كان الحكم المستنصر آخر خلفاء بني أمية الأندلسيين الأقوياء ، ولمّا توفي في العام 366هـ بويع بعده بالخلافة لابنه هشام الثاني الملقّب بـ(المؤيد) ، وكان هشام هذا فتىً صغيراً وحاكماً ضعيفاً ؛ ولأنّ الحُكم يحتاج إلى القويّ البصير ، والسياسيّ القدير فقد أفلت الأمر من يده ، وتولى أمور البلاد رجلٌ كيّسٌ فطن هو (الحاجب المنصور)[1] الذي نحّى الخليفة جانباً ، وجعله رمزاً لا حول له ولا قوة ، وأصبح هو الآمر الناهي في الدولة ، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت أيامه استمراراً لعهد الخلافة من حيث القوة والبأس ؛ فتوسعت في عهده رقعة الأندلس توسعاً لم يسبق له مثيل ، وعندما توفي الحاجب المنصور في العام 392هـ أعقبه في الحجابة ابنه المظفّر ؛ فمضى على سيرة أبيه حزماً وبأساً وعلماً ، ثم خلفه أخوه عبد الرحمن الملقب بـ(شنجول) عام 399هـ ، وبتوليه الحجابة بدأت سلسلة التراجع والضعف ، فما أن أطلّ فجر القرن الخامس الهجري حتى بدا جلياً أنّ عهد الوحدة والمنعة والعزة في ربوع الأندلس قد آذن بالمغيب، لقد تولى عبد الرحمن الحجابة مدّة عشرين عاماً ، ولم يكن يتحلى بأخلاق الملوك والساسة التي تحلّى بها أبوه وأخوه من قبله ؛ وبسبب سوء إدارته وحماقة تصرفاته فقد تعاقب على الأندلس مدّة حجابته ثلاثة عشر خليفة ، منهم مَن تولّى مرتين ، ومنهم مَن حكم لأيام معدودة ، وتُعرف هذه الفترة في تاريخ الأندلس بعهد الفتنة[2] .

استخفّ الأندلسيون بخلفائهم الصوريين ، وبلغ استخفافهم ذروته في منتصف ذي الحجة عام 422هـ عندما خُلع الخليفة هشام الثالث الملقّب بـ(المعتدّ بالله) ، وأسند

---

[1] الحاجب المنصور : هو محمد بن أبي عامر أمير الأندلس ، أصله من قبيلة معافر القحطانية ، دخل كاتباً في خدمة الخليفة الحكم الثاني ، نال رضى (صبح) زوج الخليفة ، ثم أصبح حاجب ابنها هشام الثاني ، فقام بشؤون الدولة واستبدّ بالأمور ، وغزا أكثر من خمسين غزوة ، ودامت له الإمارة ستة وعشرين عاماً ، توفي في إحدى غزواته نحو عام 393هـ . ينظر : بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس : أحمد بن يحيى بن عميرة الضبّي ، دار الكاتب العربي (د.م) ، 1967م : 547 .

[2] الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين : منجد مصطفى بهجت ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط1 ، 1407هـ/ 1986م : 20 .

أهالي قرطبة – حاضرة الدولة – أمرهم إلى شيخهم ووزيرهم أبي الحزم بن جهور الذي ألغى الخلافة[1] ، وأقام حكومة ضمّت عدداً من مدن وسط الأندلس ، أمّا المدن الأندلسية الأخرى التي لم تخضع لهذه الحكومة فقد استغلّ حكامها وولاتها انهيار الخلافة؛ فاستبدّوا بمدنهم وأعلنوها إمارات أو ممالك ، ونصّبوا أنفسهم أمراء أو ملوكاً عليها ، وبهذا بدأ ما يسمى بعصر ملوك الطوائف .

قامت في الأندلس خلال هذا العصر عدّة دويلات هزيلة ، وقد تفاوتت هذه الدويلات في المساحة والقوة ، كما تفاوتت في أعمارها ، فقد كانت القوية منها – أحياناً – تحتوي الضعيفة ؛ لذا فقد اختلف عدد هذه الدويلات من زمن لآخر ، وأهم تلك الدويلات :

مملكة سرقسطة في الثغر الأعلى وحكمها بنو هود .

إمارة قرطبة في وسط الأندلس وحكمها بنو جهور .

مملكة طليطلة في الثغر الأوسط وحكمها بنو ذي النون .

مملكة بطليوس في الثغر الأدنى وحكمها بنو الأفطس .

مملكة إشبيلية في غربي الأندلس وحكمها بنو عبّاد .

مملكة بلنسية في شرقي الأندلس وتداول حكمها عدد من الأُسَر .

مملكة غرناطة في جنوبي الأندلس وحكمها بنو زيري[2] .

وقامت بين دويلات الطوائف حروب متصلة ، وكانت القوية منها تغلب الضعيفة فتزيل سلطانها وتضمّها إليها ، ولم يتوانَ ملوك بعضها عن أن يستنجدوا بملوك الفرنجة؛ فيغتنم هؤلاء الفرصة ويهاجمون الأندلس ، ويستولون على عواصمها ، ويخضعون ملوكها ، ويجعلونهم عمالاً لهم .

وهكذا صارت الدولة إلى دويلات ، (وغدا لكل دويلة ملك أو أمير ، وراحت هذه الدويلات تتصارع ويكيد بعضها لبعض ، وجعل كلّ حاكم يتربص بالآخر ، ويتطلع إلى ضمّ ملكه إليه ، والانقضاض عليه على حين كان في الوقت نفسه يتوجس خيفة من جاره ، ويدأب على الحذر منه ، ويجهد في إنفاق المال على الحصون والقلاع ، والاستكثار من المرتزقة والأعوان ، حتى غدت مشكلة الحدود الداخلية تستأثر باهتمام

---

[1] التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة : عبد الرحمن علي الحجي ، دار القلم – دمشق ، ط4 ، 1415هـ / 1994م : 323 .

[2] التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة : عبد الرحمن الحجي : 355 . وينظر : الاتجاه السياسي الإسلامي في الشعر الأندلسي : منجد مصطفى بهجت : 22 .

الحكّام ؛ وبذلك انكشفوا أمام العدو ، واستسلموا لمشيئته ، ورضوا بدفع الجزية إليه ، بل كثيراً ما استعانوا به على إخوتهم وأبناء عمومتهم في سبيل استرداد حقوقهم أو تحقيـــق مآربهم)[1] ، وعندما أقيمت دولة المرابطين البربرية في المغرب شعر حكّام الطوائـــف أنّها تشكّل خطراً عليهم ، (وبين ناري النصارى في الشمال والبربر في الجنوب وقـــف ملوك الطوائف وقد وهن أمرهم ، وأضعفهم الترف والبذخ ، لا يكاد سلطان أحد منـــهم يتخطى حدود بلده ، ومثل هذا الحال جدير بأن يُشتكى منه)[2] ، ومن هنا قال الشاعر :

ممّا يُقبّح عندي ذِكرَ أندلـسٍ　　　أسمـــاءُ معْتَضِـدٍ فيها ومُعْتَمِـدِ

ألقابُ مملكةٍ في غير موضِعِها　　　كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولةَ الأسدِ[3]

[البسيط]

وإذا كانت الحالة السياسية في هذا العصر متردية فإنّ حالة العلوم والفنون كانت على النقيض من ذلك ؛ فالتنافس بين حكّام الطوائف لم يكن تنافساً سياسياً فقـــط ، بـــل كان أيضاً عمرانياً وأدبياً وفنياً ، حيث تنافس هؤلاء الحكّام في العمران ، كما تنافسوا في مجالس الأدب والطرب ، وفي تشجيع الشعراء والأدباء والعلمــــاء والفنـــانين ، ومـــن الإنصاف لهؤلاء الحكّام أن نذكر أنّهم رعوا حركة الأدب ، وقرّبوا أصحابها ، وكـــانت عواصمهم أسواقاً لها ، وكان منهم أدباء وشعراء ، (ومن هنا كان هذا الزمان عصـــراً عظيماً للشعر والشعراء ، وكان لكلّ أمير من أمراء الطوائف ميزة اختـــصّ بـــها دون جيرانه ؛ فامتاز المتوكّل صاحب بطليوس بالعلم الغزيـــر ، وامتـــاز ابـــن ذي النـــون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة أنداده فـــي الموسـيقى ، واختصّ المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم ، وبزّ ابن طاهر صــــاحب مرسـية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع ، أمّا الشعر فكان أمراً مشتركاً بينهم جميعاً يلقى منهم كلّ رعاية ، ولكن عناية بني عبّاد أصحاب إشبيلية به كانت أعظم وأشمل)[4] .

---

[1] ملامح الشعر الأندلسي : عمر الدقاق ، منشورات دار الشرق – بيروت ، 1975 : 129 – 130 .

[2] تاريخ الفكر الأندلسي : آنخل بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ، (د.ن) القاهرة ، 1955م : 77 .

[3] البيتان لابن عمار . ينظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابـــن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ، ج4 ، (د.ت) : 428 . وينظر : سير أعــــلام النبـــلاء : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق مأمون صاغرجي ، جزء18 ، مؤسسة الرسالة – بـــيروت ، ط7 ، 1410هـ/ 1990م : 583 . وقيل إنّ البيتين لابن رشيق ينظر ص 57 من هذا البحث .

[4] الشعر الأندلسي : أميليو غرسيه غومس ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية – القـــاهرة ، ط2، 1956م : 45 .

لقد كانت صورة الوضع السياسي في هذا العصر مظلمةً حالكة ، إلاّ أنّ صـــورة الوضع العلمي والأدبي كانت مشرقةً مضيئة ، فهذا العصر الذي شهد ظهور كثيرٍ مــــن العلماء والأدباء وفحول الشعراء يُعدُّ عصر ازدهار وانتعاشٍ للعلم والأدب .

دام أمر ملوك الطوائف حتى دخل يوسف بن تاشفين الأندلس للمرة الثانية عـــام 484هـــ ؛ فأطاح بملوك الطوائف ، وثلَّ عروشهم ، وقضى عليهم ، وضمَّ الأندلسَ إلـــى دولته .

الفصل الأول

شعر الاستعطاف معناه وتطوره عبـر العصور السابقة لعصر ملوك الطوائف

الفصل الأول

شعر الاستعطاف، معناه وتطوره عبر العصور السابقة لعصر ملوك الطوائف

معنى الاستعطاف :

لغة : من الاستعمالات اللغوية للأصل الثلاثي (عطف) نجد له أكثر من معنى (فهو يدل على انثناء وعياج ، يقال عطفت الشيء ، إذا أملته)[1] وعطف الوسادة : ثناها ، وانعطف الغصن : انثنى[2] ، والعطيفة والعطافة : القوس ، والعطاف : السيف[3] لانثناء فيهما والعطوف : الناقة التي تعطف على البو فترأمه[4] .

كما يدل على الشفقة والرحمة ، فنقول : عطف عليه : أشفق ، وتعطف على رحمه: رق له ، وعطف الله بقلب السلطان على رعيته : إذا جعله عاطفا رحيما[5] ، والعاطفة : الرحم ، ورجل عطوف وعطاف : يحمي المنهزمين ، وامرأة عطوف : الحانية على ولدها وكذلك رجل عطوف ، وعطف عليه : وصله وبره[6] .

(والعطف بمعنى الشفقة مجاز من العطف بمعنى الانثناء ، ثم استعير للميل والشفقة إذا عدي بعلى ، وإذا عدي بعن كان على الضد)[7] .

وقد وردت كلمة (عطف) مرة واحدة في القرآن الكريم بقوله تعالى : { ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله }[8] ؛ أي لاويا عنقه[9] ، وثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخد ، ولي الجيد ، وقد قرئت الآية الكريمة بفتح العين : (ثاني عطفه) أي مانع تعطفه[10] .

---

(1) مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق وضبط عبد السلام هارون ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ، 1369هـ ، باب العين والطاء وما يثلثهما : 351 .

(2) تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدي ، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت ، فصل العين باب الفاء (د . ت) ، المجلد السادس : 200 .

(3) لسان العرب : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، دار صادر للطباعة والنشر – بيروت ، 1375هـ / 1956م ، المجلد التاسع ، مادة عطف .

(4) تاج العروس : الزبيدي ، المجلد السادس : 200 .

(5) تاج العروس : الزبيدي ، المجلد السادس : 200 .

(6) لسان العرب : ابن منظور ، المجلد التاسع ، مادة عطف : 250 .

(7) تاج العروس : الزبيدي ، المجلد السادس : 201 .

(8) سورة الحج ، آية 9 .

(9) لسان العرب : ابن منظور ، المجلد التاسع ، مادة عطف : 251 .

(10) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان (د.ت) ، ج3 : 6 .

أما في الأحاديث النبوية الشريفة فقد وردت هذه الكلمة بمعنى الشفقة والرحمة أكثر من مرّة ، فقد روي عن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قوله : " مَثَل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "[1] ، كما روي عنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قوله : " خلق الله عزّ وجلّ يوم خلق السموات والأرض ، مائة رحمة ، فجعل في الأرض رحمة، فيها تعطف الوالدة على ولدها ، والبهائم بعضها على بعض ، والطير ، وأخّر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة ، أكملها الله بهذه الرحمة "[2] .

أما الاستعطاف فهو مصدر الفعل المزيد استعطف ، ومن معاني الزيادة في صيغة استفعل السؤال والطلب ، فنقول : استعطفه استعطافاً : سأله أن يعطف عليه[3] .

اصطلاحاً :

لا نجد تعريفاً واضحاً لشعر الاستعطاف لا في المصادر القديمة ، ولا في المراجع الحديثة ، ولكن نستطيع القول : إنّه ذلك الشعر الذي يبثّه الشاعر إلى شخص ما لاستمالة قلبه ، واستدرار عطفه ، آملاً بعفوه عنه ، وتخليصه من ضروب الإعنات والحرمان الذي يعانيه .

وقد قرنه النويري بالاعتذار[4] ، وكذلك فعل الدكتور عبد العزيز عتيق الذي قال عنه : (ويقال له أحياناً الاعتذار)[5] . ولكننا نلاحظ أنّ كلّ شعر قيل في الاعتذار يدخل ضمن الاستعطاف ، ولكنّ العكس ليس صحيحاً ؛ فالشاعر المُعتذِر يدرك أنّ مَنْ يخاطبه ويعتذر إليه لن يقبل عذره ولن يعفو عنه إلا بعدما يعطف عليه ويرحمه . أما الاستعطاف فليس بالضرورة أن يسبقه اعتذار ، ذلك أنّنا نقرأ أشعاراً استعطافية كثيرة تخلو تماماً من الاعتذار ، وكأن الشاعر أراد أن يتناسى الجُرْم الذي رُمي به زوراً أو الذّنْب الذي اقترفه ، وآثر على ذلك فتْح صفحة جديدة تخلو من التذكير بأي شيءٍ عكّر

---

[1] مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر – بيروت ، (د.ت) ، المجلد الرابع : 270 .

[2] سنن ابن ماجة : الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (د.ت) ، الجزء الثاني ، كتاب الزهد : 1435 .

[3] تاج العروس من جواهر القاموس : الزبيدي ، المجلد السادس : 200 .

[4] نهاية الأرب في فنون الأدب : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب النويري ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، (د.ت) السِّفر الثالث : 258 .

[5] الأدب العربي في الأندلس : عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية – بيروت ، ط2 ، 1976م : 230 .

صفو الماضي ، كما أنّ هناك ضروباً من الاستعطاف لا تحتاج إلى اعتـــذار ؛ كـــالفقير الذي يستعطف الغنيّ أملاً بالحصول على أعطياته .

وقد خلط الشاعر الاستعطاف أحياناً بأغراض وفنون شعرية أخرى كــــالاعتذار والتشكّي والمدح وغيرها مما سنتطرّق بالحديث عنه بالتفصيل لاحقاً .

والشعراء المستعطِفون منهم مَنْ تسعفه قوّة بيانه ونصاعة حجّته في الوصـــــول إلى مأربه ، فتُغْفَر زلّته ، ويُعفى عنه ، ومنهم من يقصر بيانه عن ذلك فيضـــلّ مُبعـــداً مغضوباً عليه .

أما المستعطَفون – وجلّهم من الملوك وذوي السلطان – فقد أثّر فـــي معظمـــهم شعر الاستعطاف وما رافقه من اعتذار وتشكّي تأثيراً جعلهم يقبلـــون عـــذْر الشـــاعر ، ويعطفون عليه ، ويعفون عنه ، فقبول العذر ، والعفو عن المسيء ، وغفران الذّنْب تدلّ على دماثة خلق ، وسَعة صدر ، وحسن سياسة ، (فلا عذْر في ردّ الاعتذار ، والمعتذِر من الذّنْب كمن لا ذنْب له)[1] .

وقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قولـــه : (أوْلـــى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة)[2] .

ولكننا نجد في بعض الأحيان بعضاً من هؤلاء المستَعطَفين يردّون الشّعراء الذين استعطفوهم خائبين ، ويصرّون على عدم العفو عنهم ، وإلحاق العقاب بـــهم ؛ إمّـــا لأنّ هؤلاء الشعراء ارتكبوا معصية دينية توجب حدّاً أو تعزيراً بحقّ فاعلـــها ، وعندهـــا لا يجدي استعطاف ولا اعتذار ، وإمّا لأنّ إساءتـــهم لشخص الحاكم كانت عظيمة ، بحيث صَعُبَ عليه غفرانـــها والصفح عنها لقاء قصيدة استعطاف ، أو لأنّ الحـــاكم أدرك أنّ هذا الشاعر مُرغَم على استعطافه والاعتذار إليه ؛ لأنه وقع في قبضته ولو قدّر لـــه أن يفلت منها لعاد إلى ما كان عليه من ذنْبٍ وإساءة .

وقد عُدّ الاستعطاف غرضاً من أغراض الشعر[3] ، (ولم يخْلُ أي عصر مـــن عصور الأدب العربي من شاعر أو أكثر نظموا الشعر استعطافاً أو اعتذاراً عمّا تورطوا فيه من إساءةٍ كالهجاء مثلاً ، أو مما نُسِبَ إليهم زوراً وبـــهتاناً بحقّ ملكٍ أو ذي سلطان،

---

[1] نهاية الأرب في فنون الأدب : النويري ، السِّفر الثالث : 259 .

[2] نهاية الأرب في فنون الأدب : النويري ، السِّفر الثالث : 258 .

[3] الجامع في تاريخ الأدب العربي : حنّا الفاخوري ، المكتبة البوليسية – بيروت ، (د.ت) : 801 .

بباعث الوشاية أو الغيرة أو الحسد أو ما أشبه ذلك)[1] ، ولكنّه ازداد زيادة ملحوظة في الشعر الأندلسي ، لا سيما شعر عصر ملوك الطوائف .

وسنتتبّع في الصفحات القادمة بعضاً من أشعار الاستعطاف عبر العصور السابقة لعصر ملوك الطوائف .

أ – <u>في العصر الجاهلي</u> : يعد النابغة الذبياني[2] أكثر من أجاد في هذا الفن ، فقد استعطف النعمان بن المنذر[3] ملك المناذرة ، وكان النّابغة يفد عليه ويمدحه ، فلما أوقع الغساسنة[4] بذبيان وأحلافهم من بني أسد ، وأسروا رجالاً منهم ، وسبوا نساءً كانت منهن ابنةٌ للنابغة ، ذهب النابغة إلى بلاط الغساسنة ، وهناك مدحهم ومدح ملكهم عمرو ابن الحارث قبل أن يلتمس منه إطلاق سراح الأسرى والسبايا ، وقد أشاد بمآثرهم، ومدحهم بأعظم الصفات وأجلّها ، فهم – كما وصفهم النابغة – ذوو بأس وقوة ، شجعان لا يعرفون الهزيمة ، إذا انطلقوا إلى الحرب حلّقت فوقهم الطّيور الجارحة طمعاً بجثث القتلى من أعدائهم [5]، وهم دائمو الحرب والقتال ، فالكلوم في أجساد خيولهم منها القديم الذي التأم ، ومنها الحديث الذي ما زال ينزف ، فإذا ترجلوا عن خيولهم اتّجهوا إلى طعان أعدائهم مسرعين كالجمال النافرة ، ثم يأتي بصورة ظريفة ظاهرها ذم وباطنها

---

[1] الأدب العربي في الأندلس : عبد العزيز عتيق : 230 .

[2] النابغة الذبياني : أبو أمامة ، زياد بن معاوية ، من أهل الحجاز ، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ، كان يفد على النعمان بن المنذر ويمدحه ، وكانت تضرب له قبّة من جلد أحمر بسوق عكاظ ، فتقصده الشعراء ؛ فتعرض عليه أشعارها ، توفي في نحو عام 604م . ينظر : الشعر والشعراء عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف – مصر ، 1966م ، ج1 : 157 . والأعلام خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط11 ، 1995م ، مجلد 3 : 54 .

[3] النعمان بن المنذر : أبو قابوس ، من ملوك الحيرة ، ولي الحكم اثنتين وعشرين سنةً ، كان رجلاً ذميماً ، قصيراً ، أبرش ، وهو صاحب يوميّ البؤس والنعيم ، نقم عليه كسرى (أبرويز) فعزله وسجنه إلى أن مات في نحو عام 608م ، وقيل ألقاه تحت أرجل الفيلة إلى أن هلك . ينظر : الكامل في التاريخ علي بن محمد بن عبد الكريم الشّيبانيّ المعروف بابن الأثير ، دار صادر – بيروت ، 1402هـ / 1982م ، مجلد 1 : 483 – 491 . والأعلام الزركلي ، مجلد 8 : 43 .

[4] الغساسنة أو آل جفنة : سلالة عربية يمنية الأصل ، من بني الأزد بن الغوث ، رحلوا بعد انفجار سد مأرب ، ونزلوا على ماء في الشام يقال له غسان ، فنُسبوا إليه ، وكان ابتداء ملكهم قبل الإسلام بما يزيد عن 400 سنة، أول ملوكهم جفنة بن عمرو ، وآخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الذي أسلم في خلافة عمر ، ثم عاد إلى الروم وتنصّر . ينظر : المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا عماد الدين إسماعيل ، المطبعة الحسينية – مصر ، ط1، 1907م ، ج1 : 72 – 73 .

[5] ينظر : تاريخ الأدب العربي – العصر الجاهلي : د . شوقي ضيف ، دار المعارف – مصر ، (د.ت) ، ط7: 284 .

مدح شديد ، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد ، وما هو في الحقيقة بعيب ، ذلك أن سيوفهم مفلّلة من طول مقارعتها لكتائب الأعداء ، ثم يشير إلى انتصار الغساسنة القديم في يوم (حليمة)[1] الذي هُزِم فيه المناذرة شر هزيمة ، وقُتِل ملكهم المنذر بن ماء السماء في ساحة المعركة ، وفي كلّ هذا يقول النابغة :

إذا مَا غَزَوا بالجيشِ حلّقَ فَوقَهُم عَصَائبُ طيرٍ تـهتـدي بِعَصائـبِ

على عارفاتٍ للطّـعانِ عوابـسٍ بِـهـنّ كُلومٌ بين دامٍ و جالـب[2]

إذا استنزلوا عنهنَّ للطعنِ أرقلوا إلى الموتِ إرقالَ الجمالِ المصاعِـبِ

ولا عيبَ فيهم غَيْرَ أنّ سيوفَهـم بـهنّ فُلولٌ مِنْ قِـراعِ الكَتائـبِ

تُورِّثْنَ مِنْ أزمانِ يومِ حليمـةٍ إلى اليومِ قد جرّبْنَ كلَّ التّجـارِب[3]

[الطويل]

ويكافئ الغساسنة النابغة بإطلاق سراح جميع الأسرى والسبايا من الذبيانيين وأحلافهم . ويعلم النعمان بن المنذر بذهاب النابغة إلى الغساسنة ومدحه إياهم ، وإشارته ليوم حليمة ، فيغضب عليه غضباً شديداً (حيث كان يتخذه داعية له في قومه ، وكان يرى في نزوله بالغساسنة أعدائه التقليديين ما يدفع بذبيان إلى أن تخرج على ولائها له ، فهذا شاعرها وشريفها النابغة يلجّ في مديح خصومه ، وكأنه يعلن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم)[4] .

واستغل حسّاد النابغة وكارهوه في بلاط النعمان هذا الغضب ليوغروا صدر الملك عليه، فحاكوا الإشاعات والأكاذيب التي تبالغ في إساءة النابغة ، وزعموا أنه هجا النعمان أثناء مديحه للغساسنة .

وعندما يتوفى عمرو بن الحارث ملك الغساسنة يعود النابغة إلى قبيلته ويرى أن يرجع إلى النعمان ، ولكنه يدرك عِظَم ذنبه وما نسجه الوشاة ضده ، ويسمع بوعيد

---

[1] يوم حليمة من أيام العرب في الجاهلية ، تواقع فيه غسان مع لخم فانتصر الغساسنة ، وقُتِل المنذر الثالث نحو عام 554م ، وضُرِب به المَثَل في كلِّ أمرٍ مشهور ، فقيل (ما يوم حليمة بسرّ) وحليمة التي نُسِبَ إليها هذا اليوم هي ابنة الحارث بن جبلّة ملك غسّان . ينظر : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لأبي الحسن علي ابن موسى الأندلسي ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى – عمّان ، ط1 ، 1982م ، ج1 : 203 . والمنجد في اللغة والأعلام ، دار المشرق – بيروت ، ط27 ، 1984م : 507 .

[2] جلب الدم : يبس . ينظر : المعجم الوسيط ، دار المعارف – القاهرة ، 1972 ،ج2 : 1062 .

[3] شرح ديوان النابغة الذبياني : قدم له وعلّق عليه سيف الدين بركات وأحمد عصام الكاتب ، دار مكتبة الحياة– بيروت ، ط1 ، 1989 : 10 .

[4] تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي : شوقي ضيف : 271 .

النعمان له فيدافع عن نفسه بقصائد أشهرها ثلاث عُرِفت باسم (الاعتذاريات) ، وتكاد تكون طريقته في الاعتذار والاستعطاف واحدة في قصائده الثلاث، إذ أنه يصوّر سوء حاله وهمّه وغمّه عندما وصله وعيد النعمان له ، ثم يحمل على الوشاة المفسدين الذين أوقعوا بينه وبين النعمان ، ويحلف بالأيمان الوثنية أنّ ما اتُّهِم به كان باطلاً ، ثم يفضي إلى استعطاف النعمان والاعتذار إليه ومدحه والثناء عليه ، يقول في إحدى قصائده :

وَعيدُ أبي قابوسَ في غيرِ كُنْهِهِ	أتاني ودوني راكِسٌ فالضَّواجعُ[1]
فبتُّ كأنّي ساورتني ضئيلةٌ	من الرُّقْشِ في أنيابها السّمُّ ناقعُ
يسهّدُ مِنْ ليلِ التَّمامِ سليمُها	لحلي النِّساءِ في يديهِ قَعاقعُ
تناذَرَها الرّاقونَ مِنْ سوءِ سُمِّها	تطلّقهُ طَوْراً و طوراً تراجعُ
أتاني أبيتَ اللّعنَ أنّكَ لمتني	وتلكَ التي تستَكُّ مِنْها المسامعُ
مقالةَ أنْ قد قُلتَ سوفَ أنالُهُ	وذلك مِنْ تِلقاءِ مِثْلِكَ رائعُ[2]

[الطويل]

فوعيد النعمان أتاه وهو بعيد عنه ، بينهما مواضع عديدة ومسافات شاسعة ، فبات قلقاً مسهداً كأنما عضتّه أفعى شديدة السم ، وهي إن عضتّت إنساناً حُرِم النوم من شدة الألم ، وعلّق عليه أهله حلية النساء وخلاخيلهنّ ظناً منهم أن ذلك سيشفيه ، ثم يبالغ الشاعر في خطورة هذه الأفعى التي (قلما استجابت للرقى ، فالراقون يرهبونها ، ويتخوفون من أن يطأوا حماها ، ويخاطب النابغة النعمان متسائلاً عن سبب ملامته له ، تلك الملامة التي أصمّت مسامعه كراهةً لسماعها)[3] . والشاعر أمست حاله سيئة بسبب وعيد النعمان له وتهديده إياه ، وهو يمعن في تصوير سوء حاله طمعاً في استدرار عطف النعمان ورضاه لتعود العلاقة بينهما حسنة كما كانت لا تشوبها شائبة . ثم يقسم أنّ ما رماه به الوشاة والمفسدون كان باطلاً ، يقول :

لَعَمري وما عَمري عليَّ بِهَيِّنٍ	لقد نطقتْ بُطْلاً عليَّ الأَقارِعُ
أتاكَ امرؤٌ مستبطنٌ ليَ بُغضةً	لهُ مِنْ عدوٍّ مِثْلَ ذلك شافعُ
أتاكَ بقولٍ لمْ أكنْ لأَقولَهُ	ولوْ كُبِّلَتْ في ساعديَّ الجوامعُ

[1] راكس والضواجع : اسمان لموضعين في الجزيرة العربية .

[2] شرح ديوان النابغة : 52 – 55 .

[3] النابغة الذبياني – شاعر المدح والاعتذار : علي نجيب عطوي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط1 ، 1411هـ – 1990م : 141 .

حملتَ عليَّ ذنبَــهُ وتَركتَـــهُ كذي العِرّ[1] يُكوى غيرُه وهوَ راتعُ[2]

[الطويل]

فهؤلاء الوشاة كارهون للنابغة ، افتروا عليه ، ونسبوا له أقوالاً لم يكن ليقولــها ولو أكرِه على ذلك ، وكان حرياً بالنعمان أن يُنزل غضبه على هؤلاء الوشاة وليس على الشاعر البريء ، (وإلا فمثله ومثل من وسوس للنعمان كمثل البعير السليم يكوى مــن الجرب ، والأجرب راتع بجانبه لا يصيــبه كيٌ ولا أذى)[3] ، ويواصل النابغة قصيدتـه بقوله:

فإنْ كنتَ لا ذو الضِّغنِ عني مكذِّبٌ ولا حَلــفي على البَراءةِ نافــــعُ
ولا أناْ مأمونٌ بشيءٍ أقولــــــهُ و أنــتَ بأمرٍ لا محالــــةَ واقــعُ
فإنَّك كالليلِ الذي هوَ مُدركـــــي وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنــتأى عنكَ واسعُ
خَطاطيفُ حجْنٍ في حبالٍ متينــــةٍ تمدُّ بــها أيدٍ إليــكَ نـَـــوازعُ
أتوعدُ عبداً لم يخنْــكَ أمانـــــةً وتتركُ عبداً ظالماً وهــوَ ظالـــعُ[4][5]

[الطويل]

فالشاعر حريٌّ بالخوف والرهبة من النعمان وبطشه إن لم يُكذِّب الوشاة ، ولــم يصدق حلفه وقسمه ، ويبدع صورة رائعة حين يشبه النعمان باللَّيل لا مفر منه مــن أن ينطبق عليه ، ويصور الشاعر هذه القصائد التي يرسلها إليه مستعطفاً معتذراً بخطاطيف معوجّة ثبتت في حبال متينة تبتغي الظفر بعطف النعمان ورضاه ، ثم يذكِّــره بأمانتـه وعدم خيانته عهده ، بينما من يخــتانون العهد يقربــهم ويرعــــاهم ، ويختــم النابغــة قصيدته بمدح النعمان والثناء عليه ، يقول :

وأنتَ ربيعٌ يُنعشُ النَّاسَ سَيْــبُهُ وسيفٌ أُعيرَته المنيةُ قاطـــــعُ
أبى اللهُ إلاّ عدلَهُ ووفـــــاءَهُ فلا النُكْرُ معروفٌ ولا العُرْفُ ضائعُ
وتُسقى إذا ما شئْتَ غيرَ مصرَّدٍ بزوراءَ في حافاتــِها المسكُ كانعُ[6]

[الطويل]

---

[1] العرّ : الجرب ينظر : المعجم الوسيط : ج 2 : 592 .
[2] شرح ديوان النابغة : 52 – 55 .
[3] تاريخ الأدب العربي ــ الأدب الجاهلي ، شوقي ضيف : 290 .
[4] ظالع : متّهم . ينظر : المعجم الوسيط ، ج2 : 576 .
[5] شرح ديوان النابغة : 52 – 55 .
[6] شرح ديوان النابغة : 52 – 55 .

فالنعمان غيث منعش لأوليائه ، وسيف مصلت على أعدائـــه ، وقـد بـرأه الله لرعيته عادلاً وفياً لا يلقى المنكر بالمعروف ، ولا المعروف بالمنكر ، يجـــزي علـى الإساءة إساءة ، وعلى الإحسان إحساناً ، وانتهى إلى وصف ما فيه النعمان من نعيـم ، فهو يشرب بكأس مفضضة مزج ما فيها بالمسك والطيب .

إن القارئ لهذه القصيدة وللقصيدتين الأخريين الدّاليـة والبائيـة[1] ، يـدرك أنّ النعمان لم يستجب للنابغة ولم يعطف عليه إلا بعد عناء مرير ، وقد نــهج النابغة فـي قصائده هذه نـهجاً اتخذه الشعراء من بعده قدوة لهم في قصائدهم الاستعطافية .

لم يكن (النابغة الذبياني أوّل من فتح باب الاستعطاف والاعتذار فـي الشـعر العربي)[2] ، فقد سبقه علقمة الفحل[3] الذي وفد على الحارث بن أبي شـمّر الغسـاني ، واستعطفه بقصيدة تحدّث فيها عن رحلته الشّاقّة إلى الحارث ، وعن غربته فـي ديـار الغساسنة ، ثمّ أفضى لمدح الحارث ، وذِكْرِ نِعَمِهِ التي شمل بـها النّاس قبل أنْ يرجـوه بإطلاق سراح أخيه شاس الذي لا ينبغي أنْ يُحْرَم من نِعَم الحارث وكرمه ، يقول علقمة في قصيدته :

إلى الحارثِ الوهّابِ أعملْتُ ناقـتي	لكلـكلِها والقَصرَيينِ وجيـبُ
إليكَ – أبيْتَ اللّعنَ – كانَ وجيفُها	بمشتَبَهات هَوْلُهُنَّ مَهيـبُ
فلا تحْرمني نائلاً عن جنايَـةٍ	فإنّي امرؤٌ وسطَ القِبابِ غريبُ
وفي كلِّ حيٍّ قد خبطتَ بنعمـةٍ	فحقٌّ لشـاسٍ من نداك ذَنوبُ

[الطويل]

(فقال الحارث : نِعَمٌ وأذنبة ، وأطلق له شاساً أخاه وجماعة من أسرى بني تميم ، ومن

---

[1] ومطلعهما :

يا دار ميّة بالعلياء فالسندِ   أقوت وطال عليها سالف الأبدِ

[البسيط]

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني   وتلك التي أهتم منها وأنصبُ

[الطويل]

[2] الأدب العربي في الأندلس : عبد العزيز عتيق : 230 .

[3] هو علقمة بن عَبَدة ، شاعر جاهلي من الطّبقة الأولى ، وكان معاصراً لامرئ القيس ، وله معه مساجلات ، أسر الحارث بن أبي شمّر الغساني أخاً له اسمه (شأس) فشفع به علقمة ، ومدح الحارث بأبيات فأطلقه ، توفي نحو 603م . ينظر : خزانة الأدب ولبّ لباب العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، (د.ت) ، ج3 : 283 – 285 . والأعلام للزركلي ، مجلد 4 : 247 .

سأل فيه أو عرفه من غيرهم)[1] ، كما استعطف المثقب العبدي[2] النعمان بن المنذر ليطلق سراح أسرى قومه [3]، ولكنهما لم يبلغا مبلغ النابغة وشعره ، الأمر الذي جعل الأقدمين يعدّون النابغة رائد شعر الاستعطاف والاعتذار[4] .

ب – في عصر صدر الإسلام: وقف الكفار والمشركون أمام دعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – موقفاً معادياً ، وكانوا لا يدّعون درباً يؤذون به النبي – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين إلا سلكوه ، وكان من المشركين شعراء نهضوا يهجون الرسول – صلى الله عليه وسلم – وما جاء به من دين قويم وشريعة سمحاء ، ووقف شعراء المسلمين ينافحون عنه – صلى الله عليه وسلم – ويردّون على المشركين ، وبعد أن فتح المسلمون مكّة ، ودانت لهم جزيرة العرب ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وقف بعض أولئك الشعراء المشركين مع أنفسهم وقفة حساب ، وأدركوا أن جميع الأبواب قد أوصدت أمامهم إلا باب الرسول – صلى الله عليه وسلم – فاتجهوا إليه مستعطفين ومعتذرين عما بدر عنهم من أقوال أو أفعال مسيئة ، عساه – صلى الله عليه وسلم – يقبل أعذارهم ، ويعطف عليهم ، ويسدي لهم الصفح الجميل ، فهذا عبد الله ابن الزبعرى[5] يقف بين يدي الرسول – صلى الله عليه وسلم – مستعطفاً ومعتذراً عما أسدى عندما كان يهيم في الضلال ، أما اليوم فقد آمن بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانقضت العداوة إلى غير رجعة ، ثم يطلب الشاعر من الرسول ـ صلى الله عليه

---

[1] العمدة في محاسن الشعر : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل – بيروت ، الطبعة الخامسة ، 1401 هـ/ 1981م ، ج1 : 57 .

[2] المثقّب العبدي : هو العائذ بن محصن ، وقيل اسمه نهار بن شأس ، شاعر جاهلي من شعراء البحرين ، اتصل بالملك عمرو بن هند ، ومدح النعمان بن المنذر . ينظر: معجم الشعراء محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج ، دار إحياء الكتب العربية – (د. م) ، 1960م : 167 . والأعلام الزركلي ، مجلد 3 : 239 .

[3] ينظر : قصيدة المثقّب ، ومطلعها :

ألا إنّ هنداً أمسِ رثٌّ جديدها   وضنّت وما كان المتاع يؤودها

في ديوانه ، جمع وتحقيق حسن حمد ، دار صادر – بيروت ، ط1 ، 1996م : 42 .

[4] ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ، السفر الثالث : 261 .

[5] عبد الله بن الزبعرى : كان أشعر قريش في الجاهلية ، وكان أشدّ الناس على الرسول – صلى الله عليه وسلم– والمسلمين ، ولمّا فتحت مكّة هرب إلى نجران ، ثمّ عاد إليها واعتذر إلى الرسول وأسلم ، توفي عام 15هـ . ينظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة لعلي بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير (انتشارات إسماعيليان – تهران) ، (د.ت) ، مجلد 3 : 160 .

وسلم ــ أن يغفر زلّته ، ويتقبل عذره ، ويخـــتم قصيدته بمدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – مدحاً يليق به وبمكانته ، يقول :

إنّي لمعتـــذرٌ إليـــكَ مِـنَ الـذي ... أسديْتُ إذ أنا في الضلالِ أهيــمُ

فاليــومَ آمــن بالنـــبي محــمَّــدٍ ... قلبي و مخطئُ هــذه محـــرومُ

مضتِ العداوةُ وانقـضتْ أسبابُــها ... ودعتْ أواصرُ بيننا وحلـــومُ

فاغــفرْ فدىً لــكَ والــديَّ كلاهُما ... زَلَلي فإنَّكَ راحـــمٌ مرحـــومُ

واللهُ يشهدُ أنَّ أحـــمدَ مصطفــــى ... مستقبلٌ في الصالحينَ كريـــمُ

قرمٌ[1]علا بنــيانــه من هاشـــمٍ ... فَرْعٌ تمكّــن في الذُّرى وأروم[2](3)

[الكامل]

أمَّا كعب بن زهير بن أبي سلمى[4] فضاقت عليه الأرض بما رحبت وتنكر لــه خلاَّنه بعدما أهدر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ دمه ، فلم يجد أمامـــه إلا طريــق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فذهب إليه – صلى الله عليه وسلم – معتذراً عن زلاته وهفواته ، آملاً بعفو الرسول الكريم ، معرّضاً بالوشاة الذين أكثروا فيه الأقاويل ، ثم يصوّر مقامه بمجلس الرسول الكريم ، هذا الموقف الذي لــو وقفــه الفيــل أعظــم الحيوانات جثّة وشأناً لظلّ خائفاً مضطرباً حتى ينال التأمين من الرسول الكريم ، يقــول كعب :

و قـــالَ كلُّ صديقٍ كنتُ آمُلُــهُ ... لا ألهينَّكَ إنّي عنــكَ مشغــولُ

فــقلــتُ خلّوا سبيلي لا أبالكــمُ ... فكــلُّ ما قدّرَ الرَّحمنُ مفعــولُ

كــلُّ ابنِ أنثى وإنْ طالتْ سلامتُه ... يومـــاً على آلةٍ حدباءَ محمــولُ

نبئـــتُ أنَّ رســولَ اللهِ أوعدني ... والعفــوُ عندَ رسولِ اللهِ مأمولُ

مهلاً هداكَ الذي أعطاكَ نافلةَ الــ ... قرآنِ فيهـــا مواعيظٌ وتفصــيلُ

لا تأخذنّي بأقــوالِ الوشــاةِ ولــمْ ... أذنبْ ولوْ كثُرَتْ فيَّ الأقــاويــلُ

---

(1) قرم : فحل . ينظر : المعجم الوسيط ، ج2 : 730 .

(2) أروم : أصيل . ينظر : المعجم الوسيط ج1 : 15 .

(3) السيرة النبوية : ابن هشام ، تحقيق وشرح مصطفى السقّا وآخرون ، مطبعة مصطفى الحلبي – مصر ، 1355هـ – 1936م ، ج4 : 62 .

(4) كعب بن زهير بن أبي سلمى ، هجا الرسول – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين ؛ فأهدر الرسول دمه ، ثـم أتاه مستأمناً ، وأنشده قصيدته (بانت سعاد) ؛ فعفا عنه الرسول ، وكساه بردته . ينظر : أسد الغابة في معرفـة الصحابة لابن الأثير ، مجلد 1 : 240 . وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمـــود شــكري الألوســي البغدادي ، شرح وتصحيح محمد بهجت ، دار الكتب العلمية – بيروت ، (د.ت) ، ج3 : 133 .

لقدْ أقــومُ مــقاماً لوْ يقــومُ بـــه | أرى وأسمــعُ ما لو يسمعُ الفيلُ
لظلَّ يرعــدُ إلاّ أنْ يكــونَ لـــه | من الرَّســولِ بإذنِ اللهِ تنويــلُ[1]

[البسيط]

ثم يمدح كعب الرسول – صلى الله عليه وسلم – والمهاجرين الذين لانوا لـــه وأحبــوا إسلامه وإيمانه ، على عكس الأنصار الذين تجهموه وغلظوا عليه [2]، فالرسول الكريـــم نور يستضاء به ، وسيف مسلول من سيوف الله ، والمهاجرون الذين أسلموا ، وهاجروا بدينهم أنوفهم شماء ، وأقدارهم رفيعة ، شجعان في ســـاحات الوغـــى لا يفرحـــون إن أصابوا ولا يجزعون إن أصيــبوا ، لا يتأخرون عن الخوض فـــي مــوارد الحتــف وساحات القتال ، يقول كعب :

إنَّ الرَّسولَ لَنورٌ يستضــاءُ بــه | مهنّــدٌ من سيوفِ اللهِ مسلــــولُ
في عصبةٍ منْ قريشٍ قالَ قائلُهم | ببطــنِ مكّةَ لمّاَ أسلموا زولــــوا
شُمّ العرانينَ أبطالٌ لبوسهـــمُ | من نســجِ داودَ في الهيجا سرابيــلُ
ليسوا مفاريحَ إنْ نالتْ رماحُهــمُ | قومــاً ، وليسوا مجازيعاً إذا نيلــوا
لا يقعُ الطَّــعنُ إلاّ في نحورِهــمُ | وما لهم عن حياضِ الموتِ تهليــلُ[3]

[البسيط]

لقد كان لـــهذه القصيدة الأثر البالغ في نفس الرسول – صلى الله عليه وسلم – فمــا أنـــهى كعب إنشاده حتى أمّنه الرسول الكريم وجعله ينعم بعفوه وصفحه بعد أن كان قلقاً خائفاً ، ولم يكتفِ – صلى الله عليه وسلم – بذلك بل كساه بردته ، وأصبحت القصيـــدة لأجل ذلك تعرف باسم(البردة)[4].

إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – بسعة خُلقه ، وبعظم كرمه ورحمته قد قَبِل عـــذر كلّ من اعتذر إليه ، وعطف على كلّ من استعطفه [5]، كيف لا وقد بعثـــه الله للعـــالمين رحمة ، وبدين قويم يجبُّ ما قبله ، فابن آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التوّابون ، الذيـــن

---

[1] السيرة النبوية : ابن هشام ، ج4 : 153 – 154 .
[2] السيرة النبوية لابن هشام ، ج4 : 153 – 154 . وشعراء حول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : خضر تايه ونبيل الآغا ، دار البشير – عمّان ، ط1 ، 1419هـ – 1998م ، 141 .
[3] السيرة النبوية : ابن هشام ، ج4 : 155 – 156 .
[4] تاريخ الأدب العربي ــ العصر الإسلامي : شوقي ضيف ، دار المعارف – مصر ، ط7 ، (د.ت) : 86 .
[5] ينظر : استعطاف قتيلة بنت النضر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، مطبعة حجازي – القاهرة ، ط1 ، 1353هـ – 1934م ، ج1 :41 .

يقلعون عن معاصيهم ، ويتوبون إلى ربهم توبة نصوحاً ، { فأولئك يبدّل الله سيئاتِـهـم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً }[1] .

ولم يكن الاستعطاف والاعتذار في هذا العصر وقفاً على الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – فهذا عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – يحبس الحطيئة[2] في بـئر لهجائه الزبرقان بن بدر[3] ، ويستعطف الحطيئة عمر بأبيات شعرية تحمل في طيّاتـها غمزاً بالزبرقان في معرض اعتذاره ومدحه لعمر، إذ يقول :

أعوذُ بجدّكَ إنّي امـــرؤٌ	سقتني الأعادي إليكَ السِّجالا
فإنّكَ خيْرٌ من الزبرقـــانِ	أشدُّ نِكالاً و أرجى نـــوالا
تحنّنْ عليَّ هداكَ المليـكُ	فإنَّ لكلِ مقامٍ مَقـــــالا
ولا تأخذْني بقولِ الوشاةِ	فإنَّ لكلِ زمانٍ رجـــــالا[4]

[المتقارب]

ولكن عمر لم يلتفت إليه ، ولم يخرجه من محبسه ، فعاد الحطيئة مرّة أخـرى مستعطفاً متوسلاً بأبنائه الصغار الذين أمسوا بعد حبس والدهم عاجزين لا يملكون قـوت يومهم ، ولا يوجد من يدافع عنهم أو يحميهم من مخاطر الصحراء وبردها الشديد ، ثـم يمدح عمر ويشيد به ، وبتسلمه مقاليد الخلافة ، فيقول :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَـــرَخٍ	زغبُ الحواصلِ لا ماءٌ و لا شجرُ
ألقيتَ كاسبهُم في قعرِ مَظلمـــةٍ	فاغفرْ عليكَ سلامُ اللهِ يا عمــرُ
أنتَ الإمامُ منْ بعدِ صاحبـــــه	ألقى إليكَ مقاليدَ النهى البشــرُ
لم يؤثروكَ بــها إذ قدّموكَ لــها	لكنْ لأنفسِهِم كانتْ بكَ الأثـــرُ

---

[1] الفرقان ، آية 70 .

[2] الحطيئة : جرول بن أوس ، يكنّى أبا مُليكة ، لقّب بالحطيئة ؛ لقصره وقربه من الأرض ، شاعر مخضرم ، كان هجّاءً عنيفاً ، أسلم بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكان رقيق الإسلام ، لئيم الطبع ، توفي في نحو 45هـ . ينظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ج1 : 322 . والأعلام الزركلي ، مجلد 2 : 118 .

[3] الزبرقان بن بدر التميمي السعدي صحابي ، من رؤساء قومه ، ولاّه الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – صدقات قومه ، فثبت إلى زمن عمر ، كُفَّ بصره في آخر أيّامه ، وتوفي في أيام معاوية نحو عام 45هـ 665م. ينظر : أسد الغابة لابن الأثير ، مجلد 2 : 194 ، والأعلام الزركلي ، مجلد 3 : 41 .

[4] الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط1 ، 1346هـ – 1928م ، ج2 : 187 .

فامنُنْ على صبيةٍ بالرَّملِ مسكنُهم بيْنَ الأباطحِ تغشاهمْ بـها القرَرُ[1]

[البسيط]

وبعدما سمع عمر – رضي الله عنه – هذه الأبيات ، عطف على الحطيئة ، وأطلق سراحه شريطة أن لا يهجو أحداً من المسلمين .

ويروى عنه – رضي الله عنه – أنه قال : " أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر ، يقدمها بين يدي حاجته يستعطف بـها الكريم ، ويستنـزل بـها اللّئيم "[2] .

ونلحظ من خلال شعر الاعتذار والاستعطاف في هذا العصر أنه امتزج – كما في العصر الجاهلي – بمدح المعتذر إليه والإشادة به ، والتّعريض بالوشاة والمفسدين ، كما نلحظ ظهور الألفاظ والمعاني الدينية الجديدة في الشعر العربي .

ج – <u>في العصر الأموي</u>: عاد للشعر مجده وازدهاره بفضل بواعث سياسية واجتماعية طرأت في هذا العصر ، فقد ظهرت الحركات السياسية المعارضة التي أنكرت حقّ الأمويين في الحكم ، فاعتمد خلفاء بني أميّة سياسة القوة والحزم في مواجهة هذه الحركات ، فقمعوها ونكّلوا بمن ظفروا به من قادتها وشعرائها ، كما حصل تحوّل في الحياة الاجتماعية لا سيما في المدن الحجازية ، وكان من مظاهر هذا التحول انتشار الغزل الحسي الماجن الذي طال حتى النساء الطائفات بالبيت العتيق حاجات أو معتمرات، فعملت الدولة على معاقبة هؤلاء الشعراء المتغزلين للحد من هذه الظاهرة التي مسّت أقدس مقدّسات المسلمين .

ولما ازدهر الشعر بعامة في هذا العصر ، فقد كثر شعر الاستعطاف والاعتذار الذي أنشأه بعض الشعراء ابتغاء العفو عنهم ، والصفح عن زلاتهم وهفواتهم ، فهذا طُفيل بن عثمان الذي زجّ به عبيد الله بن زياد[3] في السجن ، فخاطب أمه (مرجانة) مستعطفاً إياها ، متوسلاً إليها كي تشفع له عند ولدها ، فيطلق سراحه ويعيده إلى أهله ، وهو أثناء استعطافه يذكر غربته ، وابتعاده عن ذويه ، ويُعرِّض بالوشاة الذين افتروا عليه الأكاذيب التي كانت سبباً بسجنه ، يقول :

---

[1] الأبيات من ديوان الحطيئة ، شرح أبي سعيد السكّري ، دار صادر – بيروت ، ط1 ، 1387هـ / 1967م : 164 – 165 ، إلاّ البيت الأخير فهو من الأغاني للأصفهاني ، (طبعة القاهرة) ، ج2 : 188 .

[2] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي، المطبعة الأميرية – القاهرة ، 1331هـ – 1913م ، ج1 : 272.

[3] عبيد الله بن زياد بن أبيه ، ولد بالبصرة عام 28هـ ، ولاه معاوية خراسان ثم البصرة ، حارب الخوارج ، في أيامه كانت فاجعة استشهاد الحسين بن علي – رضي الله عنه – قتله المختار الثقفي عام 67هـ . ينظر: أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، تحقيق محمد باقر المحمودي ، دار التعارف للمطبوعات – بيروت ، (د.ت) : 164 – 287 . والأعلام للزركلي ، مجلد 4 : 193 .

يا أمَّ عبدِ اللهِ يا خيرَ شافــــعٍ لذي كربةٍ نائي المحلِ غريــبُ
نأى عنه أهلوه وأوحشَ منهــمُ وغودِرَ في كبلٍ أجشَّ صخوبُ
فيا ابنَ أبي سفيانَ لا تسمعنْ بي مقالةَ محّالٍ أحصَّ كـــذوبُ

[الطويل]

ويستجيب عبد الله لشفاعة أمه ، ويطلق سراح الشاعر[1] .

أما الأحوص[2] ، الذي كان سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي قد أمر بنفيــه إلى جزيرة (دهلك)[3] لتغزله بالمسلمات ، وبعدما آلت الخلافة إلى عمــر بـن عبـد العزيز، خاطب الأحوصُ الخليفة الجديد مسترحماً إياه عساه يعطف عليه ويعيده من منفاه إلى بلده ويذكّره بصلة القرابة التي تربطهما ، فالخليفة ينبغي أن لا يهنأ بعيــش مـا دام خاله موثقاً في جزيرة نائية بعيداً عن أهله وبلده ، يقول :

أيا راكباً أمَّا عرضتَ فبلّغــنْ هديتَ أميرَ المؤمنينَ رسائلــي
وقلْ لأبي حفصٍ إذا ما لقيتَــه لقــدْ كنتَ نفّاعاً قليلَ الغوائـــلِ
وكيفَ ترى للعيشِ طيباً و لذّةً وخالُكَ أمسى موثقاً في الحبائــلِ[4]

[الكامل]

ويرفض الخليفة التقي الورع العطف على الأحوص وإعادته من منفاه ، ويُذكّــر الذيــن كلّموه بشأنه أبياتاً كان الأحوص قد أنشدها متغزلاً ومتجرئاً على الدين ، ويصــرُّ علــى إبقائه في منفاه لينال عقابه ، ويكون عبرة لسواه من الشعراء ، ويــبقى الأحوص منفيــاً في جزيرة (دهلك) طيلة ولاية عمر .

---

[1] كتاب العفو والاعتذار : ابن عمران العبدي ، تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، دار البشر ، ط3 ، 1414هـ – 1993م ، ج2 : 477 – 478 .

[2] هو عبد الله بن محمد الأنصاري من بني ضبيعة ، كان معاصراً لجرير والفرزدق ، من سكّان المدينة ، لقّـب بالأحوص لضيقٍ في مؤخّرة عينيه ، نُفي إلى دهلك ، وأطلقه يزيد بن عبد الملك ، مات في دمشق نحــو عــام 105هـ – 723م . ينظر : سير أعلام النبلاء لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيــق مـأمون الصاغرجي ، ج4 : 593 . والأغاني للأصفهاني ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر – بيروت ، 1389هـ ، ج4 ، : 224 – 268 .

[3] دهلك : جزيرة في بحر اليمن ، وهي مرسى بين بلاد اليمن والحبشة ، بلدة ضيقة حرجة حارّة ، وكان بنو أميّة إذا سخطوا على أحد نفوه إليها . ينظر : معجم البلدان : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي ، دار صادر – بيروت ، 1374هـ/ 1955م ، مجلد1 : 195 .

[4] الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ، طبعة بيروت ، ج4 : 247 .

أمّا الكُمَيْتُ بنُ زيدٍ[1] الذي كان مناصراً للشيعة ضدّ بني أميّة ، فنراه يقف أمام هشام بن عبد الملك مستعطفاً ومعتذراً إليه عما بدر منه من إساءة بحقّ الأمويين ، ويذكّر هشاماً أنّ العفو عن المسيء وغفران ذنبه من شيم بني أميّة الذين أضحوا أملاً لكل واقعٍ في ملمّة ، ثم ينتقل الكُميْت إلى مدحهم والإشادة بهم وباستلامهم مقاليد الخلافة ، فهم أهل لها ، وجديرون بها من معاوية أوّلهم إلى هشام عاشرهم ، ويأمل الشاعر أن تستمر الخلافة فيهم إلى قيام الساعة ، وفي هذا يقول :

كمْ قالَ قائلُكم لعاً	لكَ عندَ عثْرته لِعاثر
وغفرتُم لذوي الذُّنو	بِ من الأكابرِ والأصاغر
أ بَني أميّةَ إنّكم	أهل الوسائلِ و الأوامر
ثِقتي لكلِّ ملمّةٍ	وعشيرتي دونَ العشائر
أنتم معادنُ للخلا	فةِ كابراً من بعدِ كابر
بالتِّسعةِ المتتابعين	خلائفاً و بخيرِ عاشر[2]
وإلى القيامةِ لا تزالُ	لشافعٍ منكم و واتر[3]

[مجزوء الكامل]

ويعفو هشام عن الكُميْت ، وما أنْ تعود الحريّة إليه حتى يرجع إلى نضاله مع الشيعة ضد بني أميّة[4] .

د – <u>في العصر العباسي</u> : يعد هذا العصر الذي يقسم إلى قسمين : أول وثانٍ أطول العصور ، وبالتالي فإن الكمّ الشعري فيه يزيد عن سواه من العصور سالفة الذكر .

---

[1] الكُميت بن زيد بن خنيس الأسدي ، وُلد بالكوفة عام 60هـ ، كان منحازاً لبني هاشم ، كثير المدح لهم ، أشهر شعره الهاشميّات ، اجتمعت فيه خصال لم تجتمع لشاعر ، فكان فقيهاً وفارساً شجاعاً ، وخطيباً ، وسخيّاً ، توفي نحو126 هـ – 744م . ينظر : معجم الشعراء للمرزباني : 238 ، والأعلام للزركلي ، مجلد 5 : 232 .

[2] يقصد خلفاء بني أميّة العشرة ، وهم : معاوية بن أبي سفيان 41 – 60 هـ ، وابنه يزيد 60 – 64هـ ، وابنه معاوية 64 – 64هـ ، ثم مروان بن الحكم 64 – 65هـ ، وابنه عبد الملك 65 – 86هـ ، وابنه الوليد 86 – 96هـ ، وأخوه سليمان 96 – 99هـ ، ثم عمر بن عبد العزيز 99 – 101هـ ، ثم يزيد بن عبد الملك 101 – 105هـ ، وأخوه هشام 105 – 125هـ . ينظر : فذلكة التواريخ لأبي عبد الله محمد بن سلامة بن حكمون القضاعي ، تحقيق عبد الرحيم محمد عبد الحميد ، دار البشير – عمان، ط1 ، 1419هـ : 54 .

[3] ينظر : الأغاني للأصفهاني ، طبعة بيروت ، ج17 : 12 .

[4] تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي : شوقي ضيف : 325 .

وقد اختلفت دوافع الاستعطاف في هذا العصر فمن شاعر محكوم عليه بالموت ، إلى سجين يلتمس إطلاق سراحه ، إلى فقير معدم يــبتغي القوت لسدّ رمقه ، فهذه امرأة فقيرة تستوقف هارون الرشيد وهو بمكة المكرمة ، وتذكر فقرها ، وصنيع الأيام بــها ، وتطلب من الرشيد القوت ابتغاء الأجر والمثوبة من الله تعالى ، تقول :

طحنتنا كلاكـــلُ الأعـوامِ	**وبرَتنا طـــوارقُ الأيامِ**
فاتيناكمــــو نمدُّ أكفّـــاً	**لالتقامِ من زادكمْ و الطعامِ**
فاطلبوا الأجرَ والمثوبةَ فينا	**أيُّها الزّائرونَ بيتَ الحرامِ[1]**

[الخفيف]

(ويــبكي الرشيد عطفاً على هذه المرأة ، ويأمر أصحابه بأن يدفعوا إليها صدقاتـــهم ، فيلقوا عليها الثياب حتى تواريها ، ويملأوا حجرها دراهم ودنانير)[2] .

وهذا أبو نواس[3] يستعطف هارون الرشيد الذي ألقى به في الســجن ، فيطمــع بعطفه الذي وسع به الناس جميعاً ، فزلته لم تبلغ مبلغ الخيانة ، ولم تحدثه نفسه بـــها قط، فهو مخلص للرشيد ، مطبوع على حبه ، لا ينبغي أن يهان أو يذل ، وقد اســتجار بأمير المؤمنين يقول :

فلا يتعذّرَنَّ عليَّ عفـــوٌ	**وسعتَ به جميعَ العالمينا**
فأنّي لمْ أخنْكَ بظهرِ غيـــبٍ	**ولا حدّثتُ نفسي أنْ أخُونا**
فشفّعْ حسنَ وجهِكَ في أسيرٍ	**يدينُ بحبّكَ الرَّحمنُ ديْنـــا**
إذا ما الهونُ حلَّ بمستجيـــرٍ	**فليسَ لجارِ بيتِكَ أن يهـونا[4]**

[الوافر]

ويستجيب الرشيد لاستعطافه ، ويطلق سراحه .

---

[1] المستطرف في كل فن مستظرف : الأبشيهي ، تحقيق سعيد محمد اللحام ، عالم الكتـــب للطباعــة والنشــر والتوزيع – بيروت ، ط1 ، 1419هـ – 1999م : 300 .

[2] المستطرف في كلّ فنّ مستظرف : الأبشيهي : 300 .

[3] أبو نواس : الحسن بن هانئ ، ولد بالأهواز ، وقيل بالبصرة ، تتلمذ على يد والبة بن الحباب ، كان آدب الناس وأعرفهم بكل شعر ، اختلف في عام وفاته ، حيث كانت بين عام 195 – 199 هـ . ينظر : طبقات الشعراء لعبد الله بن المعتزّ بن المتوكل العباسي ، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج ، دار المعارف – مصر ، ط4 ، (د.ت) : 193 . وأبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه : ابن منظور المصري تحقيق محمد سعيد كمال ، مكتبة المعارف – بيروت ، 1969م : 19 .

[4] أعتاب الكتاب : ابن الأبار ، تحقيق صالح الأشتر ، مجمع اللغة العربية – دمشق ، ط1 ، 1380هـ – 1961م : 68 – 69 .

أما تميم بن جميل الذي أمر المعتصم بقتله ، وأُحضِر بين يديه لتنفيذ الحكم فيه، فكان استعطافه أبلغ تأثيراً ، فقد أدرك أنه ميت لا محالة ، وتعذر عليه العـذر والحجـة بعدما رأى السيف والنطع أمامه ، وهو لا يخشى الموت لأنـه قضـاء الله المحتـوم ، والناس جميعاً واقعون به ولكنه يجزع على أطفاله الصغار الذين سـيتركهم خلفـه ، لا يجدون من يعيلهم أو يدفع عنهم مصائب الدهر ، يقول :

وأكبرُ ظني أنَّك اليومَ قاتلـي ... وأيُّ امرئٍ ممّا قضى اللهُ يفلـتُ

ومنْ ذا الذي يُدلي بعـذرٍ وحجةٍ ... وسيفُ المنايا بينَ عينيه مصلـتُ

وما جزعي منْ أنْ أمـوتَ وإنني ... لأعلمُ أنَّ الموتَ شـيءٌ مؤقَّـتُ

ولكنَّ خلفي صبيةً قد تركتهـم ... وأكبادُهم من حسرةٍ تتفـتَّـتُ

فإنْ عشتُ عاشوا خافضينَ بغِبْطَةٍ ... أذودُ الرَّدى عنهم وإن متُّ مُوِّتوا[1]

[الطويل]

(فتبسم المعتصم وقال : كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل ، اذهب ، فقد غفرت لك الصبوة[2] ، وتركتك للصبية)[3] .

وتستوقفنا في هذا العصر روميّات أبي فراس[4] الأسير الذي لبث في أسره أمداً، وتلكّأ سيف الدّولة الحَمَداني في إطلاقه من أسره ، فيرسل إليه أشـعاره شـاكياً معاتبـاً مستعطفاً ، (ويرقّ في شكواه ، ويسمو في استعطافه حتى ليُظَن أنَّه يرثي نفسه رثـاءً مقنعاً ، وتصفو نفس أبي فراس ، وتتصل بالله في مناجاة صادقة طالباً منه العون علـى بلواه ، والفرج من مصيبته)[5] ، ثم ينتقل إلى مدح سيف الدولة ، والإشادة به ، وتذكيره بالمحبّة التي يكنّها له وأواصر القرابة التي تربطهما قبل أن يطلب منه العمـل علـى إطلاقه من أسره ، وفي هذا يقول في إحدى قصائد روميّاته :

هلْ تعطفانِ على العليلِ ... لا بالأسيرِ و لا القتيـلِ

باتتْ تقبّـله الأكـ ... ـفُ سحابةَ اللَّيلِ الطَّويلِ

---

[1] العقد الفريد : ابن عبد ربه الأندلسي ، تحقيق عبد المجيد الرحيني ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط1 ، 1983م ، ج2 : 33 .

[2] الصبوة : الطيش والميل إلى اللهو . ينظر: المعجم الوسيط ، ج1 : 507 .

[3] العقد الفريد : ابن عبد ربه ، ج2 : 33 .

[4] أبو فراس : الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني ، ابن عمّ سيف الدولة ، شاعر وفارس ، ولد عام 320هـ، أسرته الروم في إحدى المعارك ، ولبث في الأسر سبع سنوات ، قُتِل عام 357هـ . ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج2 : 58 – 64 .

[5] فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : مصطفى الشّكعة ، مطبعة المعرفة – مصر ، 1378هـ/ 1958م : 262.

فَقَدَ الضُّيوفُ مكانَـــــه   وبكاه   أبناءُ السَّبيـــــلِ
واستوحشتْ لفراقِـــــه   يومَ الوغى سِربُ الخيولِ
وتعطّلتْ سُمر الرّمـــــا   حِ وأُغمِدَت بيضُ النُّصولِ
يا فارجَ الكربِ العظيـــ   مِ وكاشفَ الخطبِ الجليلِ
كن يا قويُّ لِذا الضَّعيـــ   فِ ويا عزيزُ لِذا الذّليــلِ
قرِّبْه من سيفِ الـــهدى   في ظلِّ دولتِه الظَّليـــــلِ
لم أروِ مـــنه ولا شَفيـــ   تُ بطولِ خدمتِه غَليلـــي
ولئـــــنْ حَننتُ إلى ذرا   هُ لقد حننتُ إلى وصـــولِ
لا بالغَضوبِ ولا الكــذو   بِ ولا القَطوب ولا الملَولِ
يا عدَّتي   في النّائبـــا   تِ و ظلّتي عند المَقيــــلِ
أيــنَ المحبَّـــــةُ والذِّمـــا   مُ و ما وعدْتَ منَ الجميلِ ؟
أجملْ على النَّفْس الكريـــ   مةِ فيَّ و القلبِ الحمـــولِ[1]

[مجزوء الكامل]

ويطلق سراح أبي فراس بعد بضع سنوات من أسره نظـــم خلالـــــها قصـــائده المشهورة بالرّوميّات ، وفيها مزج الشاعر الاستعطاف بالفخر حيناً ، وبالعتاب حينـــاً ، وبالشكوى تارةً ثالثة .

وأمر جديد ظهر في هذا العصر وشاع ، وهو استعطاف الشاعر لغيره[2] .
فهذا المتنبي[3] يستعطف سيف الدولة الحمداني لبني كلاب ، وكان سيف الدولة قد أغار عليهم، وغنم منهم الأموال وسبى النساء ، فأتى بعضهم أبا الطيب وســـأله أن يذكرهـــم لسيف الدولة في شعره ويستعطفه ، فالتمس منه أبو الطيب الرفق بهم ، فهم عبيـــده وإن أخطأوا ، يجيبونه إذا دعاهم للنوائب ، وليسوا بأول قوم يخطئون ويتوبون ، ثم يبيـــن أن

---

[1] ديوان أبي فراس الحمداني : شرح ابن خالويه ، تحقيق سامي الدهان (د.ن) – بـــيروت ، 1944م ، ج2 : 321 .

[2] ينظر : العمدة في صناعة الشعر ونقده : ابن رشـــيق القـــيرواني ، (طبعـــة القـــاهرة) ، ط1 : 44 – 45 استعطاف أبي قابوس الشاعر الرشيد للبرامكة ، واستعطاف أبي تمام مالك بن طوق لقومه .

[3] أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي الكِندي ، وُلِد بالكوفة عام 303هـــ ، ونشأ بالشّام ، ثم تنقّل بالبادية يطلـــب الأدب وعلم العربية ، وأيام النّاس ، قال الشّعر صبياً ، وادّعى النبوة ، فسجن حتى تاب ، ورجع عن دعـــواه ، وفد على سيف الدولة في حلب فمدحه ، ثم قصد مصر والعراق وشيراز ، قتله فاتك الأسدي عـــام 354هــــ / 965م . ينظر : وفيات الأعيان : ابن خلكان ، ج1 : 120 – 125 . والأعلام للزركلي ، مجلد 1 : 115 .

الخطأ الذي بسببه عوقبت القبيلة بكاملها ارتكبه بعض السفهاء ، ولكن عقاب سيف الدولة عمّ جميع القبيلة ، وفي هذا يقول :

ترفّقْ أيُّها المولى عليهــــــم   فإنَّ الرِّفقَ بالجاني عتابُ
فإنّـــهم عبيدُكَ حيثُ كانــــوا   إذا تدعو لنائبةٍ أجابــوا
وعينُ المخطئينَ هم ، وليسوا   بأوّلِ معشرٍ خَطِئوا فتابوا
وجرمٌ جرّه سفهــاءُ قـــومٍ   وحلَّ بغيرِ جارمِه العذابُ[1]

[الوافر]

هــ – **في العصر الأندلسي السابق لعصر ملوك الطوائف** : ويقسم هذا العصــر إلى عصور ثلاثة : عصر الولاية ، وعصر الإمارة ، وعصر الخلافة .

وقد كثر شعر الاستعطاف في نــهاية العصر الثالث وتحديداً في فترة الحجابــة العامرية إلا إننا نقف عند نص شعري أُنشئ في عصر الإمارة وهو لعاصم بن زيد[2] ، وكان هذا الشاعر قد وجد عليه ابنٌ لعبد الرحمن بن معاوية (الداخل) فنكّل بــه بســمْل عينيه وقطْع لسانه(فأما لسانه فانجبر بعيد وقت إلا قليلاً ، واقتدر على الكلام إلا تلعثمــاً كان يعترضه ، واستمر العمى ، فعظم عليه مصابه ، فكثرت في شكواه أشــعاره)[3] ، ومنها قصيدة أنشدها له (صبي كان قد علّمه ودرّبه)[4] ، إذ إنه كان لا يبين الإنشــاد ، وهو في قصيدته يشكو عاهته الجديدة بعد أن فقدَ بصره ، وأمسى عاجزاً عن تأمين قوت عياله ، والشاعر يطنب في الحديث عن معاناته استثارةً لعطف عبد الرّحمن الدّاخل الذي يأمل منه بإعالة ذريّته ، والإنفاق عليهم ، يقول :

خضعــتْ أمُّ بناتــي للعِــدَا   إذا قضى اللهُ بأمرٍ فمضـــى
ورأتْ أعمى ضـــريراً إنّمــا   مشيُه في الأرضِ لمسٌ بالعصا
فبكتْ وجداً وقالتْ قولــــةً   و هيَ حرّى حلّقت مني المدى
ففؤادي قَــرِحٌ من قولِهــــا   ما منَ الأدواءِ داءٌ كــالعمـــى

---

[1] العُرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، شرح ناصيف اليازجي (د.ن) ، 1887م : 398 – 399 .

[2] عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة التميمي ، من أهل البيرة ، وكان شاعراً غزير القول ، حسن المعاني ، مدح بني أميّة في الأندلس ، وعرّض بهشام بن عبد الرحمن الداخل أثناء مديح أخيه سليمان ، فحقد عليه هشام ، ولمّا تمكّن منه نكّل به . ينظر : الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنّشر – القاهرة ، ط1 ، 1397هــ – 1977م ، مجلد 4 : 231 – 232 .

[3] الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب ، مجلد 4 : 232 .

[4] الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب ، مجلد 4 : 233 .

وإذا نالَ العمى ذا بـصـرٍ كانَ حياً مثل ميتٍ قد نُعَـى[1]
وذريتي قد تـجاورتُ بـها مُهَمِّهاً[2] فَقِراً[3]إلى أهلِ الندى
قاصداً خيرَ منـافٍ كلِّهـا ومنـافِ خيرُ مَنْ فوق الثَّرى[4]
[الرمل]

ونلاحظه يعتبر ما تعرض له من تنكيل وتعذيب كان قضاء من الله لا سبيل لرده ويجب عليه الرضى به ، كما نلاحظه يتوسل ببناته وذريته، ويختم قصيدته بمدح عبد الرحمن الداخل كي ينال عطفه وإحسانه .

وننتقل إلى فترة الحجابة العامرية ، حيث استبدّ المنصور بن أبي عامر بالحكم وحجر على الخليفة هشام المؤيد ، وقمع المعارضين ، وكل من ظنّ أنه سيقف في طريقه بقسوة ؛ فقتل بعضهم وسجن البعض الآخر ، فما كان من هؤلاء إلا مخاطبته معتذرين إليه مستعطفين إياه ، راجين صفحه وعفوه ، فهذا عبد الملك بن إدريس الجزيري[5] الذي سخط عليه المنصور فصادر أمواله وسجنه في سجن (المطبق) ، يصف هذا السجن الواقع في منطقة مرتفعة كأنه صومعة عبادة ، تأوي إليه الطيور الجارحة ، وتعصف به الرياح الشديدة ، يشكو من أقام فيه من لوعة الفراق ، وألم الانقطاع عن الأهل والأحبة ، ثم يأمل الشاعر من المنصور رضاه وعفوه ، فيخرجه من هذا السجن ، ويخلصه من الفراق القاسي ، يقول :

في رأسِ أجردَ شاهقٍ عالي الذُّرى ما بعدَه لموحِّدٍ من مَعْمَـرِ
يأوي إليه كلُّ أعـورَ ناعـبٍ وتـهبُّ فيه كلُّ ريحٍ صرصـرِ
ويكادُ منْ يرقى إليـه مـرّةً في عمرِه يشكو انقطاعَ الأبـهرِ
[الكامل]

وفي آخر القصيدة يخاطب الشاعر بنيه قائلاً :

---

[1] الذيل والتكملة في كتابيّ الموصول والصلة : لابن عبد الملك الأنصاري ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة – بيروت ، السفر الخامس ، القسم الأول : 102 – 103 .

[2] مُهَمِّهاً : مهمه فلاناً ، قال له مه مه أي انكفف . ينظر : المعجم الوسيط ، ج2 : 890 .

[3] فقراً : مشتكياً فقره من كسر أو مرض . ينظر: المعجم الوسيط ج2 : 697 .

[4] الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب ، مجلد 4 : 233 . ونلاحظ أن كنية الشاعر قد اختلفت في المصدرين السابقين ففي الذيل (أبو المخشي) ، أما في الإحاطة (أبو المخشبي) ، والأرجح ان يكون الذيل هو الصواب ، لكثرة التصحيف في الإحاطة .

[5] أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري ، وزير أندلسي من الكتّاب ، من أهل قرطبة ، تولى الإنشاء أيام المنصور بن أبي عامر ، وبقي إلى زمن ابنه المظفّر ، توفي نحو 394هـ – 1004م . ينظر: بغية الملتمس لأبن عميرة : 374 – 375 . والأعلام للزركلي ، مجلد 4 : 156 .

لا تسأموا إحضـارَه رغباتِكـــــــم فهباتُه مبسوطةٌ لم تُحظَـــرِ
وعسى رضى المنصور يسفرُ وجهُه فيديلُ من وجهِ الفراقِ الأغبرِ[1]

ويعطف عليه المنصور لما سمع هذه الأبيات ، ويطلق سراحه من سجنه ، ولكن الشاعر كان يطمع بأكثر من ذلك ، فكتب إلى المنصور :

عجبتُ منْ عفوِ أبي عامرِ لا بدَّ أنْ تتبعَه منَّـــة
كذلكَ اللهُ إذا ما عفـــا عن عبدِه أدخله الجنّة

[السريع]

(فسرّ المنصور بذلك وأعاده إلى حاله ، وأطلق له ما اعتقل من ماله)[2] .

ولكن المنصور لم يستجب لكل الشعراء الذيـــن خـــاطبوه مســتعطفين إيـــاه ، فالحاجب الوزير جعفر بن عثمان المصحفي[3] استعطفه بشعر يذيب القلب أعرب فيـــه عن ندمه على إساءته إن كان قد أساء ، وذكر كِبَر سنه وضعفه ، وأمِل بعفو المنصـــور وصفحه ، فالعفو والرحمة من صفات الملوك ، يقول :

هبـــني أسأتُ فأينَ العفوُ و الكـــرمُ إذ قادني نحوكَ الإذعانُ و النَّـــدمُ
يـــا خيرَ منْ مُدّتِ الأيدي إليه أمـــا ترثـــي لشيخٍ نعاه عندكَ القلـــمُ
بالغتَ في السُّخطِ فاصفحْ صَفْحَ مقتدرٍ إنَّ الملوكَ إذا ما استُرْحموا رَحموا[4]

[البسيط]

ولكنّ هذا الاستعطاف ذهب أدراج الرياح ، إذ إنَّ المنصور أجابه بأبيات لا تعرف معنى الرحمة[5] ، إذ يقول :

الآنَ يا جاهلاً زلّتْ بكَ القـــــــدمُ تبغي التكرُّم لماّ فاتكَ الكـــــرمُ
أغريتَ بي ملِكاً لولا تثبّتُـــــــه ما جازَ لي عندَه نطقٌ ولا كلـــمُ

---

[1] إعتاب الكتاب : ابن الأبّار : 195 .

[2] إعتاب الكتّاب : ابن الأبّار : 196 .

[3] أبو الحسن جعفر بن عثمان ، وزير وأديب أندلسي ، استوزره الحكم الثاني (المستنصر) ، وعندمـــا آلــت الخلافة إلى ابنه هشام المؤيد تقلد حجابته ، وتصرّف في أمور الدولة ، وقوي عليه المنصور بن أبـــي عـــامر ، فاعتقله وضيّق عليه ، فاستعطفه جعفر بمنظومة ومنثورة ، فلم يرقّ له ، قُتِل في سجنه نحو 372هـــ – 982م . ينظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقّري التلمساني ، تحقيق إحسان عبـــاس ، دار صادر – بيروت ، 1388هــ / 1968م ، ج1 : 600 . والأعلام للزركلي ، مجلد2 : 125 .

[4] الحلة السيراء : ابن الأبار ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربيـــة للطباعـــة والنشـــر – القـــاهرة ، ط1 ، 1963م، ج1 : 265 .

[5] ويقال إن هذه الأبيات لعبد الملك الجزيري أمره المنصور بنظمها ليردّ على المصحفي . ينظر : نفح الطيـــب للمقّري ، ج1 : 601 .

فايأسْ من العيشِ إذ صرتَ في طبقٍ   إنَّ الملوكَ إذا ما استُنْقِموا نَقَموا

نفسي إذا سخطتْ ليستْ براضـــيةٍ   ولو تشفَّعَ فيكَ العُرْبُ والعجـــمُ[1]

وبقي المصحفي في سجنه إلى أن مات فيه .

وبعد اطّلاعنا على هذه الأشعار الاستعطافية في العصور المختلفة نلحظ أمـــوراً منها :

<u>أوّلاً</u> : أنّ النابغة الذبياني – وإنْ لم يكن أول من نظم شعر الاستعطاف – عُـــدّ قـــدوة لشعراء الاستعطاف والاعتذار الذين خلفوه ، فقد سار جلّهم على نـــهجه ، فمدحوا مـــن استعطفوه ، واعتذروا إليه ، وطلبوا – بإلحاح – عفوه وصفحه ، وعرّضـــوا بالوشـــاة والمفسدين الذين أفسدوا العلاقة بينهم وبين من يستعطفون .

<u>ثانياً</u> : توسّل الشعراء الذين جاءوا بعد النّابغة بوسائل مختلفة لينالوا العطف والصّفـــح ممن يستعطفون ، فقد ذكّروه بأجر الله وثوابه للكاظمين الغيظ ، العافين عن النّاس، كمـــا ذكروا أبناءهم ، وانعدام عائليهم بعدهم ، وتحدّثوا عن غربتهم وابتعـــادهم عـــن أهلـــهم وذويهم استدراراً لعطف مستعطَفهم ، واستمالةً لقلبه .

<u>ثالثاً</u> : كانت هذه الأشعار الاستعطافية موجّهة إلى الحاكم ، والحاكم المستعطَف بيـــن أمرين : إمّا أنْ يردَّ الشاعر المستعطِف خائباً فلا يعطف عليه ، ولا يعفو عنه ، وإما أن يستجيب لاستعطافه ، ويقبل عذره ، ويعفو عنه . والأمر الأول كان قليلاً إلاّ أنّه وُجِـــد، وبخاصّة عندما يكون ذنْب الشاعر متعلّقاً بمعصية دينية تستوجب عقاباً ، عندها يصـــرّ الحاكم على معاقبته إقامةً لشرع الله ، وزجراً لغيره ممن تسوّل لهم أنفســـــهم ارتكـــاب المعاصي والموبقات ، أو عندما يكون جُرْم الشاعر كبيراً بحيث يستصغر الحاكم منـــــه قصيدة استعطاف أمام جرمه العظيم .

أمّا الأمر الثاني : وهو قبول العُذْر ، ومنح العطف ، والعفو عن المذنب ، فكـــان أكثر شيوعاً ، ذلك (أنّ الاستعطاف والاعتذار برٌّ من الصديق ، وذلٌّ من العدو)[2] .

<u>رابعاً</u> : كان لأشعار الاستعطاف بواعث مختلفة ؛ فمن محكوم عليه بالموت يبتغي العفو عنه ، إلى سجين يرنو لإطلاق سراحه وإعادة الحرية له ، إلى منفيٍّ عن وطنه وأهلـــه يطمع بالعودة إلى بلاده وذويه ، إلى فقيرٍ مُعدَم يطلب القوْت والطعام ممن يملكه .

---

(1) الحلّة السيراء : ابن الأبّار ، ج1 : 267 .

(2) نهاية الأرب في فنون الأدب : النويري ، السفر الثالث : 261 .

خامساً : الاستعطاف إمّا أنْ يكون ذاتياً – وهو الأغلب – حيث يستعطِف الشّاعر لنفسه، وإمّا أنْ يكون غيرياً فيستعطف الشّاعر لغيره .

سادساً : الشّاعر المستعطِف قد يخاطب الحاكم مباشرةً ، أو قد يخاطبه عبر وسيط فيقوم هذا الوسيط بنقل استعطاف الشّاعر للحاكم ويشفع له .

سابعاً : لم يلتزم الشّعراء ببحرٍ واحد ، ولا بقافيةٍ واحدة أثناء نظمهم لأشعارهم الاستعطافية ، حتى أنَّ النّابغة قدوتهم خاطب النّعمان بقصائد ثلاث تختلف بحورها وقوافيها .

ويجدر بنا أن نختم هذا الفصل بالإشارة إلى شعراء أبت عليهم عزّة نفوسهم استعطاف غيرهم من البشر مهما عظُم شأنهم ، وعلت رتبهم ، ومن هؤلاء القاضي أبو الحسن السعيدي[1] الذي يقول :

قالوا تعطّف قلوبَ النَّاسِ قلْتُ لهم ... أدنى من النّاسِ عطفاً خالقُ النّاسِ

ولو علمْتُ لسعيي أو لمسألتي ... جدوى أتيتُهُمُ سعياً على الرَّاسِ

وكيفَ أبسِطُ كفّي للسّؤال و قد ... قبضْتُها عن بني الدّنيا على الياسِ

تسليمُ امرئٍ إلى الرّحمنِ أمثلُ بي ... منَ استلامي كفَّ البَر والقاسي[2]

فالشاعر أبت عليه نفسه استعطاف الناس ، وآثر على ذلك طلب العطف والرحمة من خالق الناس ـــ سبحانه وتعالى ـــ الذي بيده المنح والمنع ، والخير والشر، فالناس منهم البرّ الكريم ، ومنهم القاسي اللّئيم ، والمرء عندما يستعطف أحدًا منهم لا يدري من أي الصنفين يكون .

إنّ تتبّع الأشعار الاستعطافية عبر العصور التاريخية المتعاقبة كان مقدمة للحديث عن شعر الاستعطاف في الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف ، ذلك العصر الذي ازدهر فيه الشعر بعامّة ، وكثُر فيه شعر الاستعطاف بشكل خاصّ ، وسنتناول الحديث عنه في الفصول اللاحقة بشيءٍ من التفصيل .

---

[1] القاضي أبو الحسن السعيدي ، يتّضح من كتاب الصّلة أنّ هذا الشاعر عاش بين القرنين الخامس والسّادس الهجريين ، في بلدة (عيذاب) على ساحل البحر الأحمر ، وفيها تولّى القضاء ، وأطلق عليه واليها لقب قاضي القضاة ، كما كان عالماً بالنّحو . ينظر : الصّلة : ابن بشكوال ، الدّار المصرية للتّأليف والتّرجمة ، ط1 ، 1966، القسم الثاني : 584 .

[2] الصّلة : ابن بشكوال ، القسم الثاني : 584 .

الفصل الثاني

الشعراء المستعطفون في عصر ملوك الطوائف

دوافعهم إلى الاستعطاف ، وطرائقهم فيه

الفصل الثاني

الشعراء المستعطِفون في عصر ملوك الطوائف

دوافعهم إلى الاستعطاف ، وطرائقهم فيه

ازداد شعر الاستعطاف في عصر ملوك الطوائف زيادة لافتةً للنظر ، وكان لانعدام الاستقرار في هذا العصر دور كبير في زيادة الأشعار الاستعطافية ، ذلك أنّ الاستقرار السياسي والاجتماعي يصحبه دائماً استقرارٌ نفسي ، يجعل الناس آمنين متعاطفين متراحمين، صدورهم رحبة ، وطباعهم سمِحة ، فلا يشتطّون في عقوبة ، ولا يسرفون في تنكيل ، ولكن في عصور الضيق الاقتصادي ، والقلق الاجتماعي ، والاضطراب السياسي ، تضيق الصدور ، وتظلِم القلوب، ويظنّ الناس ببعضهم الظنون ، ومن هنا يشتطّ القوي في العقوبة، ويتمادى الضعيف في التوبة ، ويمعِن في الاعتذار ، فيكون الاستعطاف[1] .

يلحظ الدارس لشعر الاستعطاف في هذا العصر أنّه لم يقتصر على الحاكم المشتطّ في العقوبة ، بل تعداه إلى المحبوبة التي قطعت أواصر المحبة بينها وبين محبّها ؛ فتركته حزيناً هائماً يئنّ من ذلّ الحبّ وهوانه ، فخاطبها مستعطِفاً إيّاها ، عساها تعطف عليه ، وتعود إليه ، وتخلّصه من عَنَت البُعد والحرمان ، كما يجد للوالد الواجد على ولده نصيب من هذه الأشعار ، ينظمها ابنه ملتمساً عفو أبيه وصفحه ، لذا يمكن القول : إنّ الشعراء المستعطِفين قد نظموا أشعارهم الاستعطافية في مجالات ثلاثة هي : استعطاف الحاكم ، واستعطاف المحبوبة ، واستعطاف الوالد .

أولاً : استعطاف الحاكم :

كان لاستعطاف الحاكم النصيب الأكبر من هذه الأشعار الاستعطافية، فالحاكم – بغض النظر عن مسماه – يعاقب المسيء ، وقد يعاقب البريء ظلماً أو خطأً بفعل دسائس الوشاة ، والعقوبة تتخذ أشكالاً متعددة ؛ فقد يأمر بالقتل أو بالحبس في غيابات السجون ، وقد ينفي عن الوطن ومسقط الرأس ، والشاعر المعاقَب أو الذي قد يلحق به العقاب يسترحم

---

[1] البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر : سعد إسماعيل شلبي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة (د.ت) : 491 – 492 .

ويستعطِف عساه يظفر بعطف الحاكم وعفوه ، فيخلصه من العقوبة الواقـــع بــها أو التـــي تنتظره، وأشهر الشعراء الذين استعطفوا الحكام في هذا العصر هم :

1. ابن زيدون :[1]

سبب اعتقاله : أحظى أبو الحزم بن جهوَر[2] حاكم قرطبة[3] ابن زيدون ، وقرّبه منه ، وقلّده الوزارة في دولته ، (ومنحه لقب " ذي الوزارتين " وهو لقب للوزير الذي يعمل مع الملـــك في تدبير المُلْك، ويتولّى عنه بعض الشئون من جيش أو جباية ، فيكون تصرّفه في شـــئون الرعية بالقول والفعل)[4] ، وظلّت العلاقة بينهما حسنة لا تشوبها شائبة ، ولا يعكّر صفوها معكّر ، (إلى أن وقع لابن زيدون طلبٌ صيّره إلى الاعتقال)[5] ، ولم يتعرّض مصدر واحد من المصادر الأدبية والتاريخية إلى سبب هذا الاعتقال ، (وإن كانت كل المصـــادر تتفـق على أنّه سُجِن بتأثير الوشايات من أعدائه وحسّاده ، أما نوع هذه الوشايات فغامض مجـهول لم يُعرّف على جهة القطع)[6] ، لكنّ الباحثين المحدثين توقعوا أسباباً لسجنه ، فمنـــهم مــن

---

[1] ابن زيدون : أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون المخزومي ، وزير وكاتب وشاعر ، من أهل قرطبة، وُلِدَ عام 394هـ ، وكان منقطعاً إلى الوزير أبي الحزم بن جَهوَر حتى تغيّر عليه وحبسه ؛ فاستعطفه ابن زيدون فلـم يعطف عليه ؛ فهرب من سجنه واتصل بالمعتضد ملك إشبيلية فولاّه وزارته ، توفي في إشبيلية عام 463هـ . ينظـر جذوة المقتبِس في تاريخ علماء الأندلس للحميدي ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري – القـاهرة ، ط2 ، 1403هـ / 1983م ، القسم الأول : 205 . وبغية الملتمِس لابن عميرة الضبّي : 186 – 187 . وسيَر أعلام النبـلاء للذّهبي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ج18 : 240 . والأعلام للزركلي ، مجلد 1 : 158 .

[2] ابن جهوَر : أبو الحزم جهوَر بن محمد بن جهوَر ، وُلد عام 364هـ ، ولي الوزارة أيام بنـــي عـامر إلـى أن انقرضت دولتهم ، بايع هشاماً المعتدّ مع أهل قرطبة ، ولمّا خُلِع هشام عام 422هـ استقلّ أبـــو الحـزم بقرطبـة ، وساسها أحسن سياسة ، توفي عام 435هـ . ينظر مطمح الأنفُس ومسرح التأنُّس في مُلَح أهل الأندلس للفتــح ابـن خاقان ، تحقيق محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط1 ، 1403هـ / 1983م: 153 – 166 .

[3] قرطبة : مدينة عظيمة ، تقع في وسط الأندلس ، بينها وبين البحر مسير خمسة أيام ، كانت عاصمة لملوك بنـــي أمية ، وكانت محصنة بسور عظيم من الحجارة ، استمرّ عزّها ومجدها حتى عام 440هـ ، حين عُمِّـرت إشـبيلية عمارة صارت بها سرير مُلكِ الأندلس ، وخُرِّبت قرطبة وصارت كإحدى المدن المتوسطة . ينظر معجـــم البلـدان لياقوت الحموي ، مجلد 4 : 324 .

[4] تاريخ الأدب العربي في الأندلس : إبراهيم علي أبو خشب ، دار الفكر العربي – القاهرة ، 1966م : 341 .

[5] المُغرِب في حلى المغرب : ابن سعيد المغربي ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف – القاهرة ، ط2 ، (د.ت) ، ج1 : 63 .

[6] ابن زيدون عصره – حياته – أدبه : حسن جاد حسن ، المطبعة المنيرية – مصر ، 1375هـ / 1955م : 66 .

رأى أنّ اتّهامه بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه بعد وفاته أدّى به إلى السجن[1] ، ومنهم من جعل حبسه بسبب هجائه المقذع للوزير ابن عبدوس غريمه في حبّ ولّادة[2] ، ومنهم من عزا حبسه إلى سبب آخر ؛ وهو تعطّش نفس ابن زيدون للمجد ، وتسويلها له بالانقلاب على أبي الحزم، واستخلاص الأمر لنفسه ، مستغلاً حنين الناس إلى الخلافة الأموية ، وتذمّرهم من حكم أبي الحزم الذي ساهم ابن زيدون في صنعه ، وأسهم في رفعه[3] ، ولعل هذا هو السبب المرجّح لاعتقاله ؛ (لأنّ أشدّ ما يخشاه الحكام هو تطلّع مَنْ حولهم إلى السلطة ، وهم لا يتورعون عند الضرورة عن ضرب أقرب المقرّبين إليهم ، ولو كانوا أخوة لهم بل أبناء)[4] ، وعليه فإنّ الأسباب الأخرى تُعدّ تافهةً لا يُعقل أن يقضي ابن زيدون لأجلها مدّة طويلة من الاعتقال تحت سمع أبي الحزم وبصره ، وقد كان عَلَماً من أعلام دولته ، وركناً من أركانها ، ويلمّح ابن زيدون في شعره إلى سبب اعتقاله ، ويبيّن أنّه ارتكب ذنباً غير متعمّد ، فقام أعداؤه وحسّاده بتهويل أمره ، وإظهاره بمظهر الذنْب العظيم الذي لا يُغتفر ، لكنّ ابن زيدون لم يوضح ماهيّة هذا الذنْب ، إذ يقول :

ومِثْلي قد تهفو به نشوةُ الصِّبا	**ومِثْلُكَ من يعفو وما لكَ من مِثْلِ**
هي النَّعْلُ زلّتْ بي فهل أنت مُكْذِبٌ	**لقيل الأعادي أنّها زَلّةُ الحِسْلِ**[5]

[الطويل]

ومهما يكن السبب الذي لأجله سُجن ابن زيدون ، فقد لعب كارهوه وحاسدوه دوراً كبيراً في إيغار صدر أبي الحزم عليه ، حيث أنّه يُظهِر نفسه بمظهر الإنسان البريء

---

[1] ابن زيدون : شوقي ضيف ، دار المعارف – مصر ، ط9 ، (د.ت) : 23 . والحضارة العربية الإسلامية في الأندلس : سلمى الخضراء الجيوسي ، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ، ط1 ، 1988م ، ج1 : 514 .

[2] القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الدانية : عبد الله أنيس الطبّاع ، دار ابن زيدون – بيروت ، ط1 ، 1406هـ/ 1986م : 190 .

[3] ملامح الشعر الأندلسي : عمر الدقّاق ، دار الشرق – بيروت ، ط1 ، 1975م : 135 .

[4] ملامح الشعر الأندلسي : عمر الدقّاق : 135 .

[5] ديوان ابن زيدون : شرح وتحقيق كرم البستاني ، دار صادر – بيروت ، ط1 ، 1975م : 162 .

المفترى عليه الذي سُجِن بسبب (نميمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق)[1] .

مدة سجنه : سُجِن ابن زيدون وهو في ريعان الشباب ، ولمّا يبلغ الثلاثين من عمره ، ويشير إلى ذلك في قصيدة نظمها في سجنه ، حين يقول :

لم تطوِ بُرْدَ شبابي كَبْرَةٌ و أرى   بَرْقَ المشيبِ اعتلى في عارضِ الشَّعْرِ

قبل الثَّلاثين إذ عَهْد الصِّبا كَثَبٌ   وللشبيبةِ غُصْــنٌ غيــر مُهْتَصَــــرِ[2]

[البسيط]

ولبث في سجنه خمسمئة يوم ، أشار إليها في بيتينِ من الشعر : الأول استعطف به ابن جهوَر ، حيث يقول :

أفصبرٌ مِئينَ خمساً من الأيا   م ناهيكَ عن عذابٍ أليم[3]

[الخفيف]

أما الثاني ، فقاله في قصيدة عقب فراره من السجن ، يترجّى فيها صديقه أبا بكر بن مســلم أن يشفع له عند أبي الحزم بن جهوَر :

مِئون من الأيام خمسٌ قطعتها   أسيرٌ وإن لم يَبْدُ شدٌّ ولا قمْطُ[4]

[الطويل]

وهذا يعني أن ابن زيدون مكث في سجنه نحواً من ستة عشر شهراً وعشرين يوماً .

استعطافه شعراً : ما انفكّ ابن زيدون يستعطف أبا الحزم بن جهوَر شعراً ونثراً[5] ؛ لــيرقّق قلبه؛ ويلين جانبه ؛ ويستدرّ رحمته ، وهو في قصائده الاستعطافية جميعــها يحمــل علــى الوشاة والحاسدين ، ويحاول جاهداً أن يُبرّئَ نفسه من كل التُّهَم التي رُمي بها ، ويظــهر أنّ سجنه كان بسبب دسائس هؤلاء الوشاة الذين نسبوا إليه مآثم لــم يقترفــها ، ومعــايب لــم

---

[1] الرسالة الجِدّيّة لابن زيدون . ينظر إليها في الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام الشنتيري ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة – بيروت ، ط1 ، 1399هـ / 1979م ، قسم 1 ، مجلد 1 : 340 – 346 . وديوان ابن زيــدون ورسائله : تحقيق علي عبد العظيم ، مكتبة نهضة مصر ، 1957م : 680 – 718 . وفي الأدب الأندلســي : جــودت الركابي ، دار المعارف – مصر ، ط2 ، (د.ت) : 266 – 281 .

[2] ديوان ابن زيدون : 148 .

[3] ديوان ابن زيدون : 124 .

[4] ديوان ابن زيدون : 86 .

[5] استعطفه نثراً في رسالته الجدية . ينظر إليها في الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلــد 1 : 340 – 346 . وفــي ديوان ابن زيدون ورسائله : 680 – 718 .

يرتكبها، فكان مثاله كمثال الذئب الذي اتّهم زوراً وبهتاناً بدم يوسف – عليه السلام – ، وفي ذلك يقول :

كان الوشاة وقد مُنيتُ بإفكِهِم   أسباطَ يعقوبَ وكنْتُ الذّيبا[1]

[الكامل]

وهم إنّما تألّب حقدهم عليه ، واشتعلت نيران حسدهم بسبب تقدّم ابن زيدون عليهم بعلمه وفضله ، فاتّهموه بأمور باطلة لم تحدّثه نفسه بها قطّ :

بلغْتُ المدى إذ قصّروا فقلوبهم   مكامن أضغانٍ أساودها رُقُطُ

وقد وسموني بالتي لستُ أهلها   ولم يُمْنِ أمثالي بأمثالها قطُّ[2]

[الطويل]

استعطف ابن زيدون أبا الحزم بقصائد عدّة ، ولعل أولى هذه القصائد قصيدته اللاميّة التي (نظمها الشاعر في مُفتتح حياته التعسة بسجنه)[3] ، ويستهلّها بالتماس الرحمة من كائنات جديرة بمشاركته عواطفه ومشاعره ، صعابه ومآسيه ؛ فالغمام آن له أن يبكي على مصابه ، ويطالب البرق بثارات حقّه المهضوم ، وتقيم أنجم الليل المآتم نادبةً ما تعرّض له الشاعر من سجن وعناء، ولو أنصفته هذه النجوم التي هي كفؤٌ لهمّته لتهاوت من أبراجها لما ناله من ذلّ وضيْر :

ألم يأنِ أن يبكي الغمامُ على مِثْلي   ويطلبُ ثأري البَرْقُ منصلتَ النَّصلِ

وهلاّ أقامت أنجمُ الليل مأتـــماً   لتندبَ في الآفاق ما ضاعَ من نثلي

و لو أنصفتني وهي أشكال همّتي   لألقت بأيدي الذّلّ لمّا رأتْ ذلّـــي[4]

[الطويل]

وينتقل الشاعر للحديث عن حال الزمن الذي لا ينصف ذوي الأفهام والعقول ، وكأنّ بينه وبينهم ثأراً ؛ فيسلط عليهم أعداءهم من الجهلة والسفهاء ، ولو كان بمقدور الشاعر أن يستبدل جهلاً ببعضٍ من حلمه ليرضى هؤلاء لفعل ذلك :

---

[1] ديوان ابن زيدون : 133 .

[2] ديوان ابن زيدون : 87 .

[3] ابن زيدون : شوقي ضيف : 60 .

[4] ديوان ابن زيدون : 159 .

أخصُّ لِفهمي بالقلَى وكَأنَّمـــــا يَبيتُ لذي الفهمِ الزّمانُ على ذحـلِ[1]
ولو أنّني أسطيعُ كي أُرضي العِدا شريتُ ببعضِ الحلمِ حظّاً من الجَهْلِ[2]

[الطويل]

ولا يلبث الشاعر أن يتحامل على ذاته ، ملتمساً جانب الصبر ، ليخاطب أمّه الساهرة العينينِ همّاً وغمّاً خوفاً على مصيره ، وإشفاقاً لمآله ، مذكّراً إيّاها بأنّها ليست أول أمٍّ تفجع بفـــراق ولدها ، وليكن لها في أمّ موسى عبرة عندما ألقت بفلذة كبدها إلى اليمّ راضية بحكـــم الله ، مؤمنة بقضائه :

أقِلّي بكاءً لستِ أول حُـــــرَّةٍ طوتْ بالأسى كشحاً على مَضضِ الثّكلِ
وفي أمّ موسى عبرةٌ إن رمتْ به إلى اليمِّ في التّابوتِ فاعتبري واسلي
ولله فينا علمُ غيْبٍ وحسبُـنـــا بِه عند جوْر الدّهرِ مِنْ حَكَمٍ عَـــدْلِ[3]

[الطويل]

وينتقل الشاعر لمدح أبي حزم قبل أن يسهب في الحديث عـــن معاناتـــه ، ويشـــبه الشاعر نفسه بالجواد الذي يسبق نظراءه من الجياد في ميادين السباق ، ولكنّه أمسى ثاويـــاً في مربط الهون ، يعلو تصهاله مشتكياً متألماً ، لكن لا أحد يستمع إلى شكاويه المتكـــررة ، ويعاتب الشاعر أبا الحزم على إهماله رسائله المتكررة التي تحثّه على العفو عنه وإطـــلاق سراحه ، وعلى الرغم من ذلك ما زال الشاعر يأمل بعفو أبي الحزم الذي يتشوق إليه كمـــا تتشوق الأرض الماحلة إلى الماء المنهمر من السحب الماطرة :

جوادٌ إذا استــنَّ الجِيادُ إلى مَـــدى تَمطرَ فاستولى على أمدِ الخصـلِ
أفي العَـدْلِ أنْ وافتكَ تترى رسائلي فلمْ تتركن وضعاً لها في يدي عدلِ
أعدُّكَ للجلّـى وآمــــلُ أن أرى بنُعماكَ موسوماً وما أنا بالغفـــلِ
وما ذاكَ وعدُ النّفسِ لي منكَ بالمنى كأني به قد شِمتُ بارقةَ المحـــلِ[4]

[الطويل]

---

[1] الذّحل : الثأر . ينظر المعجم الوسيط ، ج1 : 309 .
[2] ديوان ابن زيدون : 159 – 160 .
[3] ديوان ابن زيدون : 160 .
[4] ديوان ابن زيدون : 161 .

ثم يُعَرِّض الشاعر بالوشاة الذين أوغروا صدر أبي الحزم عليه ، ويوضح أنّه لم يقترف إثماً عظيماً ، ولم يرتكب جريرةً لا تغتفر ، وإنما كان ذنبه نزوة من نزوات الشباب التي ينبغي أن يغفرها أبو الحزم ويعفو عنها :

ولو أنّني واقعتُ عمداً خطيئةً ... لما كان بدعاً من سجاياك أن تُملي

فلم أستثر حرب الفِجار[1] ولم أُطع ... مسيلمةَ إذ قال : إنّي من الرُّسلِ

ومِثْلي قد تهفو به نشوة الصِّبا ... ومِثْلُكَ مَنْ يعفو و ما لكَ مِن مِثْلِ[2]

[الطويل]

ويفند الشاعر دعوى الوشاة ، فعقله ينهاه عن ارتكاب ما زعمه هؤلاء ، كما ينهاه عن اتخاذ ناقضة الغزل[3] قدوة له ، فلا يعقل أن ينقض الشاعر القصائد التي مدح بها أبا حزم بذنب مشين ، أو يقابل إحسان أبي حزم إليه ونعمه عليه بإساءة ، ويعود الشاعر مرّة أخرى ليوضح لأبي الحزم أنّ خطأه لم يكن مقصوداً ، لكنّ الأعادي هوّلوا أمره ، وأظهروه بمظهر الذنب العظيم الذي يدلّ على خسّة الشاعر ودناءته :

وإنّي لتنهايَ نهايَ عن التي ... أشادَ بها الواشي ويعقلني عَقْلي

أأنكثُ فيكَ المدحَ مِنْ بعدِ قوّةٍ ... فلا أقتدي إلاّ بناقضة الغَزْلِ

وما كنتُ بالمُهدى إلى السّؤددِ الخنا ... ولا بالمسيء القول في الحسَنِ الفعْلِ

ومالي لا أثني بآلاء منعمٍ ... إذا الروض أثنى بالنسيم على الطلِّ

هي النّعل زلّتْ بي فهل أنت مُكذِّبٌ ... لقيلِ الأعادي إنّها زلّةُ الحِسْلِ[4]

[الطويل]

ويختم الشاعر قصيدته هذه طامعاً ليس في إطلاق سراحه فحسب ، وإنّما بغفران أبي الحزم ، وصفحه الجميل ، وعودة العلاقة بينهما حسنة كما كانت لا تشوبها شائبة ، فيكون عند ذلك مثال الشاعر كمثال العاشق المتيّم الذي يحقق أمانيه بوصال محبوبته ،

---

[1] حرب الفِجار : نشبت بعد عام الفيل بين قريش وهوازن ، سميت بالفجار ؛ لأنّ القتال حدث في الأشهر الحرم . ينظر الموسوعة العربية الميسرة : إشراف محمد شفيق غربال ، دار الجيل – مصر ، 1416هـ / 1995م ، مجلد1 : 117 .

[2] ديوان ابن زيدون : 161 – 162 .

[3] إشارةً إلى الآية الكريمة [ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوّةٍ أنكاثاً] . النّحل ، آية 92 .

[4] ديوان ابن زيدون : 162 .

ويعرب الشاعر عن ثقته بأخلاق أبي الحزم العالية ، وأفعاله الحميدة التي ستمكنه من الحصول على عفوه وصفحه ، وأمّا إذا تعذّر عليه ذلك ، وبقيت القطيعة بينهما ، فسيشدّ الشاعر رحاله بعد إطلاقه ، وسيرحل إلى بلاد بعيدة ، لكنّه سرعان ما يعود ليحثّ أبا الحزم على النظر إليه بعين الرضى ، ليقابل الشاعر ذلك بمدح أبي الحزم والثناء عليه ، والإشادة به في محافل الناس ومجالسهم :

ألا إنّ ظنّي بين فِعليكَ واقفٌ وقوف الهوى بين القطيعةِ والوصلِ

فإنْ تَمْنَ لي منكَ الأماني فشيمةٌ لذاك الفِعال القَصدِ و الخُلُق الرَّسْلِ

وإلاّ جنيتُ الأُنسَ من وحشةِ النّوى وهولِ السُّرى بين المطيّةِ والرّحلِ

وأينَ جوابٌ منكَ ترضى به العُلا إذا سألَتْني بعدُ ألسنةُ الحَفلِ[1]

[الطويل]

لقد استعطف ابن زيدون أبا الحزم في هذه القصيدة استعطاف الأبيّ المحافظ على كرامته ، المفتخِر بنفسه (وظهر بنفسٍ كبيرة ، حتى أنّه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان عاتباً أشدّ منه مادحاً)[2] ، لذا فقد يكون هذا من الأسباب التي جعلت أبا الحزم لا يستجيب لتوسلات الشاعر ، وأصرّ على إبقائه في محبسه ، فعاد ابن زيدون مرّة ثانية يستعطفه بقصيدة رائيّة[3] استهلّها بالغزل مجاراة للشعراء الأقدمين ، وفيها يعبّر عن سهاده وأرقه لهجر محبوبته قبل أن يتحدّث عن معاناته في سجنه ، هذه المعاناة التي أثقلت كاهله ، وهو ما زال في ريعان شبابه :

مَنْ يسألِ الناس عن حالي فشاهدُها مَحضُ العِيانِ الذي يُغني عن الخَبَرِ

لم تَطْوِ بُرْدَ شبابي كَبْرةٌ وأرى برقَ المشيبِ اعتلى في عارضِ الشّعرِ

قبل الثلاثينَ إذ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ و للشبيبةِ غصنٌ غيرُ مُهتصَرِ[4]

[البسيط]

ويقف الشاعر بشموخ أمام الشامتينِ الذين قرّت عيونهم بمعاناته ، مذكِّراً إيّاهم أنّ السجن لا يعيبه ، ولا ينقص من قدره ، فهو كالأشجار الباسقة التي تعصف بها الرياح ، وكالشمس

---

[1] ديوان ابن زيدون : 163 .

[2] بلاغة العرب في الأندلس : أحمد ضيف ، مطبعة الاعتماد – مصر ، ط2 ، 1356هـ / 1938م : 71 .

[3] ومطلعها : ما جادَ بعدكِ لحظي في سنا القمرِ إلاّ ذكرتُكِ ذكر العينِ بالأثرِ .

[4] ديوان ابن زيدون : 148 .

والقمر اللذينِ يكسفان ويخسفان دون غيرهما من النجوم ، وكالسيف الصارم البتّار الذي يغمد في قِرابه :

لا يُهنئُ الشامتَ المرتاحَ خاطــــرُه	أنّي معنّى الأماني ضائع الخَطَـرِ
هل الرياح بنجمِ[1] الأرضِ عاصِفَــةٌ ؟	أم الكسوف لغيرِ الشّمسِ و القَمَرِ؟
إنْ طالَ في السِّجنِ إيداعي فلا عَجَبٌ	قد يودع الجفنَ حدُّ الصّارمِ الذَّكَرِ[2]

[البسيط]

ثم يلتفت الشاعر السجين إلى أبي الحزم محاولاً أن يكسب ودّه ، ويحظـــى بعطفــه (فيلتمس له بعض العذر في إطالة أمد سجنه ، ويُحمل القدر هذه التبعة دونه)[3] ، ويعجــب الشاعر من أبي الحزم وهو ملجأه المنيع ، وحصنه الحصين أن ألمّـــت بـــه الملمّـــات ، أو أصابته مصائب الدهر كيف يُحمله أوزار ذنوب لم يرتكبها ، وكبائر لم يقترفها ، ثم يــــأمل الشاعر بتأنّي أبي الحزم وعفوه وصفحه في وقت يحذر فيه من تجنّيه وعقابه :

وإن يُثبِّطْ أبا الحزمِ الرِّضى قَــدَرٌ	عن كشفِ ضرِي فلا عتَبٌ على القَدَرِ
ما للذنوبِ التي جاني كبـــائرِها	غيري ، يُحملني أوزارهـــا وَزَري ؟[4]
مَنْ لم أزل من تأنِّيه على ثقـــةٍ	ولم أزل من تجنِّيــه علــى حَـــذَرِ[5]

[البسيط]

---

[1] النجم : النبات الذي لا ساق له . ينظر المعجم الوسيط ، ج2 : 905 .

[2] ديوان ابن زيدون : 148 – 149 .

[3] ملامح الشعر الأندلسي : عمر الدقاق : 143 .

[4] الوَزر : الملجأ . ينظر المعجم الوسيط ، ج2 : 1028 .

[5] ديوان ابن زيدون : 149 .

وينتقل الشاعر بعد ذلك لمدحِ أبي الحزم ، والإشادة به ، وذِكر مناقبه قبل أن يعزف على وتر آخر من أوتار الحسّ الإنساني وهو إدالة الإنسان من العزّ إلى الذل ، ومن السعادة إلى الشقاء (ويذكّر الشاعر أميره بما كان عليه من رفيع المنزلة في سلم الوجاهـــة ، ومـــا صار إليه من التمرّغ بحمأة المذلة والمتربة)[1] ، ثم يرنو الشاعر إلى رضى أبـــي الحـــزم الذي يتشوّق إليه كتشوّق الظمآن إلى الماء البارد الزلال ، وكان حقاً عليه إن رأى بشائر هذا الرضى شكر الأمير والثناء عليه والوفاء له :

قد كنتُ أحسَبُني والنجمُ في قَـرَنٍ ... ففيمَ أصبحتُ منحطّاً إلى العَفَرِ ؟

هل مِنْ سبيلٍ فماءُ العَتْبِ لي أَسِنٌ ... إلى العذوبةِ من عُتباك والخَصَرِ

نذرت شكركَ لا أنسى الوفاءَ بـــه ... إن أسفَرَتْ لي عنها أوجهُ البَشَرِ[2]

[البسيط]

ويتابع الشاعر لافتاً نظر أبي الحزم إلى أنّه لا يريد المستحيل ، ولا يتعسّـــف فـــي الطلب ، فهو لا يسأله الصِّبا لمن أوفي على المشيب ، وإنّما يطلب أمراً سهلاً لا يعـــدو أن يكون لفتة كريمة من لفتات الأمير بقبول عذره ، وإقالة عثاره ، فهو وإن أخطأ يبقـــى مـــن البشر ، وليس فيهم معصوم عن الخطأ ، أو محصّن من الزلل ، وزلل المحكوم يرافقه أبـــداً صفح الحاكم وحلمه ، والإغضاء عن صغائر الذنوب زينة السيادة ، كما أنّ الحيـــاء زينـــة الحُسْن وبهاؤه :

لا تَلْهُ عني فلم أسألكَ معتَسِفاً ... ردّ الصِّبا بعد إيفاءٍ على الكِبَــرِ

هبني جهلتُ فكان العِلق سيئةً ... لا عُذرَ منها سوى أنّي من البَشَرِ

إنّ السِّيادةَ بالإغضاءِ لابســةٌ ... بهاءَها ، وبهاء الحُسنِ في الخَفَرِ[3]

[البسيط]

ويلحّ الشاعر في طلب الشفاعة من أميره ، هذه الشفاعة التي إن تكرَّم الأمير بـــها ، فلا أحد يستطيع ردّها ، والشاعر إن نالها يكون كمن يحيا في وطنه ، بين أحبّائه وخلاّنــــه بسعادةٍ وهناء ، ثمّ يختم قصيدته بتمني السعادة والنعيم لأميره في الدنيا ، وبجنات الخُلد فـــي الآخرة :

---

[1] ابن زيدون : نديم مرعشلي ، دار الشرق الجديد – بيروت ، ط1 ، 1961م : 66 .

[2] ديوان ابن زيدون : 150 – 151 .

[3] ديوان ابن زيدون : 151 .

لكَ الشَّفاعةُ لا تُثنـــى أعنَّتُـــها دونَ القبولِ بمقبولٍ من العُذُرِ
والبسْ من النعمة الخضراءِ أيكتها ظلاًّ حراماً على الآفات والغِيَـــرِ
نعيمُ جنَّـــةٍ إن هـــي انصرمــتْ نعمتَ بالخُلْدِ في الجنّاتِ والنَّهرِ[1]

[البسيط]

نظم ابن زيدون قصيدته هذه وغيرها من القصائد ، وأرسل الرسائل المتتابعة إلى أبي الحزم ملتمساً عطفه ، وراجياً رحمته ، ولكنّ جهوده هذه باءتْ بالفشل ، إذ أصرّ أبو الحزم علـــى إبقائه في سجنه ، وعدم العفو عنه ، ورأى الشاعر أنّ مخاطبة الأمير مباشرة لا تجدي نفعاً، فلجأ إلى طريقة جديدة وهي مخاطبة وسيط علّه يتوسط له ، ويتشفّع فيه ، فالتفت إلى صديقه أبي حفص بن بُرد[2] يستنجد به ، ويلتمس منه العون ، ويسأله التوسّط لدى الأمير ، فخاطبه بقصيدة[3] استهلّها بالحكمة مجاراة لشعراء المشرق[4] ، ثم انتقل لمدح صديقه أبي حفص قبل أن (يعجب لمن آلفه من الأصدقاء ، كيف لا يسعون إلى خلاصه ، وهو يائس شـــقيٌّ فـــي غياهب السجن)[5] ، والأسوأ من ذلك أنّ هؤلاء الأصدقاء تنكّروا للود ، وخـــانوا العـــهد ؛ فأشاحوا عن الشاعر بوجوههم ، واتقوا الاقتراب منه ، كما لو كان السامري (وهو الـــذي أضلّ بني إسرائيل ، ودعاهم إلى الشِّرك لمّا خرج موسى – عليه السلام – لمناجاة ربـــه ، فعاقبه الله بأنّه لا يمسّ إنساناً إلاّ أدركتهما الحُمّى معاً)[6] ، فكان الناس يتحاشوه ، ويخشون مساسه ، وليس هذا فحسب ، وإنّما انقلب بعض هؤلاء الأصدقاء على الشاعر ذئاباً يتمنـــون انتهاش لحمه ، وإلحاق الأذى به ، يسألون عنه ، ويتسقّطون أخباره ، كما يعتـــسّ الذئـــب فريسته في ظلام الليل :

---

[1] ديوان ابن زيدون : 151 .

[2] أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن برد الأصغر ، تمييزاً له عن جدّه الذي كان يعرف بالأكبر ، وزير وكـــاتب وشاعر ، له رسالة (السيف والقلم) . ينظر مطمح الأنفُس لابن خاقان : 207 ، ورايات المبرّزين وغايات المميَّزين لعلي بن سعيد الأندلسي ، تحقيق النعمان عبد المتعال القاضي ، مطابع الأهرام – القاهرة ، 1393هـ / 1973م : 71.

[3] ومطلعها : ما على ظنّي باسُ يجرحُ الدّهرُ وياسو

[4] القطوف اليانعة : عبد الله الطباع : 189 .

[5] ابن زيدون شاعر العشق والحنين : عبد المجيد الحرّ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط1 ، 1413هـ / 1993م : 122 .

[6] مختارات من الشعر الأندلسي : محمد رمضان الدّاية ، منشورات المكتب الإسلامي – دمشق ، 1969م : 78 .

أنا حيرانُ وللأمـــــــ	ـرِ وضوحٌ والتبـــاسُ
ما ترى في معشَرٍ حا	لوا عن العهدِ و خاسوا
ورأوني ســـامريـاً	يتّقى منــه المِســـاسُ
أذؤبٌ هامتْ بلحـمي	فانتهاشٌ[1] وانتهـــاسُ[2]
كلّهم يسأل عن حــا	لي ، وللذِّئبِ اعتســاسُ[3]

[مجزوء الرّمل]

ولكنّ الشاعر بعد هذا الغضب وذاك اليأس يعاوده الرضى والأمل ، فهذه الشـــدّة ســيعقبها فرج، وهذا العسر سيتبعه يُسر ؛ فالماء يتفجّر من الصخر الصلد ، والغيوم تحبس الغيث ثــم تطلقه غزيراً منهمراً ، أمّا الأسدُ الجريء فيلبد ويسكن قبل أن ينقضّ على فريسته :

إن قسا الدّهرُ فللما	ءِ من الصّخرِ انبجاسُ
ولئن أمسيتُ محبو	ساً فللغيثِ احتبــاسُ
يلبدُ الوردُ السّبنتى[4]	وله بعدُ افتـــراسُ[5]

[مجزوء الرمل]

ويختم الشاعر هذه القصيدة بمخاطبة صديقه أبي حفص قائلاً له : (وأنت أيّها الصديق كــن لي كما كنت ، وليبقَ ما بيننا من عهد مديداً دائماً ، بعمر الآس ، لا كذلـــك الــورد الــذي سرعان ما يداهمه الذبول ، ذاكراً إياي في ساعات سعادتك)[6] ، واغتنـــم لحظــات اللــذّة والصّفاء ؛ لأنّ الحياة ليست إلا تلك اللحظات التي يختلسها الإنسان اختلاساً قبل أن تداهمــه صروف الليالي ، أمّا أنا فأرجو أن يخلّصني الدهر من هذه المعاناة ، وهذا الامتناع الطويل، فأشاركك ساعات فرحك ، ولحظات سرورك :

لا يكنْ عهــدُكَ ورداً	إنّ عهدي لــكَ آسُ
وأدِرْ ذِكـــرى كــأســاً	ما امتطتْ كفُّكَ كاسُ

---

[1] الانتهاش : الأخذ بالفم . ينظر المعجم الوسيط ، ج2 : 958 .

[2] الانتهاس : الأخذ بمقدم الأسنان . ينظر المعجم الوسيط ، ج2 : 958 .

[3] ديوان ابن زيدون : 82 .

[4] الورد السّبنتى : الأسد الجريء . ينظر المخصّص لعلي بن إسماعيل المعروف بابن سيده ، دار الفكر – بيروت ، (د.ت) ، سفر 8 ، مجلد 2 : 62 – 65 .

[5] ديوان ابن زيدون : 83 .

[6] ابن زيدون، نديم مرعشلي : 80 .

واغتنمْ صفوَ الليـالــي إنّما العيْشُ اختلاسُ

وعسى أنْ يسمحَ الدَّهــ رُ فقد طال الشّماسُ[1]

[مجزوء الرمل]

هدف ابن زيدون من قصيدته هذه إلى تذكير صديقه به ، وإثارة عاطفته ، وحملـه على التشفّع فيه عند أبي الحزم بن جهور ، وسواءً أتشفّع فيه أبو حفص ، أم لم يفعل ذلـك ، فقد ظلّ الشاعر قابعاً في سجنه .

كان شعور الكبرياء يشيع في قصائد ابن زيدون السابقة ، وكانت أقرب إلى الفخـر بنفسه منها إلى الاستعطاف ، فكان يعتزّ بنفسه كلّ الاعتزاز ، ويتّهم الزمان وأهله بإنكـار قدره وجحود فضله ، ولكن في نهاية المطاف تغلّب ظلام السجن عليه ، وكسر من حدّتـه ؛ لذا نقرأ له أشعاراً نجد فيها كبرياءه مهزومة ، وعزّته مكلومة ، فـها هـو يتحـدّث عـن معاناته التي جعلت رأسه يشيب وهو ما زال في حداثة سنّه ، هذه المعاناة التي لو تعرّضـت لها الجبال الشاهقة لتهاوت من شدّتها ، ثم ينعت نفسه بالسيف الصّدئ الذي يملك الأمير حقّ التصرّف فيه كيفما شاء :

مالي وللأيامِ لــجّ مع الصّـبـا عدوانُها فكسا العذار مَشِيبا

لألمّ بي ما لو ألــمّ بشاهـــق لانهالَ جانبُه فصار كَثيبـا

أنا سيفُكَ الصَّدِئُ الذي مهما تشأ تُعدّ الصّقال إليه والتّذريبا[2]

[الكامل]

وفي قصيدة أخرى يصل الشاعر إلى حضيض اليأس ، ودرك المذلة ، فيصف نفسه بالذليل الذي فقد الأمل بالعفو عنه ، والرضى عليه :

(إبائي) في جِواركمُ الذّليلُ وحدّى في رجائكمُ الكليلُ

أتحيا أنفُسُ الآمالِ فـيـكـم ولي أثناءَها أملٌ قتيـلُ ؟؟[3]

[الوافر]

---

[1] ديوان ابن زيدون : 83 .

[2] ديوان ابن زيدون : 131 – 133 .

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله : 332 . الكلمة الأولى في في البيت أضافها محقق الديوان لتناسب المقام .

وعلى الرغم من ذلك لم يستمع أبو الحزم لتوسلات الشاعر ، وظلّ غاضباً عليه ، مصرّاً على حبسه ، ولكنّ ابن زيدون لم ييأس تماماً من عفو الأمير وصفحه ، فخاطبه مخاطبة أخيرة عندما أرسل له (الرسالة الجدّيّة)[1] ، ويبدو أنّ ابن زيدون قد استنفد المعاني في قصائده المتتابعة ، لذا نراه يكررها نثراً في رسالته هذه ، فقد أعرب فيها عن أمله بعفو أبي الحزم ، وعرّض بالوشاة والشّامتين ، وبرّأ نفسه من الذّنب الذي رُمي به ، ثم ألحّ في طلب شفاعة الأمير التي هي (زكاة المروءة ، وفضل الجاه)[2] ، لكن ما يعنينا في هذه الرسالة هو القصيدة الميمية[3] التي خُتمت بها على أنّها جزء منها ، ولكن بعد الاطلاع على القصيدة ندرك أنها ليست جزءاً من الرسالة ، فالرسالة الجدية كتبها ابن زيدون وهو يرزخ في قيود السجن، وأرسلها إلى الأمير أبي الحزم بن جهور ، أما القصيدة فقد خاطب بها الشاعر أحد الوزراء :

أيُّهذا الوزيرُ ها أنا أشكو   والعصا بِدءُ قرعِها للحليم[4]

[الخفيف]

ويطلب الشاعر من هذا الوزير التوسط له والتشفّع فيه ، ويثني عليه ثناءً يفوق ثناءه على الأمير ، فهو بشفاعته وتوسطه كالرياح التي تؤلف بين السحب المتفرقة فتجمعها ، والفضل في انهمار المطر يعود لهذه الرياح وليس للغيوم المتبعثرة :

للشفيعِ الثّناءُ ، والحمدُ في صَوْ   بِ الحيا للرياحِ لا للغيوم[5]

[الخفيف]

ولا نجد في القصيدة ذِكراً للسجن ، فالشاعر يطلب من هذا الوزير أن يذلل له الصّعب ، ويعيده إلى حمى الأمير :

---

[1] ينظر إليها في الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 340 – 346 . وديوان ابن زيدون ورسائله : 680 –718 . وفي الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 266 – 281 .

[2] الرسالة الجدية ، ديوان ابن زيدون ورسائله : 680 – 718 .

[3] ومطلعها : الهوى في طلوعِ تلكَ النّجومِ   والمُنى في هبوبِ ذاكَ النّسيمِ

[4] ديوان ابن زيدون : 124 .

[5] ديوان ابن زيدون : 125 .

وزعيمٌ[1] بأن يذللَ لي الصّعْـ ـبَ مثابي إلى الهُمامِ الزعيمِ[2]

[الخفيف]

كما نجد الشاعر يكرر المعاني والصور التي تناولها في قصائده السابقة المرسلة إلى أبي الحزم ، فها هو يشبّه نفسه بالشمس والقمر اللذين يكسفان دون غيرهما من النجوم ، ثـمّ يشبهها بالفرس التي سئمت مربطها ، وبالسيف الذي أفسده طول بقائه في غمده :

قمَرُ الأُفْقِ إنْ تأمَّلْتَ والشَّمْـ ـسُ هما يُكسَفانِ دونَ النّجومِ

ما عَنانا أنْ يأنفَ السّابقُ[3] المر بطَ في العتق منه والتهطيـمِ[4]

وبَقاءُ الحُسامِ في الجِفنِ يَثْنـي مِنه بَعدَ المَضاءِ والتّصميـمِ[5]

[الخفيف]

ولا يُعقل أن يكرر الشاعر هذه الصور ، وقد خاطب بها الأميرَ سابقاً دون جدوى .

وكما مرّ بنا فقد لبث ابن زيدون في سجنه خمسمئة يوم ، ونراه في هـذه القصيـدة يذكر هذه المدّة :

أفصبرٌ مئينَ خمساً منَ الأيّـ ـامِ ناهيكَ مِن عذابٍ أليمِ[6]

[الخفيف]

ويُستبعَد أن يكون الشاعر قد نظم هذه القصيدة في آخر يوم له في السجن ، فقد كان مشغولاً بأمرٍ أهم من نظم الشعر وهو الفرار من سجنه ؛ لذا أُرجّح أن يكون الشاعر قد نظـم هـذه القصيدة بعد فراره ، وألحقها برسالة أرسلها إلى أحد أصدقائه مستشفعاً فيه ، وأخطأ الكتّـاب السابقون عندما ألحقوا هذه القصيدة ومقدمتها النثرية بالرسالة الجدّيّة[7] .

---

(1) زعيم : كفيل . ينظر المعجم الوسيط ، ج1 : 394 .

(2) ديوان ابن زيدون : 125 .

(3) السابق : الحصان الذي يتقدّم على سائر الخيول . ينظر المخصّص لابن سيده ، سِفر 6 ، مجلد 2 : 177 .

(4) التطهيم : التمام من كلّ شيء . ينظر المعجم الوسيط ، ج2 : 569 .

(5) ديوان ابن زيدون : 123 – 124 .

(6) ديوان ابن زيدون : 124 .

(7) لم تصلنا جميع أعمال ابن زيدون النثرية ، فقد ذكر المقّري أنّ له كتاباً في التاريخ بعنوان (التبيين) ، لم تصلنا منه إلاّ فقرات وردت في (نفح الطيب) ، كما أنّ ابن زيدون كتب رسائل غير الرسالتين المشهورتين الجدّيّة والهزلية ، وخاطب في بعضها أصدقاء له وطلب منهم التشفّع فيه ؛ كالرسالتين البكرية والمظفّريّة (ينظر إليهما في ديوان ابن زيدون ورسائله : 718 و 754) ، وحتى رسائله التي وصلت لم تصلنا مكتملة ، بل ضاعت أجزاء منها ، كما أُلحقت فقرات من رسالة برسالة أخرى ، ومن هنا جاء الخطأ في إلحاق هذه القصيدة بالرسالة الجدّيّة .

فراره من السجن :

وأخيراً يضيق ابن زيدون بالسجن ، ويعزّ عليه أن يقضي حياتــه بيــن جدرانــه ، ويدرك أنّ جميع محاولاته لاستعطاف أبي الحزم باءت بالفشل ، فيقرر الفرار من الســجن ، ويتمكن من ذلك ، ولكنّه يبقى متخفياً في قرطبة خائفاً مترقباً ، فيراسل أصدقاءه وهم قليلـون بعد محنته يستشفع بهم ، ويخشى أن يتّهموه في كرامته بسبب هذا الفرار ، فيعتذر عنه إلــى صديقه أبي بكر بن مسلم (... ولم أستطع صبراً ، ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلّين : العير والوتد ، وذكرتُ أنّ الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين ، وقد قال تعالى علــى لســان موسى : " ففرت منكم لمّا خفتكم " ، وقال الشاعر :

لا عارَ لا عارَ في الفرارِ فَقَدْ فرَّ نَبي الهُدى إلى الغَارِ)[1]

[المنسرح]

ثم يخاطب صديقه بقصيدة طائية[2] يستهلها بالتغزّل بولّادة ، قبل أن يفضي بــالحديث عــن معاناته التي أحالته إلى فريسةٍ لكل مفترس ، ونهبٍ لكلّ ساطٍ ، ثم يشبّه نفسه بتشبيه طالمــا استخدمه في قصائده السابقة ، فهو كالجواد الصافن الذي أزرى به الربط ، وأثقله القيد :

ألا هل أتى الفِتْيَانَ أنّ فتاهُــمُ فريسةُ من يغدو ونَهزَةُ مَنْ يسطو ؟

وأنّ الجوادَ الفَائتَ الشّأو صافِنٌ تَخوّنَه شكلٌ وأزرى به رَبْــــطُ[3]

[الطويل]

ويعلّق الشاعر آماله على صديقه أبي بكر ، فهو ليس صديقاً فحسب ، وإنّما هو بمثابـة الأب بل بمنزلة الرهط بعدما فقد الشاعر أباه ، وتنكّر له رهطه ، ثم يذكر نعم صديقه عليــه دون جحود أو نكران ، وكأنّه يستحثّه على تتويج هذه النعم بالاستشفاع له عند الأمير :

عليكَ أبا بكرٍ بَكَرْتَ بهمّـــــةٍ لها الخَطَرُ العالي ، وإنْ نالَها حَطُّ

أبي بعدما هِيلَ التّرابُ على أبــي ورهَطي فَذاً حينَ لم يبقَ لي رَهْطُ

لكَ النّعمةُ الخضراءُ تندى ظِلالُها عليّ ولا جَحْدٌ لَدَيَّ ولا غَمْـــطُ[4]

[الطويل]

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 356 .

[2] ومطلعها : شحطنا وما بالدّارِ نأيٌ ولا شحطُ وشطَّ بمن نهوى المزارُ وما شطّوا

[3] ديوان ابن زيدون : 85 .

[4] ديوان ابن زيدون : 85 – 86 .

هَرِمتُ وما للشيْبِ وخَطٌ بِمفرَقــي ولكنْ لشيْب الهمِّ في كَبِدي وخْطُ
وطاوَلَ سوءُ الحالِ نفسي فاذكَرَتْ مِنَ الرّوضةِ الغنّاءِ طاوَلَها القَحْطُ[1]
[الطويل]

ولم تكن هذه المعاناة ، وهذا السجن إلا بسبب افتراء افتري بــــه علـــى الشــاعر ، وعندما فشل في إقناع أميره ببراءته فرّ من السجن ، والفرار لا يعيبه ، فقــد فــرّ موســى – عليه السلام – من القبط لمّا همّوا بقتله :

وقد وسَموني بالتي لستُ أهلَها و لم يُمْنَ أمثالي بأمثالــهـــا قطُّ
فررتُ فإنْ قالوا الفِرارُ إرابـــةٌ فقد فرَّ موسى حين همَّ بِه القِبْطُ[2]
[الطويل]

ويختم الشاعر قصيدته آملاً أن تعود حياته كما كانت سعيدة هنيئة ، ينعم فيها بالأمن والاطمئنان ، راجياً من صديقه أن يحقق له أمله ، ويختصّه بشفاعةٍ تبقى ميسماً يزين حياته:

وإنّي لراجٍ أنْ تعودَ كَبدُنها لي الشّيمةُ الزّهراءُ والخُلُقُ السّبْطُ
فمالكَ لا تختصّني بشفاعةٍ يلوحُ على دَهري لميسمها عَلَــطُ[3][4]
[الطويل]

ولا ندري هل استجاب أبو بكر للشاعر واختصّه بالشفاعة التي طلب ؟ أم خيّــب أملــه ؟ ، على أي حال فقد ظلّ أبو الحزم غاضباً على الشاعر المختفي في أرجاء قرطبة حتى (ألقى نفسه على أبي الوليد بن جهور في حياة والده أبي الحزم ، فشفع له ، وانتشله من نكبتــــه ، وصيّره في صنائعه)[5] ، فكان عفو أبي الحزم عن الشاعر بفضل شفاعة ابنـــه ، غــير أنّ بعض المؤرخين نفى هذه الشفاعة وزعم أنّ الشاعر (استشفع بأبي الوليد وتوسل ، واستدفع به تلك الأسنّة المشرعة والأسل ، فما ثنى عليه عنان عطفه ، ولا كفّ عنه فنون صرفــه ، فتحيّل لنفسه حتى تسلل من حبسه ، ففرّ فرار الخائف ، وسرى إلى إشبيلية سُــرى الخيــال

---

[1] ديوان ابن زيدون : 86 .
[2] ديوان ابن زيدون : 87 .
[3] العلَط : سواد تخطّه المرأة في وجهها تتزيّن به . ينظر المعجم الوسيط ، ج2 : 621 .
[4] ديوان ابن زيدون : 87 – 88 .
[5] إعتاب الكتّاب لابن الآبار : 208 .

الطائف)[1]، ولكن هناك أمران يجعلان الباحث يفنّد هذا الزعم ، ويرجّح الرواية الأولـــى : الأول شعر ابن زيدون الذي نعلم منه أنّ أبا الوليد قد أقاله من عثرته في حياة والــده ، وأنّ الشاعر يحفظ له هذا الجميل ، حيث يقول في قصيدة مدحه بها :

إنّ مَنْ أضحى أباه جَهورٌ قالتْ الآمالُ عنه ففَعَـل
لي ذِكرٌ بالذي أسديتَـــه نابَه وَدَّ حَسودٍ لو خَمَلَ[2]

[الرمل]

والثاني أدلة تثبت أنّ ابن زيدون لم يهرب من سجنه إلى إشبيلية ، وإنّما ظلّ في قرطبة طيلة ولاية أبي الحزم ، حيث رثاه عند موته[3] وفاءً بحقّ ابنه أبي الوليد ، ولا نظنّ أنّه رثاه وهو بعيد عنه في إشبيلية ، ثم أنّ أبا الوليد (لمّا ولي الأمر بعد والده نوّه به – أي بابن زيدون – وأسنى خطته ، وقدّمه في الذين اصطنعهم لدولته)[4] ، (وأوسع راتبه ، وعيّنه للنظر علــى أهل الذمّة في بعض الأمور المعترضة)[5] .

ونستطيع القول : إنّ ابن زيدون قد نال العفو بشفاعة أبي الوليد بن جهور ، وبقـــي في قرطبة طيلة ولاية أبي الحزم ، وفي ولاية أبي الوليد استعاد مجده ، ومرّة أخرى ســطع نجمه، حتى بدأت سحب الجفاء بينهما تبدو ؛ فنزح الشاعر عن وطنه إلى إشبيلية مختاراً .

لماذا أخفق ابن زيدون في استعطاف أبي الحزم ؟

يبدو أن أبا الحزم كان متيقّناً من أنّ الشاعر قد اقترف ذنباً ، فأصرّ على إبقائه فـــي سجنه لينال عقابه ، لكنّ الذي يهمنا هنا هو تلك الهنات والعيوب التي حوتها قصــــائد ابــن زيدون ، والتي جعلته يفشل في استمالة قلب الأمير إليه ، واستدرار عطفه ، فالشاعر عندما كان يخاطب أميره من وراء القضبان (كان يخاطبــه علـى شــيء من الاعتــداد بأدبــه ، ويفاخر

---

[1] قلائد العقيان : الفتح بن خاقان ، المطبعة الخديوية – مصر ، 1866م : 73 . والمُغرِب في حُلى المغرب لابن سعيد المراكشي : 63 – 64 .

[2] ديوان ابن زيدون : 127 – 128 .

[3] رثاه بقصيدة مطلعها : ألمْ ترَ أنّ الشمسَ قد ضمّها القبرُ وأن قد كفانا فقدها القمرُ البدرُ . ينظر: ديوان ابن زيدون ورسائله : 523 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 363 .

[5] إعتاب الكتّاب لابن الآبار : 212 – 213 .

الشعراء ويساميهم)[1] ، كما كان مفتخراً بنفسه – كما مرّ بنا في قصائده السابقة – (مدركاً لمزاياه ، غير مسترسل في مدح ابن جهور إلاّ من خلال نفسه)[2] ، حتى ليكاد (يكون معظم شعره فخراً واعتداداً أكثر منه تنصّلاً واستعطافاً)[3] .

كما أنّ هناك أبياتاً استشفّ أبو الحزم من معانيها إساءة إليه ، وانتقاصاً منه ، فها هو الشاعر يهدد بالالتجاء إلى غير أميره من الأمراء ، وإن قال ذلك على سبيل التهكّم بمن يزين له ذاك السبيل :

يَا مُرْشِدِي جَهلاً إِلى غَيْرِهِ أغنى عن المِصْباحِ ضوْءُ الصَّباحِ[4]

[السريع]

ونجده في قصيدة أخرى يتعجّل أجل أميره ، وإن كان هذا التعجّل متزيناً بحلل المديح :

يا بَهْجَةَ الدَّهْرِ حيّاً وهوَ إنْ فَنِيَتْ حياته زينةُ الآثارِ والسِّيَرِ[5]

[البسيط]

كما نراه يصف ما تعرّض إليه من سجن وعناء بنار البغي التي سرت إلى جنّة الأمن فأحالتها صريماً ، وكأنّه بذلك ينعت الأمير بالبغي والظلم :

نارُ بَغْيٍ سرى إلى جَنّةِ الأمْنِ لَظَاهَا فأصْبَحَتْ كالصّرِيمِ[6]

[الخفيف]

حتى الرسالة الجدية التي (حاول ابن زيدون أن ينحو نحو النابغة في اعتذارياته ، واستعطف بها في تذلل وتملّق)[7] لا تخلو من معانٍ تتنافى ومقام الأمير ؛ كقوله في ختامها (وإنّما أبسستُ[8] لك لتدرِ ، وحركتُ لك الحوار[9] لتحنّ)[10] .

---

[1] أدباء العرب : بطرس البستاني ، دار مارون عبّود – بيروت ، 1979م ، ج3 : 134 .

[2] في الأدب الأندلسي : جودت الركابي : 266 .

[3] ابن زيدون عصره – حياته – أدبه : حسن جاد حسن : 158 .

[4] ديوان ابن زيدون : 146 .

[5] ديوان ابن زيدون : 150 .

[6] ديوان ابن زيدون : 125 .

[7] الجامع في تاريخ الأدب العربي : حنّا الفاخوري ، ج1 : 927 .

[8] بِس بِس : صوت تدعى به الناقة أو الشاة للحلب . ينظر المعجم الوسيط ، ج1 : 55 .

[9] الحوار : ولد الناقة من وقت ولادته إلى أن يُفطم ويُفصل . ينظر المعجم الوسيط ، ج1 : 205 .

[10] الرسالة الجدية ينظر إليها في الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 340 – 346 . وديوان ابن زيدون ورسائله : 680 – 718 .

لقد عفا أبو الحزم عن ابن زيدون في النهاية بفضل شفاعة ابنــه ، وليـس بفضـل قصائده الاستعطافية المتكررة التي حوت عيوباً وهنات كانت نتيجتها أن ألّبت الأمير عليــه بدل أن تستدرّ عطفه ، وتستثير رحمته .

2. **ابن عمار[1] :**

ابن عمار[2] والمعتمد[3] : لم يكن المعتضد بن عبّاد[4] راضياً عن العلاقة التي تربط ابنـــه وولي عهده المعتمد مع ابن عمار ، فقد كان الاثنان متفقينِ (في الميول والأهــواء وفنــون الأدب والشعر والملاهي وأنواع السرور ، ولمّا تولّى المعتمد ولاية شلب[5] جعل ابن عمــار وزيراً له هناك ، وترك له الحكم والأمر والنهي ، وهناك عاش مع المعتمد عيشـــة اللــهو والطرب والمجون)[6] ، فخشي المعتضد على ابنه من هذا الشاعر ، ونهاه عن صحبته (ثم

---

[1] ابن عمار : أبو بكر محمد بن عمار المهري الأندلسي ، وُلد عام 422هـ ، مدح المعتضد ، ثم علت مكانته فـــي أيام المعتمد ، ولقّب بـ(ذي الوزارتينِ) ، قتله المعتمد عام 477هـ . ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج4 : 425 – 429 .

[2] ينظر قصة المعتمد مع ابن عمار في قلائد العقيان لابن خاقان : 90 – 99 . وأعمال الأعلام في مَنْ بويع قبل الاحتلام للسان الدين بن الخطيب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المكشوف – بيروت ، ط2 ، 1956م : 159 – 162. والحلّة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 134 . والذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 405 – 433 . والمعتمد بن عبّاد : علي أدهم ، مكتبة مصر ، (د.ت) : 151 – 178 .

[3] المعتمد : أبو القاسم محمد بن عبّاد بن محمد بن إسماعيل ، المعتمد على الله ، وُلد في باجـــه عـــام 431 ، كـــان شاعراً فصيحاً ، وكاتباً مترّسلاً ، ولي إشبيلية بعد وفاة أبيه ، وامتلك قرطبة وكثيراً من البلاد الأندلســية ، اســتغاث بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين عندما شعر بعظم خطر الإسبان ؛ فأغاثه وانتصر معه على الإسبان فـــي موقعـة الزلاّقة عام 479هـ ، ثم تغيّر عليه ابن تاشفين وأسره في أغمات ، وظلّ فيها أسيراً إلى أن توفي عـــام 488هـ . ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج5 : 21 – 39 . ورايات المبرّزين لابن سعيد الأندلسي : 37 . وســير أعــلام النبلاء للذهبي ، ج19 : 58 – 67 . والأعلام للزّركلي ، مجلد 6 : 181 .

[4] المعتضد بالله عبّاد بن محمد ، حكم إشبيلية بعد وفاة أبيه عام 433هـ ، اتصف بالدّهاء والقســوة ، توفـي عـــام 461هـ . ينظر الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 24 – 25 .

[5] شلب : بكسر الشين أو فتحها ، مدينة بغربيّ الأندلس بينها وبين قرطبة مسيرة عشرة أيام ، امتاز أهلـــها بحبّـهم للأدب ونظمهم للشعر ، ينسب إليها جماعة من العلماء . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 3 : 357 .

[6] بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف : 113 .

خوّفه ففرّ ابن عمار إلى سرقسطة[1])[2] ، وأقام فيها إقامة تعسة ، يحنّ إلى المعتمد وأيّامه معه ، ومن هناك أرسل إليه قصيدة يرثي فيها حاله ، ويندب حظّه ، ويخيل إليه أن سائر الكائنات حوله متعاطفة معه ، حزينة على مصابه :

عَلَيَّ وإلاّ ما بُكاءُ الغَمائِمِ وفِيَّ وإلاّ ما نِياحُ الحَمائِمِ
وعنّي أثارَ الرَّعْدُ صرْخَةَ طالبٍ لثأرٍ وهزَّ البَرْقُ صَفْحَةَ صارِمِ
وما لبِسَتْ زُهْرُ النُّجومِ حِدادَها لغيري ولا قامتْ له في مآتِمِ[3]
[الطويل]

وما سبب هذا الحزن إلاّ ابتعاده عن بلاد عزيزة على قلبه ، قضى فيها أسعد لحظات شبابه في عيش ناعم رغيد :

أشلبُ ؟ ولا تنسابُ عَبْرَةُ مُشْفِقٍ وحِمْصُ[4] ؟ ولا تَعتادُ زَفرةُ نادمِ
كساها الحيا بُرْدَ الشَّبابِ فإنّها بلادٌ بها عقَّ الشَّبابُ تمائمي[5]
[الطويل]

وكان حقاً على الشاعر أن يحزن ، وقد انتقل من بيئة العلم والأدب والشعر إلى بيئة تفتقد العلم والعلماء والأدب والأدباء ، فكان كالفتى العربي الذي ألقت به الأقدار بين أعاجم لا يألفهم ولا يألفوه ، ولم تكن إقامته بين هؤلاء طوعاً بل كرهاً ، بسبب تغيّر أصحابه وسخطهم عليه ، ولومهم إياه حتى أرغموه على مغادرة بلادهم :

---

[1] سرقسطة : مدينة أندلسية شهيرة ، تقع على نهر كبير ، اشتهرت بفاكهتها ، وبالثياب التي تُصنع بها وتسمى باسمها ، وكان الناس يبالغون في محاسنها ، فيقولون : أنّ الأفاعي لا تعيش فيها ، وأنّ الأطعمة تبقى فيها مدّة طويلة ولا تتعفّن . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 3 : 212 – 213 . والحُلل السندسيّة في الأخبار والآثار الأندلسية لشكيب أرسلان ، المطبعة الرحمانية – مصر ، ط1 ، 1355هـ / 1936م ، ج2 : 116 .

[2] المُغرب في حُلى المغرب لابن سعيد المراكشي : 389 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 372 .

[4] حمص (إشبيلية) : مدينة أندلسية كبيرة ، عاصمة بني عبّاد ، تقع على نهر كبير ، تحيط بها بساتين الأشجار والزيتون وسائر الفاكهة ، وكان يزرع فيها القطن ، ويحمل منها إلى جميع بلاد الأندلس والمغرب . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 1 : 195 . ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي ، عالم الكتب – بيروت ، ط1 ، 1409هـ / 1989م ، مجلد2 : 541 .

[5] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 372 .

هو العيْشُ لا ما أشتكيه من السّرى | إلى كلّ ثغــرٍ آهلٍ مِثلَ طاسِـــمِ
وصُحْبَةِ قوْمٍ لم يهذّبْ طباعَهـــم | لقاءُ أديـب أو نــــوادرُ عالـمِ
وما حالُ مَنْ ربّتْه أرْضُ أعــاربٍ | وألقتْ به الأقدارُ بينَ الأعاجِـــمِ
ونُبِّئتُ إخوانَ الصَّفــاء تغيَّـــروا | وذمّوا الرضى مِنْ عهدي المتقادِمِ
لقد سَخِطوا ظُلماً على غيرِ ساخِطٍ | عليهم ، ولاموا ضلةً غيرَ لائِــمِ[1]

[الطويل]

ويختم الشاعر قصيدته بمخاطبة المعتمد مخاطبة الخاضع الذليل حتى لو بلغ أسمى المراتب وأعلى الأمكنة ، راجياً أن تعود أيام الوصال كما كانت سعيدة هنيئة ، فيدول ترح البُعد والفراق إلى فرح العودة واللقاء :

أنا العبدُ في ذلِّ الخضوعِ لو أنّني | أرى البدْر تاجي و النجومَ خواتمي
و إنّي إذا أنصفتَ بعدَكَ خـــادمٌ | لدهري ، وكان الدّهرُ عندكَ خادمي
لعلّ الذي أقذَى بترحةِ راحِــلٍ | عيوناً سيجلوها بفرحَــةِ قـــادِمِ
فترجعُ أيّامٌ مضــتْ وكأنّــهـــا | إذا امتثلتها النَّفْـس لـذّةُ حالـمِ[2]

[الطويل]

وتوفي المعتضد وخلفه المعتمد ابنه الذي سرعان ما أعاد صديقه ابن عمار من منفاه، وجعله ملازماً له ، (وصار عنده كجعفر عند الرشيد)[3] ، وأخذ يستشيره في أمور الدولة ويأخذ برأيه ، وحدث أن أراد المعتمد ضمّ مرسية[4] ، وأراد أن يحتاط للأمر فرأى الاستعانة بصاحب برشلونة (الكونت ريموند) ؛ فأرسل ابن عمار ليفاوضه ، فوافق الكونت على تقديم المساعدة لقاء مبلغ كبير من المال ، وتم الاتفاق بينهما على أن يرسل الكونت ابن أخيه رهينة عند المعتمد حتى لا يخلّ بشروط الاتفاق ، ووعد ابن عمار من جانبه أنّه إذا لم يصل المال إلى الكونت في الأجل الذي ضربه ، يصبح الرشيد بن المعتمد الذي كان يقود الحملة رهينة عند الكونت ، وكان المعتمد يجهل هذا الشرط من شروط الاتفاق ، وأرسل

---

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 374 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 375 – 376 .

(3) المُغرب في حُلى المغرب لابن سعيد المراكشي ، ج1 ، 289 .

(4) مُرْسية (تُدمير) : مدينة بالأندلس بناها عبد الرحمن بن الحكم حفيد عبد الرحمن الداخل ، وسماها تُدمير ، تكثر فيها الأشجار والحدائق المحدقة بها . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 5 : 107 .

المعتمد ابنه الرشيد في جيش إشبيلية ، وأخذ يسعى في تدبير المال المطلوب وفي نيّته أن يلحق به بعد جمعه ، (ولم يكن ابن عمار يُقدر أنّ المعتمد قد يتأخر في إرسال المال المطلوب ، ولذلك قبل شرط أن يرهن كل واحد منهما ما يثق به ، واعتقد أنّ شرط الرهن لن يُطبّق)[1] .

وتأخّر المعتمد في إرسال المال المطلوب ، فاعتقد الكونت أنّ المعتمد قد مكر به ؛ فقبض على ابن عمار وعلى الرشيد بن المعتمد وقيدهما ، وعجز جيش إشبيلية عن تخليصهما ، فعلم المعتمد بالخبر ، فغضب على ابن عمار غضباً شديداً ، وبعد أيام أطلق الكونت سراح ابن عمار ، وأبقى الرشيد مقيداً ، فتوجه ابن عمار إلى المعتمد ، ولكنّه لم يجترئ على المثول بين يديه[2] ؛ فأرسل إليه قصيدة يُعرب فيها عن حيرته أيُقبِل على المعتمد صاغراً نادماً أم يهيم على وجهه في ربوع الأرض ؛ فذنبه عظيم ، وجريرته لا تُغتفر ، فهو لم يبرم اتفاقاً مع الكونت يجهله المعتمد وحسب ، بل أنّ ابن المعتمد وقائد جيشه يرزخ الآن في السلاسل والقيود بسببه :

أُصدّقُ ظنّي أم أُصيخُ إلى صَحْبي فأمضي عَزْمِي أم أعوجُ مع الرَّكْبِ
وأصبحتُ لا أدري أ فيْ البُعْدِ راحتي فأجعلهُ حظّي أم الحظُّ في القُرْبِ
إذا انقدْتُ في أمري مشيتُ مع الهوى وإنْ أتَعَقبه نكصتُ على عَقِبي[3]

[الطويل]

وعلى الرغم من ذلك يظهر الشاعر رانياً إلى رضى مليكه ، طامعاً بعفوه :

على أنّني أدري بأنّكَ مؤثِرٌ على كلّ حالٍ ما يُزحزِحُ مِنْ كربي
أهابُكَ للحقِّ الذي لكَ في دمي وأرجوكَ للحبِّ الذي لكَ في قلبي[4]

[الطويل]

والشاعر إن أذنب فقد كان ذنبه غير متعمد ، فالمعتمد كلّفه بمهمة شاقة ، وأخفق بها وعجز عنها ؛ لذلك أضحى الابتعاد عنه أكثر أُنساً من مواجهته والمثول بين يديه :

---

(1) المعتمد بن عبّاد لعلي أدهم : 153 .

(2) الحلّة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 135 – 138 . والمعتمد بن عبّاد لعلي أدهم : 151 – 156 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 407 . وقلائد العقيان لابن خاقان : 90 – 91 . والحلّة السيراء لابن الآبار، ج2 : 135 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 407 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 136 .

وما جئتُ شيئاً فيه بغيٌ لطالبٍ　　　يضافُ به رأيٌ إلى العجزِ والعجبِ
سوى أنّني أسلمتني لملمـــةٍ　　　فللتَ بها حدّي وكسّرتَ من غربي
وما أغربَ الأيامَ فيما قضتْ به　　　تُريني بُعدي عنكَ آنس مِن قُربي[1]

[الطويل]

ويحاول الشاعر أن يبرّأ نفسه ، ويلمح من طرف خفيّ أنّ الذّنب ليس ذنبه ، وإنّما هو ذنـب المعتمد الذي تلكّأ في إرسال المال المطلوب ، ولكنّ الشاعر يحمّل نفسه فوق ما تحتمـل ، وينسب إليها الذّنب اعترافاً منه بفضائل المعتمد وأياديه البيضاء عليه :

أمـا أنّـه لـولا عـوارفُـكَ التي　　　جرتْ جريانَ الماءِ في الغصنِ الرَّطبِ
لما سُمْتُ نفسي ما أسومُ من الأذى　　　و لا قلتُ أنّ الذَّنْبَ فيما جرى ذنْبـي[2]

[الطويل]

ويختم الشاعر قصيدته راجياً عفو المعتمد ، ذلك العفو الذي سيكون بـرداً وسـلاماً على قلبه المتّقد خوفاً ورهبة :

سأستمنح الرُّحمى لديك ضراعةً　　　وأسأل سقياً من تجاوزك العذبِ
فإنْ نفحتْني من سمائِكَ حرجفٌ[3]　　　سأهتف يا بَرْد النسيمِ على قلبي[4]

[الطويل]

وكان المعتمد يشعر بما عليه من تبعة فيما حدث ، وأنّ الذّنْب والتقصير كانـا مـن جانبه ؛ لذا لم يصبَّ جام غضبه على ابن عمار ، وإنّما كتب إليه بقصيدة ليدخل الاطمئنـان إلى قلبه ، ويشجعه على المجيء إليه ، والمعتمد في قصيدته هذه يدعو ابن عمار إلى القدوم، فهو ما زال – كما عهده ابن عمار – صفوحاً عن الجاني ، معرضاً عن الذنوب ، فقلبه ليس قاسياً ، والتنكر للأذمة والخلان ليس من شيمه :

تقدّمْ إلى ما اعتدتَ عندي منَ الرُّحب　　　ورِدْ تلْقَكَ العُتبى حجاباً من العَتـبِ
متى تلْقَني تلقَ الذي قد بلوتَـه　　　صفوحاً عن الجاني رؤوفاً على الصَّحْبِ
سأوليكَ منّي ما عهدتَ منَ الرِّضى　　　وأُعرِضُ عمّا كان – إن كانَ – من ذنْبِ

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 407 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 136 .
[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 407 . والمعتمد بن عبّاد : علي أدهم : 151 – 157 .
[3] حَرجَف : الرياح الباردة . ينظر المعجم الوسيط ، ج1 : 165 .
[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 407 . والمعتمد بن عبّاد : علي أدهم : 151 – 157 .

فما أشعر الرحمن قلبي قسوةً ولا صار نسيان الأذمّة منْ شعبي[1]

[الطويل]

والتقى ابن عمار والمعتمد ، وحلاّ المشكلة التي واجهتهما ، فدفعا إلى الكونت المال المطلوب ، وأطلق سراح الرشيد ، وأخفقت محاولة ضمّ مرسية ، إلاّ أنّ المعتمد لم يرجع عن طلبها ، فقد حاول مرّة أخرى ، ونجح في محاولته ، فقد اقتحمتها جيوشه ، وضمّتها إلى مملكته ؛ فأرسل ابن عمار حاكماً عليها ، وممثلاً له فيها ، ولكنّ ابن عمار ما أن وصلها حتى أخذ يتصرف باستقلالية ، فقد جلس مجلس التهنئة للخواص والعوام ، وأنشد الشعراء القصائد التي نظموها في مدحه هو ، وتزيّى بزيّ المعتمد في حمل الطويلة على رأسه كما كان يفعل المعتمد في مِثْل هذه المناسبة ، وحاكاه فيما كان يكتبه في آخر الالتماسات التي تُقدَّم إليه وهو (ينفذ هذا إن شاء الله) دون أن يذكر اسم المعتمد ، وتختم في كلتا يديه ، ولمّا علم المعتمد بذلك استاء ، وأرسل إلى ابن عمار ببيتينِ يعبّر فيهما عن أساه وما خالجه من ظنون :

تغيَّر لي فيمنْ تغيَّـرَ حارِثٌ وكلُّ خليلٍ غيَّرَتْهُ الحوادثُ

أحارِثُ إنْ شوركتَ فيكَ فطالما نعمْنا وما بيني وبينِكَ ثالثُ[2]

[الطويل]

ويسارع ابن عمار للردّ على المعتمد ، نافياً ما اتُّهِم به ، فهو وفيٌّ لملكه ، مخلصٌ له ، محافظ على عهده ، ولكنّ الوشاة المفسدين لا يهمهم إلاّ إفساد العلاقة بينه وبين المعتمد باتهامه بالتغيّر عليه ، وخيانة عهده ، وهذا ما لم يحصل لا سيّما أنّه مكث خمساً وعشرين سنة خادماً مخلصاً له ، ولسوف يبقى كذلك حتى مماته :

لكَ المَثَلُ الأعلى وما أنا حارِثُ و لا أنا ممّنْ غيَّرَتْهُ الحوادثُ

أظنّ الذي بيني و بينكَ أذهبتْ حلاوتَهُ عنّي الرِّجالُ الأخابثُ

تنكَّرت لا أنّي لفضلِكَ ناكرٌ لديَّ ولا أنّي لِعهْدِكَ ناكِثُ

أبَعْدَ انقِضا خمسٍ وعشرينَ حجَّةً تجافتْ لنا عنها الخطوبُ الكوارِثُ

وهل أنا إلاّ عبدُ طاعتِك التي إذا متُّ عنها قامَ بَعْدي وارِثُ[3]

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 408 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 136 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 405 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 143 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 406 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 143 – 144 .

[الطويل]

ويدعو الشاعر المعتمد إلى أن يتريّث في الحكم عليه ، وأن لا يصدّق أولئك الوشاة الذين يحاولون جاهدين تأجيج نيران العداوة بينهما ، ولا يفوت الشاعر أن يشير إلى مناقبه ، فهو ذو رأي حاضر وبصيرةٍ نافذة ، يفوق المحيطين بالمعتمد قوّة وذكاءً ، لا ينبغي للملك أن يطيع العدا فيه ، فيتخلى عنه لأنّه سيحتاج يوماً إلى قدراته التي طالما عادت بالنّفع عليه وعلى دولته :

أعِذْ نظراً لا توهِنِ الرَّأي أنّه	قديماً كبا هافٍ وأدركَ رائث
ستذكرني إنْ بان حبلي وأصبحتْ	تبين بكفك الحبالُ الرثائث
وتطلبني إنْ غابَ للرَّأي حاضرٌ	وقد غابَ عنّي للخواطرِ باعِث
أعوذُ بِعَهْدٍ نطته بكَ أن ترى	تحلُّ عراهُ العاقدات النَّواكث[1]

[الطويل]

كان ابن عمار يعرف ما فُطِر عليه المعتمد من سماحة نفْسٍ وسجحة خُلُق ؛ لذلك فقد عرف كيف يخاطبه ويستميل قلبه ، أو لنقُل عرف كيف يخدعه بلسانه ، وصدّقه المعتمد وعاد إلى حُسْن رأيه فيه ، ولكنّ سريرة ابن عمار لم تكن سليمة ، وكان يدور فيها عكس ما قال وزعم ، فقد كان بعيد الطموح ، مفرط الغرور ، محبّاً في الاستعلاء قاصداً الانفصال عن المعتمد والتنكّر له ، وحدث أن غضب ابن عمار على ابن طاهر حاكم مرسية السابق التي أطاحت به جيوش المعتمد وسجَنَه ، وكان ابن طاهر صديقاً حميماً لابن عبد العزيز حاكم بلنسية[2] ، فلما علم ابن عبد العزيز باعتقاله خاطب المعتمد شافعاً له ، ومناضلاً عنه ، واستجاب المعتمد لرجاء ابن عبد العزيز ، فأمر ابنَ عمار بإطلاق سراحه ، ولكنّ ابن عمار لم يحفل بأمر المعتمد ، وأبى أن يفكّ اعتقاله ، وركب رأسه ولجّ في عناده ، وهكذا اتّسع الخرق بين الصديقين ، وفسدت العلاقة بينهما فساداً لا يُرجى صلاحه ، رافقه قصائد متبادلة سخر فيها المعتمد من ابن عمار ، وقابله ابن عمار بشعر هجاه فيه ، وهجا أباه :

ممّا يُقبّحُ عندي ذِكْرَ أندلسٍ	سماعُ معتضدٍ فيها ومعتمدِ

---

[1] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 144 .

[2] بلنسية : مدينة بالأندلس تقع شرقي قرطبة ، تكثر فيها الأشجار والأنهار ، سقطت بيد الروم عام 487هـ ، واستردّها المرابطون عام 495هـ ، قال ياقوت عن أهلها : (إنّهم خير أهل الأندلس) . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 1 : 194 .

أسماء مملكةٍ في غير موضعها　　　كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولَةَ الأسَدِ[1]

[البسيط]

وبالغ في الإساءة في قصيدته اللاميّة[2] حين سبّ المعتمد وزوجه وأولاده سبّاً قبيحاً ، وأسفّ فيها إسفافاً شنيعاً ، ثم مضى يطعن المعتمد في رجولته ، وينكر عليه الكـــرم والشـــجاعة ، وينذره بأنّه سيستمرّ في هتْكِ عرضه ، وتشويه سمعته ، وممّا قاله في هذه القصيدة :

تخيَّرْتها من بناتِ الهجانِ　　　رميكيّة ما تساوي عِقَـــالا

فجاءت بكلِّ قصير العِذَارِ　　　لئيم النجارين عمّـــاً وخـــالا

فيا عامِرَ الخيْلِ يا زيْدَها　　　منعْتَ القِرى وأبحْتَ العيـــالا

أراكَ توري بحبِّ النِّساءِ　　　وقدْماً عَهِدْتُكَ تهوى الرجالا

أتذكرُ أيّامنا بالصِّبـــا　　　وأنتَ إذا لُحْتَ كنْتَ الهـــلالا

سأهتكُ عرضكَ شيئاً فشيئاً　　　وأكشفُ سِتْرَكَ حالاً فحـــالا[3]

[المتقارب]

---

[1] وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج4 : 428 . وسير أعلام النبلاء للذهبي ، ج18 : 583 .

ذكر المقّري أنّ هذين البيتين لابن رشيق القيرواني ، وورد البيتان في ديوان ابن رشيق مع تغيير بسيط فـــي عجــز البيت الأول ؛ فالكلمة الأولى فيه كانت (تلقيب) في نفح الطيب و (سماع) في الديوان ، كما حدّث ابن شرف أنّـــه دعا ابن رشيق لجواز البحر إلى الأندلس بعدما خرّبت القيروان فأجابه بهذين البيتين .

وأرجح أن يكون البيتان لابن عمار وليسا لابن رشيق الذي غادر الأندلس فتى عام 406هـــ أي قبل تولي المعتضـــد الحُكم ، ولم تذكر المصادر التي ترجمت له وجود علاقة بينه وبين المعتضد أو المعتمد ؛ لذا أستبعد أن يكـــون قـــد هجاهما لانعدام الأسباب التي تجعله يُقدم على ذلك ، أمّا ابن عمار فقد نفاه المعتضد وتأزّمت العلاقة بينه وبين المعتمد غير مرّة ، الأمر الذي يجعلنا نتفهّم سبب هجائه لهما . ينظر : نفح الطيب للمقّري ، ج1 : 214 . والذخيرة لابن بسام قسم 4 ، مجلد 2 : 597 . وديوان ابن رشيق القيرواني ، شرح صلاح الدين الهواري ، دار الجيل – بـيروت ، ط1 ، 1416هـــ / 1996م : 66 . ورسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء : محمد بن شرف القـــيرواني ، تحقيـــق حســـن حسني عبد الوهاب ، دار الكتاب الجديد – بيروت ، ط1 ، 1983م : 9 .

[2] ومطلعها : ألا حيِّ بالغربِ حيّاً حلالا　　　أناخوا جِمالاً وحازوا جَمالا

[3] نفح الطيب للمقّري ، ج4 : 212 – 213 . الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 157 – 158 . والمعتمد بـــن عبّـــاد لعلي أدهم : 169 .

(لقد أحرق ابن عمار بهذه القصيدة سفنه ، وأصبح الصلح بينه وبين المعتمد غير ميسور ، فلا هو ولا الرميكية زوجته ولا أولاده يمكن أن يتسامحوا في قبول مثل هذا الهجاء القاسي ، وقد دلّ ابن عمار بهذه القصيدة على خسّة وسوء أدب متناهيين ، وتطاول تطاولاً غير مستساغ على ولي نعمته الذي أخذ بضبعه من حضيض المهانة ، ورفعه إلى الذّروة)[1] ، ولم يسارع المعتمد إلى معاقبة ابن عمار ، فقد جاء عقابه من حيث لا يحتسب ، إذ أنّ صديق ابن عمار وقائد جنده (ابن رشيق)[2] خانه بعدما سلّم أقاربه وثقاته المناصب القيادية الحساسة في مرسية ، ثم حرّض الجند على طلب أعطياتهم المتأخرة منه ، وعندما عجز ابن عمار عن أداء ذلك والوفاء به ثار عليه الجند وهددوه بأن يسلّموه للمعتمد إذا لم يرضهم ؛ فارتعدت فرائص ابن عمار من هذا التهديد ، وخشي عاقبته ، وفرّ هارباً إلى سرقسطة ، وهناك لاذ بكنف ملكها المقتدر بن هود ، ولم يستطع ابن عمار العيش هناك بمعزل عن السياسة ؛ لذا فقد تطوّع بإعادة منطقة انتزى بها عامل لابن هود ، وفعلاً تمكّن ابن عمار من ذلك ، فقد غدر هذا العامل ، وكانت تربطهما صداقة قديمة ، واستطاع قتله ، وأعاد هذه المنطقة إلى مُلك المقتدر ، ثم عنّ له بعد ذلك أن يقنع المقتدر بالاستيلاء على حصن شقورة وهو حصن منيع قريب من سرقسطة ، ظلّ محافظاً على استقلاله ، وأراد ابن عمار الاستيلاء عليه بالخديعة، كما فعل عندما قتل العامل المنتزي ، فذهب ابن عمار إليه ، وطلب مقابلة القائمين عليه ليوقعهم في شَرَكِه ، وتمّ له ذلك ، ولكن بدل أن يوقعهم في الشَّرَك وقع هو فيه ، فقد اعتقله القائمون على هذا الحصن وقيّدوه ، وعرضوه للبيع لمن يدفع أكثر من أمراء الأندلس ، وفي ذلك يقول :

أصبحتُ في السّوقِ يُنادى على	**رأســي بأنواعٍ من المالِ**
و اللهِ ما جَــارَ علــى مالــِه	**مَنْ ضمَّني بالثَّمن الغالي**[3]

[السريع]

---

[1] المعتمد بن عبّاد لعلي أدهم : 170 .

[2] ابن رشيق : عبد الرحمن بن رشيق ، قائد الجند في مرسية ، خدع ابن عمار واستولى على الحكم ، وظلّ ملكاً لمرسية حتى استولى عليها يوسف بن تاشفين . ينظر أعمال الأعلام لابن الخطيب : 160 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 419 . وقلائد العقيان لابن خاقان : 92 . والمُغرب في حُلى المغرب لابن سعيد المراكشي : 390 .

خفَّ المعتمد لشراء ابن عمار ، بل إنّه اشترى حصن شقورة بكامله ، وأرسل ابنـــه الراضي ليتسلّم ابن عمار ، وأمر الذين أرسلهم مع الراضي أن يزيدوا في الاحتيـــاط عليــه وتقييده ، فخرجوا به حتى أدخلوه قرطبة مقيّداً ذليلاً مهيناً .

ابن عمار يستعطف أبناء المعتمد :

عندما اعتقل ابن عمار في حصن شقورة أدرك أنّه سيسلّم إلى المعتمد ، وســـيلاقي جزاء خيانته له ، وإنكاره نعمه ، ولكنّه لم يفقد الأمل في عفو المعتمد وصفحه ، فلجأ إلـــى طلب الشفاعة من الراضي بن المعتمد ، ، فكتب إليه عند قدومه شقورة لتسلّمه راجياً منه أن يفتديه ، ويتشفّع فيه عند أبيه ، ويكون سبباً في العفو عنه :

قالوا : أتى الرّاضي ، فقلتُ : لعلّها ... خلعتْ عليه من صفاتِ أبيــه

يا أيُّها الراضي وإنْ لم تَلْقَــنـــي ... مِنْ صفحةِ الرّاضي بما أدريه

هَبْكَ احتجبْتَ لوجهِ عُذْرٍ بيِّـــنٍ ... بذْلُ الشَّفاعةِ أيّ عذْرٍ فيـــه

سهل على يدكَ الكريمةِ أحرُفَـــاً ... في مَنْ أسَرْتَ فتنثني تُفْديـــه[1]

[الكامل]

ويبدو أنّ الراضي لم يستجب إليه ، ولم يحاول الاستشفاع له ، فأعاد ابـــن عمـــار الكرّة ، لكن هذه المرّة مع المأمون الفتح بن المعتمد إذ خاطبه عندما قارب قرطبة قائلاً :

هلاّ سألت شفاعةَ المأمــونِ ... أو قلتَ ما في نفسِه يكفينـــي

ما ضرَّ لو نبَّهتُه بتحيّــَــــةٍ ... يسري النّسيمُ بها على دارينِ[2]

يا فتحُ جرّدها عناية فـــارسٍ ... دربٍ على نصرِ الوليِّ أميــنِ

واقرن شفاعتَكَ الكريمةَ عنده ... بتواضُعٍ في عِزَّةٍ لا هـــونِ[3]

[الكامل]

وخاطب الرشيد بن المعتمد كما خاطب أخويْه من قبله مستشفعاً مستعطفاً :

قل لبرقِ الغمام ظاهِرْ بريـــدي ... قاصداً بالسلامِ قصرَ الرشيــدِ

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 423 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 151 .

[2] دارين : قرية في بلاد فارس على شاطئ البحر ، وهي مرفأ سفن الهند بأنواع الطيب والمسك ، فيقال : مسك دارين . ينظر معجم ما استُعجِم لعبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ، تحقيق مصطفى السقّا ، عالم الكتب – بيروت ، ط2 ، 1403هـ / 1983م ، مجلد 1 : 538 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 424 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 151 .

فتقلّب فـــي جـــوّه كفـــؤادي وتناثرْ في صحنه كالفريـــدِ
وانتحب في صلاصل الرّعد تحكي ضجّتي في سلاسلي و قُيودي
فإذا ما اجتلاكَ أو قال : مـــاذا ؟ قلتُ : إنّي رسولُ بعْضِ العبيدِ
بعْضُ مَنْ أبعدَتْه عنكَ الليالــــي فاجتني طاعةَ المحبِّ البعيــدِ[1]

[الخفيف]

إنّ الأخوة الثلاث لم ينسوا إساءة ابن عمار لهم ولأمّهم ولأبيهم ، فقد هجاهم جميعـاً بعدما خان والدهم وتغيّر عليه ؛ لذلك لم يتشفّع أيّ واحد منهم فيه ، بل كانوا جميعاً متلـهفين على عقابه جزاء خيانته وسوء أفعاله .

ابن عمار يستعطف المعتمد :

أقام ابن عمار في سجنه ينتظر مقابلة المعتمد ، وكان في أسوأ حال ، فذنبه عظيـم مع سيّده وولي نعمته ، وخجله من هذا الذنْب أعظم :

واللهِ مـــا أدْري إذا قالــوا : غداً يومَ اللّقاءِ
ما أقْتَل الحالين لي إن كان خوفي أو حيائي[2]

[مجزوء الكامل]

وأُدخِل على المعتمد في قرطبة ذليلاً مهيناً ، فجعل المعتمد يعدد أياديه ونعمه عليه ، وابن عمار مُطرق لا ينبس ، فلما أتمّ المعتمد كلامه توسل إليه ابن عمار كي يعفو عنـــه ، فأبى المعتمد ذلك ، وأمر بنقله إلى إشبيلية ، وهناك حُبِس في غرفة على باب قصر المعتمد، وطال سجنه فيها ، فبعث ذلك الأمل في نفسه ، فكتب إلى المعتمد معتذراً مستعطفاً ومُعترفـاً بذنبه ، آملاً بعفوه وصفحه :

سجاياكَ – إن عافيتَ – أندى وأسمَحُ وعُذرُكَ – إن عاقبْتَ – أجلى وأوضَحُ
وإن كانَ بينَ الخطــتيـــنِ مزيـــةٌ فأنتَ إلى الأدنى مـــن اللهِ أجْـنـــحُ[3]

[الطويل]

وكجلِّ الشعراء المستعطِفين ينتقل الشاعر للحديث عن الوشاة الذين لا همَّ لهم سـوى إيغار صدر المعتمد على الشاعر :

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 426 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 152 – 153 .
[2] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 154 .
[3] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 153 . وأعمال الأعلام لابن الخطيب : 161.

حنانيكَ في أخذي بِرأيكَ ، لا تَطِع وشاتي ولو أثنوا عليَّ وأفصحوا
وإنّ رجائي أنّ عندكَ غير مـــا يخوض عدوّي اليوم فيه ويمرَحُ[1]

[الطويل]

ويذكّر الشاعر المعتمد بالودّ الذي يكنّه له ، وبالخدمات الجليلة التي قدّمها له ولدولته، وهما كفيلان بتخفيف وطأة ذنبه ؛ فالإنسان يخطئ ويصيب ، وكم مفسدٍ أعقب فساده بصلاح ، وخطأه بصواب . ثم يطلب من المعتمد إقالته من عثرته ، وصفحه عن زلّته :

ولمْ لا ، وقد أسلفتُ وُدّاً وخدْمةً يكرّانِ في ليلِ الخطايا فيصبحُ
وهبني قد أعقبتُ أعمال مُفسـدٍ أما تفسد الأعمال ثمّت تصلحُ
أقِلْني بما بيني و بينكَ من رضىً له نحو روحِ اللهِ بابٌ مُفتّـحُ[2]

[الطويل]

ويعود الشاعر مرّة أخرى للتعريض بالوشاة ، وهذه المرّة يخصّ بني عبد العزيز حكام بلنسية ، وكان بين الشاعر وبينهم عداوة ، ويتخيلهم الشاعر وقد افتروا عليه ، ونسبوا إليه مآثم لم يقترفها كي يعاقبه المعتمد فيشمتون به :

ولا تستمع زور الوشاة و إفْكهم فكلُّ إناءٍ بالذي فيـه يرْشَـحُ
سيأتيكَ في أمري حديثٌ وقد أتى بزَورِ بني عبد العزيزِ موشّـحُ
تخيّلتهم ، لا درّ لله درّهـــمْ أشاروا تِجاهي بالشّماتِ وصرَّحوا[3]

[الطويل]

ويعرب الشاعر عن ثقته بعفو المعتمد ؛ فالوشاة والأعداء يأملون بعقابه ، لكنّه يأمل من المعتمد أن يصفح عنه ؛ فالحبّ الذي يكنّه له سيبعد عنه العقاب ، وسيمكّنه من الحصول على عفو المعتمد وصفحه :

---

[1] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 153 . وأعمال الأعلام لابن الخطيب : 161.
[2] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 153 .
[3] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 153 .

وقالوا : سيجزيهِ فلانٌ بذنْبِهِ　　فقلتُ : وقد يعفو فلانٌ ويصفَحُ
ألا إنّ بطشاً للمؤيّدِ يُرتمى　　ولكنّ عفواً للمؤيّدِ يرجحُ
وبين ضلوعي مِن هواه تميمةٌ　　ستنفعُ لو أنّ الحِمام يجلحُ[1]

[الطويل]

ويكرّر الشاعر الاعتراف بذنبه ، هذا الذنب العظيم الذي لا يفوقه عظمة إلاّ حلم المعتمد :

وماذا عسى الأعداءُ أن يتزيّدوا　　سوى أنّ ذنبي ثابتٌ متصحّحُ
نعم لي ذَنْبٌ غيرَ أنّ لحلمه　　صفاةٌ يزلُّ الذَّنْبُ عنها فيسفَحُ[2]

[الطويل]

ويختم الشاعر قصيدته بتأكيد حبّه للمعتمد ، فهو ثابت على مودّته وسيبقى محبّاً له ، ومتشوّقاً إليه حتى مماته :

سلامٌ عليهِ كيفَ دارَ بهِ الهوى　　إليَّ فيدنو ، أو عليَّ فينزحُ
و يهنيهِ إن متُّ السّلو فإنّني　　أموتُ وبي شَوْقٌ إليه مبرِحُ[3]

[الطويل]

مقتل ابن عمار :

كاد المعتمد أن يعفو عن ابن عمار ، بل أنّه قال له قولاً يتضمّن العفو عنه تعريضاً لا تصريحاً ؛ فسارع ابن عمار بالكتابة إلى الرشيد بن المعتمد يعلمه بذلك ؛ فأخبر الرشيد خاصّته ، وكان منهم من يكنّ العداء لابن عمار ؛ فذهب هؤلاء إلى المعتمد وزعموا أنّ ابن عمار قد أشاع خبر العفو عنه في إشبيلية ، وأنّ أصحابه يعدّون العدّة لاستقباله ، فما أن علم المعتمد بذلك حتى فقد صوابه ، وأرسل إلى ابن عمار مَنْ يسأله : " هل أخبرتَ أحداً بما جرى بيني وبينكَ في الأمسية الأخيرة ؟ ؟ " ، فأنكر ابن عمار بدايةً ، ثم اعترف أنّه كتب رسالةً إلى الرشيد يخبره ، فاستشاط المعتمد غضباً ، وتذكّر خيانة ابن عمار له ، وكان المعتمد قد عرّض به قبل ذلك قائلاً :

---

[1] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 154 .

[2] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 154 .

[3] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 154 .

والشَّيْخُ لا يتركُ أخلاقَـــهُ حتّى يُوارى في ثرى رَمْسِهِ

إذا ارعوى عادَ إلى ضدِّه كذي الضَّنَى عادَ إلى نكسِهِ[1]

[السريع]

لقد أدرك المعتمد أنّ ابن عمار مطبوع على الخيانة والغدر ، وأنّه سيعود إلى أخلاقه الدنيئة إن هو عفا عنه ، فها هو يكذب عليه ، ويفشي سرّه وهو ما زال رازخاً في قيـــده ؛ فقام المعتمد من مجلسه وهو يحمل في يديه فأساً حادّةً ، ودخل عليه ، وأخذ يضربه بالفــأس على رأسه حتى ثبتت فيها ، وخرج يقول لزوجته الرميكية : لقد تركته كالهدهد .

وبهذه الخاتمة الدامية انتهت حياة ابن عمار التي دفعها ثمناً لطموحاتـــــه السياســية الكبيرة التي رأى أن يحققها بالغدر والخيانة .

3. **المعتمد بن عبّاد :**

محنة المعتمد : حين اشتدّ خطر (الأذفونش ألفونسو) حاكم قشتالة الإسباني ، وكادت البلاد الأندلســية تقــع فـــي قبضتـــه ، فكّـــر المعتمـــد بالاســـتعانة بيوســـف بـــن تاشـــــفين[2] أمير المرابطين في المغرب ، وعندما حذّره بعض بطانته من مغبّة ذلك ، وأنّه كمن يستجير من الرّمضاء بالنار، قال لهم المعتمد بحزم : (لأن أرعى الجمال عند ابن تاشفين خير مـــن أن أرعى الخنازير عند الأذفونش) ، وفعلاً فقد ذهب المعتمد إلى إفريقيا ، وهناك اســـتنجد بأمير المرابطين ، وحثّه على نصرة إخوانه المسلمين في الأندلس ، واستجاب ابن تاشـــفين لنجدة المعتمد ، فجهّز جيشاً من المرابطين البربر ، ودخل الأندلس والتحم جيشه مع جيـــش المعتمد، وحارب الجيشان القشتاليينَ وانتصروا عليهم نصراً مؤزراً في معركــــة الزلاقـــة. وعاد ابن تاشفين وجيشه إلى المغرب ، ولكنّه اجتاز البحر مرّة أخرى إلى الأندلس، وأطـــاح بملوك الطوائف ، وثلَّ عروشهم ، وكان المعتمد أعظم هؤلاء الملوك مكانةً وأرحبهم ساحة .

ولسنا بمعرض الحديث عن الأسباب التي جعلت ابن تاشفين يدخل الأندلـــس للمـــرّة الثانية ويقضي على ملوك الطوائف ، لكنّ الذي يهمّنا هنا هو ما حصل للمعتمد ، فقد استبسل

---

[1] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 149 .

[2] يوسف بن تاشفين : أبو يعقوب أمير المسلمين وملك الملثمين ، وُلد عام 410هـ ، وولي الحكم عام 463هـ ، بنى مدينة مراكش ، استنجد به المعتمد ؛ فنجّده ، انتصر معه على الإسبان في معركة الزلاّقة عام 479هـ ، ثم عاد إلى الأندلس مرّة ثانية لمّا رأى بذخ ملوك الطوائف وترفهم ؛ فأطاح بهم وثلَّ عروشهم ، كان رجلاً شجاعاً عادلاً مقداماً ، توفي عام 500هـ . ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج7 : 112 –130 . والأعلام للزّركلي ، مجلد 8 : 222 .

المعتمد في مقاومة المرابطين الذين حاصروا قصره ، وخرج يقاتلهم بسيفه حتى تمكّنوا منه وأسروه ، (لقد ذُلَّ بعد عزّة ، وأُسِرَ مع أبنائه وحرائره ، وصُفِّدَ بالأغلال على مشهدٍ من أمّته ، وانتُزِعَ من قصره بالأندلس ، وسِيقَ إلى سجنه بإفريقية ، والناس على طول الطريق شهود ، وهناك يمرض فيعوزه الطبيب ، ويجوع فيعوزه الغذاء ، ويعرى فلا يجد الغطاء)[1] ثم تمادى ابن تاشفين في تعذيبه ، وخاصة بعد أن ثار أحد أبناء المعتمد في الأندلس[2] .

لبث المعتمد في سجنه بأغمات[3] أربع سنوات ، وتوفي فيه ، وكانت معه في السجن زوجته اعتماد الرميكية التي كانت تقاسمه آلامه تارة ، وتحرّك ساكن أشجانه أخرى .

إنّ مَن يطّلع على شعر المعتمد خلال محنته ، حيث أمسى (فراشه الغبراء ، وغطاؤه صفحة الهواء ، وأنيسه البكاء ، وقرينه الداء ، وسميره كلَّ نوعٍ من أنواع البلاء)[4] يدرك أنّه قاسى الويلات ، وتجرّع العلقم ، بعدما كان ينعم في عزّة المُلكِ ونعيم السلطان.

لقد كان ليوسف بن تاشفين الكثير من الفضائل والصفات الحميدة ، فقد كان تقيّاً حازماً شجاعاً ، ولكن كان ينقصه حُسْن معاملة العدوّ المنهزم ؛ فمعاملته للمعتمد كانت مثار نقد المؤرخين ومنهم ابن الأثير الذي كان شديد الإعجاب بابن تاشفين ، وتحدّثَ عن مناقبه ، وذكرَ أنّه (كان حليماً كريماً ديّناً خيّراً يحبّ أهل العِلم والدين ، ويحكّمهم في بلاده، وكان يحبّ العفو عن الذنوب والصفح)[5] ، ولكن عندما تحدّثَ عن صنيع ابن تاشفين ببني عبّاد قال: (وفعل أمير المسلمين بهم فِعالاً لم يسلكها أحد من قبله ، ولا يفعلها أحدٌ ممّن يأتي بعده إلاّ من رضي لنفسه بهذه الرذيلة ، ذلك أنّه سجنهم ، فلم يجرِ عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلنَ للناس بأجرةٍ ينفقنها على أنفسهم ، وذكرَ المعتمد ذلك في أبيات ، فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صِغَرِ نفسٍ ولؤم قَدَر)[6] .

---

[1] البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر : سعد إسماعيل شلبي : 39 .

[2] قلائد العقيان لابن خاقان : 39 .

[3] أغمات : ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب ، بينها وبين مراكش مسافة ثلاثة فراسخ (الفرسخ يقدّر بثلاثة أميال) ، كثيرة الخيرات والفواكه ، يغلب على أهلها الجفاء وعدم الرقّة . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 1 : 225 .

[4] رحلة الأندلس : محمد لبيب البتنوني ، مطبعة مصر ، ط2 ، (د.ت) : 161 .

[5] الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، دار صادر – بيروت ، 1399هـ / 1979م ، ج10 : 417 .

[6] الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ج10 : 190 .

هل استعطف المعتمد ابن تاشفين ؟؟

كان المعتمد ملكاً عظيماً طالما وقف ببابه الشعراء وذوو الذنوب سائلينَ مستعطِفين عندما كان في أوج عزّه وعنفوان مجده ؛ لذا فقد منعه ماضيه المجيد ، وأبت عليه عزّة نفسه الوقوف موقف أولئك الذين كانوا يقفون ببابه ، فأبى أن يستعطِف ابن تاشفين ويسأله الرحمة والشفقة ، بل إنّه كان في بداية محنته متماسكاً محافظاً على رباطةِ جأشه ، فقد رفض أن يستعطِف المرابطين أو أن يخضع لهم ، وخرج إليهم وقاتلهم بشجاعة واستبسال ، حتى وقع في أيديهم أسيراً ، يقول في ذلك :

لمّا تماسكتِ الدُّموعُ ... و تنهنَهَ القَلْبُ الصَّديعُ

قالوا : الخضوع سياسةٌ ... فليَبْدُ منكَ لهم خضوع

وألذُّ مِنْ طعم الخضو ... عِ على فمي السمُّ النَّقيع

قد رمْتُ يومَ نِزالِهم ... ألاّ تحصنَني الدُّروع

وبرزتُ ليسَ سوى القميـ ... صِ عن الحشا شيءٌ دَفوع[1]

[مجزوء الكامل]

ويعرب المعتمد عن أسفه لعدم سقوطه قتيلاً في تلك المجابهة ؛ فالموت أحبُّ إليه من المصير الذي آلَ إليه :

أجلي تأخّر لم يكن ... بهواي ذُلّي والخشوع

ما سرتُ إلاّ للقتا ... لِ وكانَ مِن أملي الرُّجوع

شيمُ الأُلى أنا منهمُ ... والأصلُ تتبعُهُ الفروع[2]

[مجزوء الكامل]

ويلمس القارئ في هذه القصيدة أثراً لكبرياء الملوك وأنفتهم ، حيث ظهر المعتمد أبياً مفتخراً بآبائه وأجداده ، ولكنّه لم يبقَ هكذا عندما توالت عليه الأيام العصيبة في سجنه ، فأخذ شعره يفتقد هذا الشعور بالكبرياء والعزّة شيئاً فشيئاً ، لقد أذلّه السجن وطعن كبرياءه في الصميم . سأله يوماً بعض الشعراء مالاً فردّ عليهم ردّاً يحمل في طيّاته نوعاً من الذلّ ، ويفتقر إلى الكبرياء وفرض الذّات التي اعتادت على السؤدد ، كما يخلو من الحنق والغضب

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 53 ، والحلة السيراء لابن الأبار ، الجزء الثاني : 65 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 53 ، والحلة السيراء لابن الأبار ، الجزء الثاني : 66 ، وأعمال الأعلام لابن خاقان : 163 .

اللذينِ كانا من المتوقع أن يصدرا عن ملك جار عليه الزمن فانتزع منه مجده وأسباب عزّته، ردّ عليهم قائلاً :

سألوا اليسيرَ منَ الأسيرِ وأنّهُ   بسؤالهم لأحقُّ منهم فاعجب
لولا الحياءُ و عزّةٌ لخميَّــــة   طيّ الحشا لحكاهم في المَطْلَبِ[1]

[الكامل]

لقد منعه حياؤه ، وأبت عليه عزّة نفسه سؤال ابن تاشفين أو استعطافه ، والقـــارئ لشعر المعتمد أثناء محنته يدرك أنّه لم يستعطف ابن تاشفين تصريحاً إلاّ أنّه استعطفه تلميحاً في أكثر من مرّة ، وثمّة إشاراتٍ ودلائل تدل على ذلك منها :

أ- مدح المعتمد يوسف بن تاشفين ، وأعلن حبّه له ، وهذا أمرٌ مستغرَب . فابن تاشـــفين أساء للمعتمد أيّة إساءة ؛ فقد خلعه عن عرشه ، وزجَّ به في السجن ، ولا يُعقل أن يمدح إنسان مَنْ أساء إليه إلاّ بدافع إثارة عطفه ، واستمالة قلبه ، وكما مرّ بنا في جلٍّ القصائد الاستعطافية السابقة وجدنا أنّ المدح يكون ملازماً فيها للاستعطاف ، بل أنّ (جماعة من أهل الأدب قد ألحقوا الاستعطاف بالمديح)[2] وقد أشاد المعتمد بابن تاشفين في حربـــه ضدّ القشتاليين الإسبان الذين أقضّوا مضاجع المسلمين ، وتحدَّث عن شجاعته ، ولعـــل المعتمد (حاولَ أن يستميل ابن تاشفين ويستلين قلبه بالإشادة بموقفه في يوم الزلاقة)[3]، وفي ذلك يقول :

و قلبي نزوع إلى يوســـف   فلولا الضّلوعُ عليه لطـارا
و يوم العَروبةِ ذُدْتَ العِـــدا   نصرتَ الهدى وأبيتَ الفرارا
رأيْنا السُّيوف ضُحى كالنُّجومِ   وكالليل ذاكَ الغبارَ المُثــارا
فللهِ دَرُّكَ في هولِـــــــهِ   فقد زادَ بأسُكَ فيه اشتهارا[4]

[المتقارب]

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 67 ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب : عبد الحيّ بن عماد الحنبلي ، دار الآفاق الجديدة – بيروت ، (د.ت) ، ج3 : 389 – 390 .

[2] نهاية الأرب للنويري ، السفر الثالث : 258 .

[3] المعتمد بن عبّاد : علي أدهم : 298 .

[4] المعتمد بن عبّاد : علي أدهم : 296 – 297 نقلاً عن ديوان المعتمد .

ب- التمس المعتمد العطف من القيد ، وناشده الرحمة ، واستجدى منه الحنان ، والمعتمد عندما خاطب القيد إنّما خاطب مَنْ قيّده فيه ، فهو يدرك أنّ القيد كائن جامد لا يعلم ولا يشفق ولا يرحم ، فكلمة (مسلماً) في البيت الأول تدل على أنّ المعتمد أراد مخاطبة ابن تاشفين الذي كان يلقب بـ(أمير المسلمين) ، وكان ينبغي على هذا الأمير أن يرحم المسلمين ، والمعتمد أحدهم لا أن يقيدهم ويضعهم في غياهب السجون دون شفقة أو رحمة ، قال المعتمد عندما رآه ابنه أبو هاشم مقيداً فارتاع من ذلك :

قيدي أما تعلمني مسلماً	أبيتَ أن تُشْفِقَ أو ترحما
دمي شرابٌ لكَ واللحمُ قد	أكلته ، لا تهشم الأعظُما
يُبصرني فيكَ أبو هاشمٍ	فينثني والقلبُ قد هشما
إرحم طفيلاً طائشاً لبّه	لم يخشَ أن يأتيكَ مسترحِما
و ارحم أُخيّاتٍ له مثله	جرّعْتَهُنَّ السُمَّ و العلقَما[1]

[السريع]

ج- وازنَ المعتمد بين ما كان عليه من عزٍّ وسلطان ، وما آل إليه من ذلٍّ وهوان ، وهذه الموازنة تثير العطف على عزيز قومٍ ذَلّ ، انقلب حاله من الأوج إلى الحضيض ، والمعتمد بموازنته هذه كأنّما أراد لفت نظر ابن تاشفين إلى أنّ الأيام دول ، وأنّ دوام الحال من المُحال ، فما تعرّض إليه هو قد يتعرّض إليه ابن تاشفين ، فالقوي ينبغي له أن يرحم حتى يُرحَم إن دالت أيامه ، وتضعضعت أحواله . يقول المعتمد وقد دخلت بناته عليه يوم عيد في ثيابٍ بالية وحالة بؤس ، وكنَّ يغزلنَ للناس بأجرة في أغمات :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا	فساءَكَ العيدُ في أغماتَ مأسورا
ترى بناتِكَ في الأطمار جائعةً	يغزلنَ للناسِ لا يملِكْنَ قطميرا
برزنَ نحوكَ للتّسليمِ خاشعةً	أبصارُهُنَّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأنَ في الطِّينِ والأقدامُ حافيةً	كأنّها لم تطأ مِسكاً وكافورا
قد كانَ دهرُكَ أن تأمرْه ممتثِلاً	فردَّكَ الدَّهرُ منهيّاً ومأمورا

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد I : 73 – 74 ، وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ، ج 3 : 379 .

مَنْ باتَ بعْدَكَ في مُلْكٍ يُسرُّ بِـــه   فإنّما باتَ بالأحلامِ مغـــــرورا[1]

[البسيط]

د- تظهر المعاني الدينية واضحة جليّة في شعر المعتمد خلال محنته ، ولم يكن لهذه المعاني وجود في شعره قبل المحنة ، فالمعتمد عرف أنّ ابن تاشفين ورع ، فأراد أن يستثير عطفه ، ويستدرّ رحمته ، عن طريق مخاطبته بهذه المعاني ، يقول مُذكِّراً ابــــن تاشــفين بموقعـة الزلاقة:

فلولاكَ يا يوسف المتّقى   رأينا الجزيرة للكفــرِ دارا
ستلقي فِعالَكَ يوم الحِسا   بِ تُنثَرُ بالمِسْكِ منكَ انتثارا
وللشُهداءِ ثناءٌ عليــكَ   بحُسْنِ مقامِكَ ذاكَ النَّهــارا
وإنّـهم بكَ يستبشـــــرو   نَ ألا تخاف ولا تُضــــارا[2]

[المتقارب]

لقد حاولَ المعتمد إثارة عطف ابن تاشفين عليه تلميحاً لا تصريحاً ، ولعلّه ظـــنَّ أنّ أشعاره تصل إلى مسامع ابن تاشفين ، ولكنّه عندما يئس من ذلك حاول أن يحمل نفسه على قبول ما ابتلاه به الحظّ ورمته به الأيام ليريح قلبه ، ويبعث الطّمأنينة في نفســه المعذّبــة ، يقول :

اقنَع بحظِّكَ في دنيــاكَ ما كــانــا   وعِزِّ نفسَكَ إن فارقْتَ أوطــانا
في اللهِ مِن كلِّ مفقودٍ مضى عِوَضٌ   فأشعِرِ القلبَ سلواناً وإيمـــانــا
أ كلّما سَنَحَتْ ذكرى طَرِبْتَ لـــهــا   مجتْ دموعُكَ في خدَّيْكَ طوفانا
وطِنْ على الكُرْهِ وارقبْ إثره فَرَجَاً   واستغنِمِ اللهَ تغنَمْ منهُ غُفرانــا[3]

[البسيط]

إنّ الدنيا التي تبدّت للمعتمد بزينتها وبهرجها لم تلبث أن تجهّمت له وانقلبت عليــه ، وعند صفو الليالي يحدث الكَدَر ، لقد عبّر المعتمد عن محنته بشعر صادق العاطفــة ؛ (لأنّ أصدق عاطفة في الوله هي التي تصدر عن شخص الشاعر يتحسّر فيها على نفسه ، أو على

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 ، وقلائد العقيان لابن خاقان : 25 ، وشذرات الذهـــب لابــن عمــاد الحنبلي ، ج3 : 388 – 389 .

[2] المعتمد بن عبّاد : علي أدهم : 297 نقلاً عن ديوان المعتمد .

[3] نفح الطيب للمقري ، ج4 : 116 .

مُلْكٍ زال ومجد هوى ، وعلى الأخصّ إذا كان المتفجّع أو المتوجّع ملكاً)[1] ، ولكنّ صدق عاطفة المعتمد لم تثر عاطفة ابن تاشفين الذي أبقاه في سجنه يعاني آلام القهر والخيبة حتى وافاه أجله المحتوم ، وعلى الرغم من كثرة أصدقاء المعتمد الذين ظلّوا يحتفظون له بأصدق مشاعر الوفاء لم أجد – فيما قرأت – أحداً منهم يستشفع له عند ابن تاشفين .

إنّ بضع سنوات يقضيها امرؤٌ في ظلمات السجن مقيداً بالقيود والأصفاد ، لا ينال إلاّ أسوأ مطعم ومشرب ، إضافةً إلى ما يعانيه من آلام القهر والخيبة كفيلةً بأن تهدّ أركانه ، وتقرّب الحتف من حياته[2] ، لقد شعر المعتمد بأنّ منيّته قد دنت فراح يرثي نفسه قبل حين الرّثاء ، فقد نظم أبياتاً وأوصى أن تُكتَبَ على قبره ، منها :

قبْرُ الغريبِ سقاكَ الرّائحُ الغادي ... حقّاً ظَفرتَ بأشلاءِ ابنِ عبّادِ

نعم هو الحقُّ حاباني به قَدَرٌ ... من السمّاءِ فوافاني لميعادِ

ولم أكن قبلَ ذاكَ النَّعشِ أعلمه ... أنّ الجبالَ تهاوى فوقَ أعوادِ

كفاكَ فارفقْ بما استودعْتَ من كرمٍ ... رواكَ كلُّ قطوبِ البرقِ رعّادِ[3]

[البسيط]

لقد كان سجن المعتمد مأساة حقيقية ، إلاّ أن هذه المأساة أفادت الأدب العربي بل والعالمي إفادةً عظيمة ، (فالقصائد التي نظمها المعتمد في سجنه ، وصوّر فيها مرارات السجن وآلام النفي تعد من أروع ما لدينا من غرر الشعر العالمي)[4] .

4. <u>عبد الملك بن غصن الحجاري</u> :

---

[1] قضايا أندلسية : بدير متولي حميد ، دار المعرفة – القاهرة ، ط1 ، 1964م : 320 .

[2] بيّن ابن بسام أنّ المعتمد حظي بمعاملة حسنة في سجن ابن تاشفين ، وقال عن المعتمد وآله : " ... وصلوا إلى أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين – رحمه الله – فبقوا هنالك في كنفه ، وذرى فضله ، تحت إحسان عميم ، وبذل نائل جسيم حتى انقرضت هنالك أيامه " . ينظر الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 56 – 57 ، وناقض ذلك عندما قال في المجلد نفسه : " ودخل عليه ابنه أبو هاشم وهو يرسف في قيوده ، ويتقلّب في حديده. ينظر الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 ، كما أنّه أورد جميع أشعار المعتمد التي تحدث فيها عن معاناته وآلامه .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 57 ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب : 164 .

[4] الشعر الأندلسي : أمليو غرسيه غومس : 160 .

هجا عبد الملك بن غصن الحجاري[1] المأمون بن ذي النون[2] هجاءً مقذعاً ، بقوله :

تلقّبْتَ بالمأمون ظلماً ، وإنّنــــــي   لآمنُ كلباً حيث لستُ مؤمّنَــــه
حرامٌ عليه أن يجـــــودَ ببشـــره   وأما النّدى فاندب هنالك مدفنه
سطور المخازي دونَ أبوابِ قصره   بحجّابه للقاصدينَ معنونـــــه[3]

[الطويل]

فلمّا تمكّن منه المأمون سجنه ، فأخذ ابن غصن يستعطفه حتى (أنّه كتب إليه رسالة فــــي صفة السجن والمسجون والحزن والمحزون دلّت على مكانه من العلــــم والأدب والحفــظ ، وأودعها ألف بيت من شعره في الاستعطاف)[4] ، وفي رسالته هذه يتحدّث ابن غصـــــن – كما تحدّث سابقوه – عن المعاناة والضّنك اللذين ألمّا به نتيجة حبسه ، ويحـــــاول أن يــبرّيء نفسه، ويتنصّل من التُّهَم التي رُمِي بها ، إذ يقول :

أزاحَ الدّهْرُ حلوَ الماءِ عنّي   على ظمأ وأسقاني زعاقــــه[5]
وبالمرجوِّ إن أظفر به من   رضى المأمونِ يُحلي لي مذاقَه
وناس لفّني بهم شقــــاءٌ   ألمّ فزمًّ في ساقي سِبـــاقَـــــه
ولم يكُ لي بذاكَ العِيرُ عيرٌ   ولا بقطيعِ ذاكَ الذَّودِ ناقـــــة[6]

[الوافر]

ويعتبر الشاعر بالدنيا وتقلّباتها ، فلا حال يدوم فيها ؛ فالفرح قد ينقلب حزناً ، والتعاسة قـــد تصبح سعادة ، ثم يأمل الشاعر بعفو المأمون وعطفه ، يقول :

أرى نوب الدنيا تروح وتغتـــــدي   فَمِنْ فرحِ ناءٍ وهمٍّ مخيّــــــــمِ

---

[1] عبد الملك بن غصن الخشني أبو مروان من وادي الحجارة ، كان فقيهاً وأديباً وشاعراً ، اعتقله المأمون بـــن ذي النون ، وعندما أطلقه انتقل إلى بلنسية ، ثم إلى قرطبة ، وتوفي في غرناطة عام 454هـ . ينظر الذيل والتكملة لابن عبد الملك الأنصاري ، السّفر الخامس ، قسم 1 : 31 .

[2] المأمون بن ذي النون : اسمه يحيى ، ملك طليطلة ، استولى على قرطبة وقتل ابناً للمعتمد فيها ، ثم استولى على بلنسية ، احتلّ الإسبان بلاده واشترطوا عليه أن يظاهرهم على أهل بلنسية مقابل انسحابهم من طليطلة ؛ فقبل شرطهم. ينظر نفح الطيب للمقري ، ج4 : 440 – 441 .

[3] نفح الطيب للمقري ، ج3 : 363 .

[4] إعتاب الكتّاب لابن الآبار : 218 .

[5] الزعاق من الماء : المرّ الغليظ الذي لا يطاق شربه . ينظر المعجم الوسيط ، ج1 : 394 .

[6] إعتاب الكتّاب لابن الآبار : 218 .

إذا شئتَ إسعـــافَ الزمانِ وعطفَهُ   فبادر بدار المُسرع المتغنّـــــمِ
وناد بيا يحيـــى يحيِّـــكَ بالمنــــى   وثِنْ بإسماعيلَ تسمُ وتعظُــــمِ
بعطفَةِ ذي المجدينِ أرجو منَ الرّدى   خلاصي ولو أُلقِيتُ في شدْقِ أرقمِ[1]

[الطويل]

ويطنب الشاعر في الحديث عن معاناته في السجن ، ويرجو الشاعر الله أن تـــزول هذه المعاناة ، وتنتهي هذه الشدّة ، يقول :

ما لنا في وَطءِ البسيطةِ حظٌّ   لا ولا في نشْق الهواءِ نصيبُ
في محلَ كأنّه ظِلفُ شــاةٍ   ليسَ فيهِ لذي دبيبٍ دبيـــبُ
وكأنّ الكبل الثّقيــلَ إذا ما   رنَّ في السّاقِ للخطوبِ خطيبُ
إن رمتْنا يدُ الخطوبِ بقوْسٍ   طالما كان سهمُها لا يصيـــبُ[2]

[الخفيف]

ثمّ يتأسى الشاعر بالأنبياء والمرسلين الذين عانوا اكثر ممّا عانى ، وابتلوا أكثر ممّا ابتُلــيَ به، ثم فرّج الله عليهم ، وبدّل بشدّتهم فرجاً ، وحوّل عسرهم إلى يُسر ، يقول :

أو يكن عثّر الزمان فمرجـــــوٌّ   لانعاشنا القريبُ المجيـبُ
قد أجابَ الإله دعوةَ نُـــــوحٍ   حينَ نادى بأنّه مغلـــوبُ
وشفى ذو الجلال علَّـــةَ أيّـــو   بَ وقد شارفَ الرّدى أيّوبُ
وانقضى سجنُ يوسفَ وقد استيـــ   أس وارتــدَّ مُبصِراً يعقوبُ[3]

[الخفيف]

ولم يعفُ المأمون عن الشاعر ولم يطلق سراحه ؛ فكتب الشاعر قصيدة إلى ابن هود حاكم سرقسطة رجاه فيها أن يستشفع له عند المأمون ، حيث يقول في قصيدته :

أيا راكِبَ الوجناءِ بلِّغْ تحيَّـــةً   أميرَ جُذامٍ من أسيـــرٍ مقيَّـــدِ
ولمّا دهتْني الحادثاتُ ولمْ أجِدْ   لها وزراً أقبلتُ نحوكَ أعتدي
فعلَّكَ أن تخلو بِفِكْرِكَ ساعـــةً   لتنقذني من طولِ همٍ مُجـــدَّدِ

---

[1] إعتاب الكتّاب لابن الآبار : 219 .

[2] إعتاب الكتّاب لابن الآبار : 220 .

[3] إعتاب الكتّاب لابن الآبار : 220 .

حنانيكَ ألفاً بعدَ ألفٍ فإنَّنـــي جعلتُكَ بعدَ اللهِ أعظمَ مَقصـــدي[1]

[الطويل]

(فرقّ له ابن هود ، وتحيّل حتى خلّصه بشفاعته)[2] .

5. ابن اللبّانة :[3]

كان ابن اللبانة شاعراً يتكسب بشعره ، يطوف على ملوك الطوائف مادحاً مسترفداً ، وقد اضطر لاستعطافهم مرتين : الأولى عندما حلّ ببلاط المتوكل على الله ، ملك بطليـــوس فاحتفى به المتوكل وبالغ في إكرامه ؛ فثارت حفيظة أعداء الشـــاعر وحسّـــاده ؛ وأخـــذوا يكيدون له كيداً ليفسدوا ما بينه وبين المتوكل ، وتمّ لهم ذلك عندما افتروا علـــى الشـــاعر ، ونجحوا في إيغار صدر مليكه عليه ؛ ففرّ الشاعر هارباً وهام على وجهه في ربوع الأرض، وأثناء هروبه أرسل إلى المتوكل قصيدة يستعطفه فيها ويعتذر إليه ، وقد استهلّ قصيدته تلك بعتاب المتوكل عتباً رقيقاً مهذباً ، ثم تحدّث عن مشاعره وأحاسيسه بســـبب ازورار مليكـــه عنه، وتغيّره عليه ، الأمر الذي جعله يشعر وكأنّ مصائب الدنيا قد وافته مجتمعة ، ثم عـــبّر بعد ذلك عن الحبّ الشديد الذي يكنّه لمليكه ، يقول :

نَبَا بِيَدي حسامٌ مِن رِ ضاكا فوافتني النَّوائِبُ عندَ ذاكا

تجاوَزَ فيكَ ودّي كلَّ حَـــدٍّ ولكنَّ التجاوزَ ما اطّباكـــا[4]

ولو جازَيْتَني قَدْرَ اعتِقادي لنِلْتُ بكَ المجرّةَ والسّماكا

ولو يؤتى مناه نورُ طَرْفي لما أوما إلى أحدٍ سواكا[5]

[الوافر]

---

[1] نفح الطيب للمقري ، ج3 : 363 .

[2] نفح الطيب للمقري ، ج3 : 364 . في الذخيرة رسالة أرسلها المقتدر إلى المأمون يشكره فيها على إطلاقه لابن غصن من السجن . ينظر الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 193 .

[3] ابن اللبانة : هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني ، ولد في دانية ، ونسب إلى أمه التي كانت تبيع اللبن ، كان أشعر أهل زمانه ، وفد على ملوك الطوائف ومدحهم ، وحين وفد على المعتمد بن عبّاد ظلّ ملازماً له مادحاً إيّاه ، مستقراً في كنفه حتى استولى المرابطون على إشبيلية ، وسجنوا المعتمد ، وظلّ الشاعر وفيّاً كلّ الوفاء للمعتمد ، وتشهد على ذلك أشعاره التي خاطبه بها في سجنه أو التي رثاه بها بعد موته عام 488هـ . ينظر : الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد2 : 666 .

[4] ما اطّباك : ما دعاك . ينظر : المعجم الوسيط ، ج2 : 551 .

[5] الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد2 : 366 .

وينتقل الشاعر بعد هذه المقدمة ليعرّض بالوشـــاة الذيـــن افـــتروا عليــه وأفســـدوا علاقته مع مليكه ، ويعجب الشاعر من المتوكل كيف صدّق أولئك الوشـــاة ؛ فعـــذّب قلبـــه بازوراره عنه وتغيّره عليه على الرغم من أنّه ما زال متحلياً بالأخلاق السامية التي عُـــرِف بها ، والتي ينبغي أن تجعله يتريّث ويتحقّق قبل أن يصدّق الوشاة ، ويسأل الله أن لا يميتـــه إلاّ بعدما يراهم معذّبين مشردين كما يُعذّب ويشرّد العصاة الذين يعصون المتوكل ويخرجون عليه ، يقول :

ثناكَ عنِ القبولِ علـــيّ واشٍ	ولكنْ عنْ هِباتِكَ مـــا ثناكـــا
وأعجبُ كيف حالت منكَ حالي	ولمْ تدرِ السآمةَ مِن خُـــلاكـــا
فكيفَ أثمتَ في تعذيب قلبـــي	وما عقدتْ على حُوْبٍ[1]حباكا
أطعت عليَّ مَنْ لا متُّ حتـــى	أرى مثواه مثوى مَنْ عصاكا
محا حسنات قصدي وانقطاعي	ببيّنـــةٍ أقـــامَ لها دراكـــا
فجنّبَ ماءَ بشرِكَ عن جَنـــابي	ونَفّرْ طيرَ حظّي مَنْ رُبـــاكا[2]

[الوافر]

ويعود الشاعر مرّة أخرى ليعبّر عن الحبّ الـــذي يكنّـــه للمتوكـــل ؛ فالوشـــاة إن استطاعوا إبعاد الشاعر عن مليكه فهم عاجزون عن اقتلاع حبّ مليكه من قلبه ، ثم يعتـــذر إلى المتوكل ، ويقول : إن كنتُ قد أخطأت بحقّك مرّة ، فإنّ حسناتي الكثيرة التـــي قدّمتـــها كفيلة بأنّ تمحو ذلك الخطأ وتلك الإساءة ؛ فالإنسان بطبيعته خطّاء ، لا يستطيع أن يجعـــل كلّ ضرباته صائبة ، ولو استطاع ذلك لما ترك للأقدار شيئاً ، يقول :

وهبه أطاقَ عن مثواكَ صَرفي	أيقدرُ صرفَ قلبي عن هَواكا ؟
وإن تك مرّةً عثرتْ جيـــادي	فما قدّمتَ من سبق كفـــاكا
ولو كلّ السّهام أصابَ قَصدي	لما كلْنا إلى الأقدارِ ذاكـــا[3]

[الوافر]

---

[1] الحُوب : الإثم . ينظر : الوسيط ، ج1 : 204 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد2 : 366 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد2 : 366 .

ويبدو أنّ المتوكل قد أصمّ أذنيه عن اعتذار الشاعر واستعطافه ، فلم يعفُ عنه ولم يُعدْه إلى كنفه ؛ فواصل الشاعر هربه حتى حلّ بقرطبة ، وكانت حينئذٍ قد آل أمرها إلى المعتمد ابن عبّاد الذي احتفى بالشاعر وقرّبه منه ، وجعله من خاصّة شعرائه .

أمّا المرّة الثانية التي استعطف بها ابن اللبانة ، فكانت بعد أن دالت دولة بني عبّاد ، وضاع أمل الشاعر في عودة النعيم الذي كان ينعم به في ظلّها ؛ فاتّجه إلى ميورقة ؛ ليمدح أميرها ناصر الدولة مبشّر بن سليمان ، وعاش الشاعر في كنفه حيناً من الدهر ، ولكن ما حدثَ له في بطليوس حدثَ له في ميورقة إذ ساء فيه القال والقيل ، وكثرت حوله الوشايات، ولمّا رأى تغيّر الأمير عليه وازوراره عنه ، حاول أن يسترضيه ويعتذر إليه علّه يستميل قلبه ويظفر بعفوه ؛ فأرسل إليه بقصيدة استهلها بالتعبير عن حبّه لناصر الدولة ، ثم حاول أن يبرّأ نفسه ممّا اتّهم به ، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الشامتينَ والوشاة الذين أثلج صدورهم ما لحق بالشاعر من ضير ، وما أصابه من تضاؤل المكانة عند أميره ، وحاول الشاعر أن يثبت لأميره أنّه يحتمل من شخصه كلّ إساءة ، بل كلّ مذلّة ، وأنّ نفسه تستعذب كلّ ألم وكلّ مضرّة تأتيه من قِبَله ، ولو كان الأمر قاصراً على ما يأتيه من قبل أميره ومليكه لهان الأمر ، ولما فكّر في الرحيل عنه ، لكنّ هناك العداة الذين يتربصون به الدوائر ويحيكون المؤامراتِ للإيقاع به والانتقام منه ، ومَنْ رأى أول الشرّ فلا يأمنن آخره ؛ فدافعه إلى الرحيل هو النجاة بنفسه من أولئك الوشاة والأعداء ، فهو يسعى للفرار بنفسه بحثاً عن موطن آمن بعد أن نجّاه الله من نيران فتنتهم كما نجا خليله إبراهيم – عليه السلام – من نيران الكفار والمشركين[1]، يقول :

سلامٌ على المجْدِ يندى قليلاً	كنشْرِ الرُّبا بُكرةً وأصيلا
سلامٌ وكنتُ أقولُ الوداعَ	ولكنْ أُدرِّج قلبي قَليلا
جُرِحْتُ لديكَ وكنتُ البريءَ	كما يَجرحُ اللحظُ خَدّاً أسيلا
تَسُرُّ ضآلتي الشامتينَ	وهل خُلِقَ الصّلُّ إلاّ ضَئيلا
أتت ذلّتي منكَ مَحبوبةً	فلمْ أرَ بالعِزّ منها بديلا
ولولا مَقامي بينَ العُداةِ	لما كنتُ أوْثرُ عنكَ الرحيلا

[1] الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي : فاضل فتحي محمد والي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع – حائل – السعودية ، ط1 ، 1417هـ / 1996م : 281 .

ومَنْ بلّهُ الغيْثُ في بطنِ وادٍ وباتَ فلا يأمننَّ السيـــولا
عسى رأفةٌ في سراحِ كريمٍ أبلُّ ببردِ نداه الغليـــــلا
لعلّي أُراحُ مِنَ الطالبيـــنَ فأسكنُ للأمن ظِلاً ظليـــلا
لقد أوقدوا لـــي نيراتَــهم فصيّرني اللهُ فيها الخليلا[1]

[المتقارب]

وأخيراً يقسم الشاعر معتذراً أنّه بريءٌ من كلّ ما اتُّهِم به ، وأنّ الوشاة جادّون فـــي سعيهم ووشايتهم ، ولن يهدأ لهم بال أو يقرّ لهم قرار إلاّ بعدما يروا الأمير ينتقم من الشاعر شرّ انتقام ؛ لذا فقد آثرَ الرحيل ومغادرة ميورقة حتى لو أصبحـــت هـــي مصـــرَ بجمالـــها وخيراتها، وأصبح كرم الأمير كالنّيل بخيره وعطائه ، مـــا دام الأشـــرار يـــتربصون بـــه ويترقبونه :

يميناً لكم هو أزكى يمين لألتَمسُ العُذْرَ منكمْ جميـــلا
سَعَوا لي عندكَ في عثرة ولا عِلْمَ لي فكرهْتُ المقيـــلا
أفِرُّ بنفسي وإن أصبحتْ ميورقة مصراً وجدواكَ نيلا[2]

[المتقارب]

وعندما أخفق الشاعر في استعطاف الأمير واستمالة قلبه شدّ رحاله وخرج مغادراً ، ولكنّه ظلّ يتطلع إلى ميورقة ، ويتمنى العودة إليها ، ولم يفقد الأمل بذلك ؛ لذا فقـــد جعـــل يستعطف ناصر الدولة أميرها ويداريه ويستلطفه كي يمنّ بالعفو عنه ، ويأذن له بـــالعودة ، وممّا كتب به إليه قصيدة منها قوله :

نسيمُكَ حتـــامَ لا ينبـــري وطيفكَ حتامَ لا يعتـــري
أُعيذكَ مِنْ عرَضٍ أن تكونَ وأنتَ الذي كنتَ مِنْ جَوْهَرِ
أتذكُـــرُ أيّامـــنَا بالحِمـــى وأيّامَنا بِلَـــوى الأعصـــرِ؟
ألا رأفةٌ مِنْ وَفِيٍّ كريـــمِ ألا عطفَةٌ مِنْ سَنِيٍّ سَـــري
سيشتاقني الملكُ مهما أرادَ لباسَ نسيجٍ مِنَ المفخَـــرِ
ولو أنَّ كلَّ حَصاةٍ تزيـــن ما جُعِلَ الفضْلُ للجَوْهَـــرِ[3]

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد2 : 692 – 693 .
[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد2 : 684 .
[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد2 : 685 .

[المتقارب]

لقد بدأ الشاعر أبياته هذه بمدح الأمير ، ثم حاول أن يستميل قلبه بتذكيره بأيام الصفاء التي جمعتهما ، بعد ذلك التمس منه الرأفة والعطف ؛ فقُرْبُ الشاعر من الأمير خير لهما ؛ فأشعار المديح التي سينظمها في أميره ستتقدّم على سواها من الأشعار ؛ لأنّ الشاعر يتفوق على أقرانه الشعراء تفوّق الجوهر على الحجارة والحصى .

لقد استعطف الشاعر مرتين : استعطف المتوكّل على الله ، ثم استعطف ناصر الدولة ، وفي كلتا المرتين سلك الشاعر طريقاً واحداً أثناء استعطافه ، إذ أنّه مدح مَن يستعطفه وأشاد به ، ثم عبّر عن حبّه الشديد له ، بعد ذلك عرّض بالوشاة والمفسدين ، وهاجم الأعداء والحُسّاد ، وحاول أن يبرّأ نفسه ممّا اتُّهم به ، ثم اعتذرَ إلى مَن يستعطفه ، ورجاه أن يقبل عذره ، ويغفر زلّته إن كان قد أخطأ أو زلَّ .

ولكن يظهر أنّ الشاعر – في المرّتينِ – قد فشل في تحقيق هدفه إذ أنّه لم يَنَلِ العطفَ الذي كان ينشده ، أو العفو الذي كان يأمل به .

6. <u>شعراء آخرون</u> :

لم يقتصر شعر الاستعطاف على الشعراء السابقين ، بل تطالعنا أشعار استعطافية أخرى لشعراء آخرين ، وإن كانوا دون الشعراء السابق ذكرهم شهرة وإنتاجاً شعرياً ، ومن هؤلاء ابن سيده[1] ، (وكان منقطعاً إلى الأمير أبي الجيش مجاهد بن عبد الله العامري[2] ، ثم حدثت له نبوة في أيام إقبال الدولة بن الموفق[3] خافه فيها ، فهرب إلى بعض الأعمال المجاورة لأعماله ، وبقي بها مدّة ، ثم استعطفه)[4] ، واعتذر إليه ، وتحدّث عن سوء حاله في غربته بعدما فارق وطنه ، وابتعد عن أهله ، يقول :

---

[1] ابن سيده : أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده المرسي ، فقيه وعالم بالعربية وآدابها ، كان ضريراً ، وكذلك كان أبوه ، من كتبه : المحكّم ، والمخصّص ، توفي عام 458هـ . ينظر مطمح الأنفُس لابن خاقان : 291 .

[2] أبو الجيش الموفق مجاهد بن عبد الله مولى عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر ، استقل بدانيه وملكها ، كان من أهل الأدب والشجاعة والمحبة للعلوم وأهلها ، توفي عام 436هـ . ينظر بغية الملتمس لابن عميرة الضبّي : 472 – 473 .

[3] علي بن مجاهد العامري الملقب بإقبال الدولة . ينظر مطمح الأنفُس للفتح بن خاقان : 292 .

[4] جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس : أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية – القاهرة ، ط1 ، 1372هـ / 1952م ، الباب الثامن : 293 .

ألا هل إلى تقبيل راحتِكَ اليمنـــى	سبيلٌ فإنّ الأمنَ في ذاكَ واليُمْنَا
صخيت فهل في برْدِ ظلِكَ نومةٌ	لذي كَبِدٍ حرّى وذي مُقْلَةٍ وسنا
ونضو هموم طلّحتْهُ طيّاتـــــه	فلا غارباً[1]أبقيْنَ منه ولا مَتْنــا[2]
هَجَان نأى أهلوه عنه وشفّـــهُ	قرافٌ فأمسى لا يُدسُّ ولا يهنا
فيا ملكَ الأملاكِ إنّي محـــــومٌ	على الوِرْدِ لا عنه أُذادُ ولا أُدنى
تحيَّفَني دَهري وأقبلتُ شاكيـــاً	إليكَ أماذون لعبدِكَ أمْ يُثنـــى؟[3]

[الطويل]

ويعرب الشاعر عن رضاه التام بحكم أميره حتى لو أدّى هذا الحكم إلى إهدار دمه ، وهو أثناء ذلك يذكر نِعَمَ الأمير وأياديه البيضاء عليه ، حيث يقول :

وإن تتأكد في دَمي لكَ نيَّـــةٌ	بسفكٍ فإنّي لا أُحِبُّ له حقْنــــا
دمٌ كوَّنَتْه مكرُماتـــكَ والذي	يكوِّن لا عتبٌ عليهِ إذا أفنـــى
إذا ما غدا مِن حَرِّ سَيفِكَ بارداً	فقدْماً غدا مِن بَرْدِ برِّكَ لي سُخْنا
وما لي مِنْ دهري حياةٌ ألذُّها	فيعتدُّها نُعمي علـــيَّ ويُمتـــنَّا
إذا قِتلةٌ أرضَتْكَ منّا فهاتِهـــا	حبيبٌ إلينا ما رضيتَ بـــه عنّــا[4]

[الطويل]

وآتت القصيدة أكلها ، فما أن سمعها إقبال الدولة حتى عفا عن الشاعر ، وأذن له بالعودة إلى بلاده .

وأمّا ابن أزرق[5] فقد كان يعيش في مرسية بكنف ملكها ابن رشيق ، ولكنّه طمـــع بمعاملة أفضل ، وأعطيات أكثر ، وكان الشعراء كثيراً ما يتنقّلون من بلدةٍ لأخـــرى طلبــاً للمال، (ويبدو أنّ البحث عن المال كان يجري وَفقاً لسلوك المجتمع وآدابـــه إذ ذاك ، ولـــم

---

(1) الغارب : الكاهل ، والغارب من البعير ما بين السنام والعنق . ينظر المعجم الوسيط ، ج2 : 647 .

(2) المتن : الظهر . ينظر المعجم الوسيط ، ج2 : 853 .

(3) جذوة المقتبس للحميدي ، الباب الثامن : 293 ، ومطمح الأنفس لابن خاقان : 292 – 293 .

(4) جذوة المقتبس للحميدي ، الباب الثامن : 293 .

(5) أبو العلاء إدريس بن أزرق شاعر من أهل مرسية ، عاش في القرن الخامس الهجري ، رحل إلى بلنسية طمعـــاً بعطايا ملكها ابن عبد العزيز . ينظر : نفح الطيب للمقري ، ج3 : 572 .

يكن هذا الوضع يصدم أحداً في عصر الطوائف)[1] ، فقد رحل ابن أزرق إلى بلنسية ، ولكنّه لم ينل ما تمنّاه فيها ، بل عوملَ بقسوة ؛ فأراد العودة إلى مرسية ؛ فكتب إلى ابن رشيق معتذراً ومتحدّثاً عن إقامته التّعسة في بلنسية ، راجياً منه أن يأذن له بالعودة إلى بلاده، يقول :

ألا ليتَ شِعري هل أعودُ إلى الذي	**عهِدْتُ من النعمى لديكم بلا جهدِ**
فو الله مُذ فارقتكم ما تخلّصت	**من الدّهر ساعة دونما كَدّ**
فمنوا بإذنٍ كي أطيرَ إليكم	**فلا عارَ في شوقٍ إلى المالِ والمَجْدِ**[2]

[الطويل]

ويأذن له ابن رشيق ويعيده إلى مرسية .

ونقف عند أبيات لابن الحداد[3] ، وكان شاعراً مقرّباً من المعتصم بن صُمادح[4] عاهل المريّة[5]، وكان للشاعر أخٌ قتل رجلاً وفرّ هارباً ؛ (فنالت ابن حداد بسببه مطالبة أخفى نفسه من أجلها حيناً حتى قبض على أخيه واعتُقِل)[6] ، ولكنّ العلاقة بينه وبين المعتصم لم تعد إلى سابق عهدها ، فعزم ابن حداد على الفرار إلى مرسية بعدما هجا المعتصم ، وتمكن من ذلك، ولكنّه لم يسعد بإقامته هناك ، وبخاصّة أنّ أخاه كان لا يزال معتقلاً في المريّة ؛ فكتب إلى ابن صُمادح قصيدة استهلها بالحكمة ، ويقول فيها :

الدّهرُ لا ينفكُّ عن حَدَثَانِهِ	**والمَرْءُ مُنْقادٌ لحُكْمِ زَمانِهِ**
فدعِ الزّمانَ فإنّه لم يعتمدْ	**بجلالِهِ أحداً ولا بِهَوانِهِ**

---

[1] الشعر الأندلسي في عصر الطوائف : هنري بيريس ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، مطبعة دار المعارف – مصر ، ط1 ، 1408هـ / 1988م : 79 .

[2] نفح الطيب للمقري ، ج3 : 573 .

[3] ابن حداد : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان المعروف بابن حداد ، شاعر من وادي آش ، سكن المريّة ، واختصّ بملكها المعتصم بن صُمادح ، ثم فرعنه إلى المقتدر بن هود ملك سرقسطة ، توفي عام 480هـ . ينظر مطمح الأنفس لابن خاقان : 336 ، رايات المبرّزين لابن سعيد الأندلسي : 106 .

[4] المعتصم بن صمادح : أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن صُمادح الملقب بالمعتصم ، صاحب المريّة ، كان شاعراً أديباً ، توفي عام 484هـ . ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج5 : 39 – 45 .

[5] المريّة : مدينة ساحلية شرقي الأندلس ، فيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب ، اشتهرت بصنع الديباج ، سقطت بيد الإفرنج عام 542هـ ، واسترجعها المسلمون عام 552هـ ، وينتسب إليها عدد من العلماء . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 5 : 119 .

[6] الذيل والتكملة لابن عبد الملك الأنصاري ، السّفر السادس : 11 .

كالمُزْنِ لم يُخَصَصْ بنافعِ صَوْبِهِ　　أُفقاً ولَمْ يختَرْ أذىً طَوَفَاتِـــهِ

لكنْ لباريهِ بواطِنِ حكمَـــــــةٍ　　في ظاهِرِ الأضْدادِ مِنْ أكوانِهِ

وعَلِمْتُ أنّ السَّعْيَ ليسَ بِمُنْجِحٍ　　ما لا يكونُ السَّعْدُ مِنْ أعوانِهِ

والجِدُّ دونَ الجَدِّ ليسَ بنافــــعٍ　　والرمحُ لا يمضي بغيْرِ سنانِهِ[1]

[الكامل]

ثم يخلص ابن حداد من الحكمة ليصوّر سخط المعتصم عليه ، وليتحدّث عن ذلّه بعد عــزّ ، وانحطاطه بعد رفعه ؛ ليثير عطف المعتصم ، ويستلين قلبه ؛ فيعفو عنه أو يطلــق ســراح أخيه ، أو يحقق له الاثنتين معاً ، يقول :

وسما إلى المُلْكِ الرّضى ابنُ صُمادحٍ　　فأدالني بالسُّخْطِ مِنْ رضوانِـــهِ

وهوى بنَجْمي مِنْ سماءِ سَنَائِــــهِ　　وقضى بحطي مِنْ ذُرى سلطانِهِ[2]

[الكامل]

(وبلغت الأبيات المعتصم فقال : شعره أعقل منه ، صدق ؛ فإنّه لا يتهيّأ له صلاح عيش إلاّ بأخيه ، وهو بمنزلة السّنان من الرمح ، ثم أمر بإطلاقه ، ولحاقه به)[3] .

وتستوقفنا أبيات لأبي الحسن الفكيك[4] الذي سجنه المعتمد بن عبّــاد عندمــا اتُّــهِم بالإلحاد والزندقة ؛ فأخذ الفكيك يرسل الأشعار إلى المعتمد مستعطفاً إيّــاه راجيــاً عفــوه ، ومن شعره في ذلك قوله :

يــا ابــنَ عبّـــادِ الذي يَـــدُهُ　　مِن فيضِها الرّزقُ بينَ الخَلْقِ مقسومُ

فمَنْ رأى شاعراً في السِّجن مُطّرحاً　　في ظُلْمةٍ وهو بالبهتـــانِ مظلـــومُ

ناديتُ حلمكَ والأقـــدارُ حائمــــةٌ　　كصاحب الحوتِ نادى وهــوَ مكظومُ[5]

---

[1] ديوان ابن حداد الأندلسي ، تحقيق يوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط1 ، 1410هـ / 1990م : 301 .

[2] ديوان ابن حداد الأندلسي : 302 .

[3] نفح الطيب للمقري ، ج4 : 49 .

[4] أبو الحسن البغدادي الفكيك ، شاعر وفد على الأندلس من الشرق ، عاش في كنف المعتمد بن عبّاد ومدحه ، عُرِف عنه أنّ في دينه رهق ؛ فاتُّهِم بالإلحاد والزندقة ، وسجنه المعتمد . ينظر : الذخيرة لابن بسام ، قسم4 ، مجلد1، 370 . ونفح الطيب للمقّري ، ج3 : 119 .

[5] استمدّ المعنى من قوله تعالى : { فاصبر لحكمِ ربِّكَ ولاتكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم } . القلم : آية 48 .

فاحلل بيُمْنِكَ ربقَ الأسرِ عن عنقي فأنتَ بالفضلِ و الإفضـــالِ موســـومُ[1]

[البسيط]

ونرى الشاعر يبالغ في مدح المعتمد ، حتى جعل أرزاق الخلائق مقسومة من عطاء يده ، ثم يستمد من معاني القرآن الكريم حين يشبّه نفسه وقد سُجِن بسيدنا يونـــس – عليــه السلام – الذي التقمه الحوت ، وكأنّه بذلك يحاول تبرئة نفسه ممّا اتُّهِمَ به من زندقةٍ وإلحاد .

وخاطب الشاعر المعتمد مرّة أخرى مستعطفاً إيّاه ، وممّا خاطبه به قوله :

يـــا مُحيـــياً بنــــداه ميْتَ آمالي ومُصلحاً في فسادِ الدّهرِ أحوالـــي

إنّي لأعجبُ مِن سجــنٍ به أمِـنَــتْ نفسي من الخوف في عريس رئبالِ

ولمْ أرَ فيه مِثْلَ السّيــفِ أغمــــدُهُ مَنْ انتضــــاه لأشعـــاري وأقوالـــي

أمسي وحولي رجالٌ في الكبول وهم مقرّنــونَ بأصفــــادِ و أغــــلالِ[2]

كمْ قائــــلٍ لي وأثــوابــي مدنَّسةٌ و قد غدوتُ مذالاً مثْلَ أذيـــــالِ

أصِرْتَ ترفلُ في الأسمالِ؟ قلتُ لهم : أسماليَ اليوم بين الناس أسمى لي[3]

[البسيط]

ونلاحظ أنّ الشاعر فعل في مقطوعته هذه كما فعل في مقطوعته الأولـــى ، حيــث مدح المدح ، وبالغ في مدحه حينما وصفه بمحيي الآمال ومصلح الأحوال ، وكأنّـــه يلفــت نظر المعتمد إلى آماله هو وأحواله ، ثمّ يعجب الشاعر من إحساسه بالخوف وهو قريب مــن المعتمد وكأنّه في عرين الأسد ، ويعجب أيضاً من أنّ الذي رفعه كان سبباً فـــي انحطاطــه وسجنه ، ونراه يستمد من معاني القرآن الكريم ليصف حال رفقائه في السجن ، والشـــاعر إنّما كرّر تأثره بالقرآن الكريم ومعانيه ؛ لينفي عن نفسه ما اتُّهِم به مــن إلحــاد وزندقــة ، ويُثبِت أنّه متعلّق بدينه حافظ لكتاب ربّه ، ثم يتحدث الشاعر عن سوء حاله بعدما سُـــجِن ، فقد تمزّقت ثيابه ، وأصبح مهاناً ، الأمر الذي أثار عجب الناس الذين أخذوا يسألون الشاعر: أهكذا صرت ترفل في الأسمال البالية بعد أيام العزّ والنعيم ، فكان ردّه عليهم : ما أنا فيـــه اليوم أسمى وأفضل لي بين الناس ، ونرى الشاعر يستخدم الجناس التام في قوله : أســـمالي أي ثيابي البالية ، وأسمى لي أي أعظم رفعةً لي وسمواً .

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم4 ، مجلد1 : 373 .

[2] استمدّ المعنى من قوله تعالى : { وآخرين مقرنين بالأصفاد } . ينظر : ص : آية 48 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم4 ، مجلد1 : 374 .

نظرات في الأشعار الاستعطافية الموجّهة إلى الحاكم

عند تسليط الأضواء على الأشعار الاستعطافية الموجهة إلى الحاكم نلحـــظ أمـــوراً اشترك فيها شاعران أو أكثر ، ومن هذه الأمور :

أ) أنّ جميع الشعراء المستعطِفين مدحوا الحاكم الذي يستعطفونه ، واتخذوا المدح وســيلة لتسهيل حصولهم على العفو والصفح .

ب) حاول بعض الشعراء المستعطفين تبرئة أنفسهم من التُّهَم التي رُموا بها ، وعرّضـــوا بالوشاة والأعداء الذين كانوا سبباً في نكبتهم ؛ فهذا ابن زيدون يشبههم بأخوة يوسف – عليه السلام – الذين ألقوا به في غيابت الجبّ ، واتهموا الذئب زوراً وبهتاناً في دمه :

كانَ الوشاةُ وقد مُنيتُ بإفكهم　　　أسباطَ يعقوبٍ وكنتُ الذِّيبا[1]

[الكامل]

أمّا ابن عمار فيدعو المعتمد إلى أن لا يستمع إلى هـــؤلاء الوشـــاة ، ولا يصـــدّق حديثهم، ولو كان فيه إشادةً به وثناءً عليه :

حنانيكَ في أخذي بِرأيكَ ، لا تطعْ　　　وشاتي ولو أثنوا عليّ وأفصحوا[2]

[الطويل]

ويحاول ابن غصن أن يبرئ نفسه ، ويُظهِر أنّ شقاءه كان بسبب الوشاة الذين افـتروا عليه ، وأقحموه في أمر لا ناقة له فيه ولا بعير :

وناسٌ لفّني بهمُ شقـــاءُ　　　ألمّ فزمّ في ساقي سباقه

ولم يكُ لي بذاكَ العيرُ عيرٌ　　　ولا بقطيعِ ذاكَ الذَّوْدِ ناقة[3]

[الوافر]

ويصبّ ابن اللّبّانة جام غضبه على أولئك المفسدين الذين أفسدوا العلاقة بينه وبيـــن مليكه ، ويدعو الله أن لا يميته حتى يراهم معذّبين كما يعذّب من يعصي الأمـــير ويخـــرج عليه ، يقول مخاطباً مليكه :

أطعْتَ عليَّ مَنْ لا مِـــتُّ حتّى　　　أرى مثواه مثوى مَنْ عصاكا

محا حسناتِ قصدي وانقطاعي　　　ببيّنةٍ أقـــامَ لها دُراكـــا

---

(1) ديوان ابن زيدون : 133 .

(2) قلائد العقيان لابن خاقان : 98 .

(3) إعتاب الكتّاب لابن الآبار : 218 .

فجنّبَ ماء بشرك عن جنابـــي ونفّر طيرَ حظّي مِن رُباكـــا[1]

[الوافر]

جـ) لجأ بعض الشعراء المستعطِفين إلى تذكير مَنْ يستعطِفون بسالف العلاقة الطيبة بينهم ، وبالخدمات الجليلة التي قدّموها لهم ، يقول ابن عمار :

ولمْ لا ، وقد أسلفتُ وداً وخدمةً يكرانِ في ليلِ الخطايا فيصبح[2]

[الطويل]

كما اعتبر الود الذي يكنّه للمعتمد بمثابة تميمة ستبعد عنه المنية :

وبينَ ضلوعي مِنْ هواهُ تميمةٌ ستنفعُ لو أنّ الحِمامَ يجلحُ[3]

[الطويل]

وذَكَر الشعراء نِعَم مَنْ يستعطِفون وأياديهم البيضاء عليهم ، وكأنّهم بذلـــك يحثّـــون هؤلاء الحكام على العفو عنهم ؛ ليكون هذا العفو نعمة أخرى يقدّمونها لـــهم ، يقـــول ابـــن زيدون :

ومالي لا أثني بآلاءِ مُنْعِمٍ إذا الرّوْضُ أثنى بالنّسيمِ على الطّلِّ[4]

وابن عمار سام نفسه الأذى ، وأقرّ بذنبٍ لم يرتكبه عرفاناً بنِعَم المعتمد وفضائلـــــه عليه :

أما أنّـــه لـــــولا عوارِفُـــكَ التي جرتْ جريانَ الماء في الغُصنِ الرّطْبِ
لما سمتُ نفسي ما أسومُ مِنَ الأذى ولا قلتُ أنّ الذّنْبَ فيما جرى ذَنْبِـــي[5]

ويتمنى ابن أزرق أن يعود إلى ما كان عليه من نعيم عندما كان يرتع في كنف ابـــن رشيق :

ألا ليتَ شِعْري هلْ أعودُ إلى الذي عهدتُ من النّعمى لديكم بلا جهدِ[6]

[الطويل]

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد2 : 366 .

[2] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 .

[3] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 .

[4] ديوان ابن زيدون : 162 .

[5] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 407 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 136 .

[6] نفح الطيب ، ج3 : 573 .

د) ذكر الشعراء المستعطفون مناقبهم ، وأشاروا إلى خبراتهم التي سيقدمونها إلى الحاكم إن احتاج يوماً إليها ؛ لذا ينبغي للحاكم أن يُبقي هؤلاء الشعراء معززين مكرّمين ، لا أن يبعدهم ويعاقبهم ، وفي هذا يتباهى ابن زيدون بأنّه يتقدّم على أقرانه كما يتقدّم الحصان السابق على سائر الخيول في ميادين السباق :

جوادٌ إذا استنَّ الجياد إلى مَدى تمطّر فاستولى على أمد الخصلِ[1]

[الطويل]

والمعنى ذاته نجده عند ابن عمار ، لكنّه يصف نفسه بالحبل القوي الشديد ، بينما غيره مـــن المحيطين بالمعتمد كالحِبال الضعيفة الهشّة :

ستذكُرُني إن بانَ حَبلي وأصبحتْ تبينُ بكفّكَ الحبالُ الرّثائثُ[2]

[الطويل]

أمّا ابن اللبّانة فيتقدّم على أقرانه من الشعراء كما يتقدم الجوهر على سائر الحصى ، ومليكه سيدرك ذلك ، عندما يمدحه الشعراء الذين لم يبلغوا مبلغ ابن اللبّانـــة ، عنــد ذلــك سيشتاق الملك إلى ابن اللبّانة وإلى قصائده المادحة :

سيشتاقني الملكُ مهما أرادَ لباسَ نسيجٍ مِنَ المفْخَـــرِ

ولو أنَّ كلَّ حَصاةٍ تزيـــن ما جُعِلَ الفضْلُ للجَوْهَـــرِ[3]

[المتقارب]

هـ) وازن بعض الشعراء المستعطفين بين ما كانوا عليه من عزٍّ ونعيم وما آلوا إليه مـــن من ذلٍّ وشقاء ، والشاعر بموازنته هذه يعزف على وَتَرٍ حساس مـــن أوتـــار الحـسّ الإنساني ؛ فالإنسان بفطرته يتعاطف مع أولئك الذين كانوا في عزٍّ فانقلب حالهم إلـــى ذلّ ، فابن زيدون يتساءل عن السبب الذي حطّه من الأوج إلى الحضيض :

قد كنتُ أحسبُني والنجمُ في قَرَنٍ ففيمَ أصبحْتُ منحطّاً إلى العَفْرِ[4]

[البسيط]

---

[1] ديوان ابن زيدون : 160 .

[2] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 144 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد2 : 685 .

[4] ديوان ابن زيدون : 149 .

والمعتمد يتذكّر أيام عزّه ومجده عندما كان مسروراً في الأعياد ، فصادفه العيدُ وهو حبيسٌ ذليلٌ في أغمات :

فيما مَضى كنت بالأعيادِ مسروراً　　　فساءكَ العيدُ في أغماتَ مأسورا[1]

أمّا ابن حداد فقد كان الذي رفعه سبباً في حطّه :

وهوى بنجمي من سماءِ سَنائِهِ　　　وقضى بحطي من ذرى سلطانِهِ[2]

[الكامل]

و) تأسّى بعض الشعراء المستعطِفين بالأنبياء والمرسلين ، واستخلصوا العِبَرَ من المِحَـــن التي مرّت بهم ؛ فابن زيدون يدعو أمّه أن تعتبر بأمّ موسى التـــي رضيــت بقضـــاء الله ، وانصاعت لأمره ؛ فألقت بفلذة كبدها في اليمّ :

وفي أمِّ موسى عِبرةٌ أن رمَتْ بهِ　　　إلى اليمِّ في التّابوتِ فاعتبري واسلي[3]

[الطويل]

ويتأسّى ابن غصن بأنبياء امتحنهم الله تعالى بضروب من البلاء والشقاء ، ثم فــرّج الله عليهم ؛ فأزال بلاءهم وأنهى شقاءهم :

قد أجابَ الإله دعـــوةَ نـــوحٍ　　　حينَ نادى بأنّـــه مغلـــوبُ

وشفى ذو الجلالِ عِلّـــةَ أيـــو　　　بَ ، وقد شارفَ الرّدى أيّـوبُ

وانقضى سجنُ يوسفَ وقد استيــ　　　أسَ ، وارتدّ مُبــصِراً يعقوبُ[4]

[الخفيف]

والشعراء عندما يتأسون بالأنبياء والمرسلين إنّما يواسون أنفسهم ، فكما كشـــف الله الضرَّ عن هؤلاء الأنبياء والمرسلين – عليهم السلام – سيكشف الضُّرَّ عنهم ، ويفرّج عليهم.

ز) لاحظنا أنّ بعضاً من الشعراء – لا سيّما أولئك الذين كانت لهم مكانة قبـــل محنتـــهم – كانوا في البداية متماسكين ، معتدّين بأنفسهم ، محافظين على كرامتهم أثناء استعطافهم ، لكنّ المعاناة التي عانوها في سجنهم طعنت كبرياءهم وفلّت حدّهم ، وجعلـــت عبـــارات التذلّـــل تتسرّب إلى أشعارهم ، قال ابن زيدون في بدايات سجنه مستعطِفاً ابن جهور :

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 .

[2] ديوان ابن حداد : 302 .

[3] ديوان ابن زيدون : 160 .

[4] إعتاب الكتّاب لابن الآبار : 219 .

أخصُّ لفَهمــي بالقِلــى وكأنّــما   يبيتُ لذي الفهمِ الزّمانُ على ذُحلِ
ولو أنّني أسطيعُ كي أرضي العِدا   شريتُ ببعضِ العلمِ حظّاً من الجهلِ[1]

[الطويل]

لقد بدا ابن زيدون في هذينِ البيتينِ معتدّاً بنفسه ، متعالياً على غيره ، إلاّ أنّه قال في مرحلة متأخّرةٍ من سجنه :

(إبائي) في جواركمُ الذّليلُ   وحدّي في رجائكمُ الكليلُ
أتحيا أنفُسُ الآمالِ فيكــم   ولي أثناءها أملٌ قتيــلُ[2]

[الوافر]

ونستطيع أن ندرك من خلال هذينِ البيتينِ كيف فعل السجن فعلَه فيه ؛ فأذلّـــه بعــد عزّة ، وكيف أفقده أي شعور بالافتخار والاعتداد بنفسه ، أو التعالي على غيره .

كما نجد ذات الأمر عند المعتمد ، قال في بداية حياته التعسة في سجنه :

قالوا : الخضوعُ سياسةٌ   فليبدُ منكَ لهم خضــوع
وألذُّ من طعمِ الخضــو   عِ على فمي السُّمُّ النَّقيع
شِيَمُ الأُلى أنا منْهُـــمُ   والأصلُ تتبعُــهُ الفروع[3]

[مجزوء الكامل]

إلاّ أنّنا نقرأ للمعتمد في فترة متأخّرة من حبسه أبياتاً نستشفُّ من خلالها الـــذل والـــهوان ، كقوله عندما سأله بعض شعراء المغرب مالاً :

سألوا اليسيرَ من الأسيرِ وإنّهُ   بسؤالهم لأحق منهم فاعجــبِ
لولا الحياءُ وعزّةٌ لخميّـــةٌ   طي الحشا لحكاهم في المطلَبِ[4]

[الكامل]

لقد كان هذان الشاعران يستعطفان بدايةً بعزّة وكرامة ورباطة جأش ، ثم ما لبثـــت عزّتهم أن تلاشت ، وكرامتهم أن انحطّت بعدما قضوا فترة طويلة في ظلام السجن ، ولكــنّ

---

[1] ديوان ابن زيدون : 159 – 160 .

[2] ديوان ابن زيدون ورسائله : 332 . والكلمة الأولى في البيت الأول ناقصة في الديوان ، وقد أضافها محقق ديوان ابن زيدون ورسائله ؛ لتناسب المقام .

[3] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 65 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 67 .

أمّا الصنف الثاني فقد كانوا غاضبين على الشاعر حانقين عليه ؛ لأنّه أساء إليهم كما أساء إلى الحاكم ؛ لذا لم يتشفعوا فيه ، بل كانوا متلهفين على عقابه ، وهذا ما ينطبق على أبناء المعتمد الذين تشفّع فيهم ابن عمار .

والصنف الأخير تشفّع في الشاعر بعدما أدرك تفاهة ذنبه وصغر جرمه ، وقُبِلت شفاعته ؛ فقد عُفي عن ابن غصن الحجاري ، وأطلق سراحه بفضل شفاعة المقتدر بن هود.

ط) عندما كان الشاعر يخاطب الحاكم كان معظم الحكام يتجاهلون الشاعر واستعطافَه ؛ فابن جهور تجاهل ابن زيدون ، وكذلك فعل ابن تاشفين مع المعتمد ، وفعل المأمون مع ابن غصن ، أمّا المعتمد فقد ردّ على استعطاف ابن عمار شعراً ، وصفح عنه في المرّة الأولى وكاد يعفو عنه في المرّة الثانية ، وأثمر استعطاف ابن أزرق وابن الحداد ، فالأول أُعيد إلى بلاده وكنف مليكه ، أمّا الثاني فقد أُطلِق سراح أخيه بفضل قصيدته ، أمّا ابن اللبّانة والفكيك فلا نعرف إن كانا قد حصلا على العطف والصفح أم أنّهما أخفقا في ذلك ، ولكن نستطيع أن نرجّح الاحتمال الثاني ؛ فابن اللبّانة لم يعد إلى بطليوس ولا إلى ميورقة اللتين هرب منهما ، ولو كانت أشعاره قد أثمرت لأذن له بالعودة إليهما ، وكذلك الأمر بالنسبة للفكيك الذي اتُّهِم في دينه ، فقد خاطب المعتمد مستعطفاً ومدحه ، وبالغ في مدحه حين خلع عليه بعضاً من الصفات الإلهية ، وكأنّه بذلك أثبت ما اتُّهِم به .

ثانياً : استعطاف المحبوبة :

كان للمحبوبة نصيبٌ كبير في شعر الاستعطاف ؛ فالشاعر قد يتعلق قلبه بمحبوبة لا تحبّه ، ولا تشاركه الشعور الذي يكنّه لها ؛ فيغدو الوصال بينهما صعباً ؛ فيحيا الشاعر المحبّ حياة عسيرة ، لا يشغله فيها شاغل سوى وصال محبوبته ، وتقربها منه ؛ فيشرع بالتغزّل بها ، ووصف عشقه لها وهيامه بها ، ثم يطنب في الحديث عن تعاسة حياته ، ونكد عيشه ؛ بسبب ابتعاد محبوبته عنه عساه بذلك يستلين قلبها ويستدر عطفها .

وقد يحصل خلاف بين المحبّين ؛ بسبب ذنب يقع من المحبّ ، ويؤدي هذا الخلاف إلى هجر ، وعندما يطول الهجر يندم المحبّ على ذنبه ؛ (فيبدأ في الاعتذار والخضوع والتذلّل ، والأدلة بحجته من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف)[1] ، عسى المحبوبة تغفر ذنبه، وتعطف عليه ، وتخلّصه من ضنك الهجر وألم الفراق ، والمحبّ المستعطِف إن نال مبتغاه ، وحصل على رضى محبوبته يكون في غاية السعادة (فلرضى المحبوب بعد سخطه لذّة في القلب لا تعدلها لذّة ، وموقف من الروح لا يفوقه شيءٌ من أسباب الدنيا)[2] ، وأشهر الشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم في هذا العصر هم :

1- ابن زيدون[3] :

محبوبته ولاّدة : عُرف ابن زيدون بولاّدة ، فلا تُذكَر إلاّ به ولا يُذكَر إلاّ بها ، واقترن اسمهما معاً كما اقترن عنترة بعبلة ، وقيس بليلى ، وجميل ببثينة ، وولادة هذه هي بنت المستكفي بالله الخليفة الأموي قبل الأخير في الأندلس و (كان مجبولاً على الجهالة ، عاطلاً عن كلّ خلّة تدل على فضيلة ، معروفاً بالتخلّف والركاكة ، مشتهراً بالشُرْب والبطالة، سقيم السرّ والعلانية ، أسير الشّهوة)[4] ، و (لم يجلس في الإمارة مدة الفتنة أسقط منه ولا أنقص)[5]، أمّا أمها فجارية إسبانية تسمى (سكرى) ، وقد شابهت ولادة أمها

---

[1] طوق الحمامة في الألفة والآلاف : ابن حزم الأندلسي ، تحقيق فاروق سعد ، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، (د.ت) : 180 .

[2] طوق الحمامة لابن حزم : 180 .

[3] ابن زيدون سبقت ترجمته صفحة 32 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 434 .

[5] الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 434 .

الأوروبية في صفاتها الجسدية ، حيث يدل وصف ابن زيدون لها على أنّها كانت بيضاء البشرة ، ذات شعر أشقر :

ربيبُ مُلْكٍ كأنَّ اللهَ أنشأهُ مسكاً ... وقدَّرَ إنشاءَ الورى طينا

أو صاغه ورِقاً[1] محضاً وتوَّجَهُ ... من ناصعِ التبرِ[2] إبداعاً وتحسينا[3]

[البسيط]

كما شابهت أباها في مجونه وخلاعته فقد (أوجدت إلى القول فيها السبيل بقلّةِ مبالاتها ، ومجاهرتها بلذّاتها ، كتبت – زعموا – على أحد عاتقيّ ثوبها :

أنا واللهِ أصلحُ للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيهُ تيها

[الوافر]

وكتبت على الآخر :

أمكنُ عاشقي من صحنِ خدّي ... وأُعطي قُبلتي مَنْ يشتهيها)[4]

[الوافر]

وكانت إلى جانب جمالها ولهوها شاعرة مبدعة تهوى الأدب فقد (كان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرّتها ، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها ؛ لسهولة حجابها وكثرة منتابها)[5] ، وكان من هؤلاء الشعراء الذين جذبتهم إليها ابن زيدون ؛ فتعلّقت ولادة به ، وكان في بداية عهده معها مطلوباً لا طالباً ، معشوقاً وليس عاشقاً ، عبّرت ولادة عن حبّها له في شعرها ، فقد كتبت يوماً إليه :

ترقّب إذا جنَّ الظلامُ زيارتي ... فإنّي رأيتُ الليلَ أكتمَ للسرّ

وبي منكَ ما لو كانَ بالبدرِ ما بدا ... وبالليلِ ما أدجى وبالنّجمِ لم يسرِ[6]

[الطويل]

---

[1] الورِق : الفضة . ينظر المعجم الوسيط ، ج 2 : 1026 .

[2] التّبر : فتات الذهب . ينظر المعجم الوسيط ، ج1 : 81 .

[3] ديوان ابن زيدون : 11 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 429 – 430 .

[5] الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 429 .

[6] الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 430 .

كما عبّرت عن تشوّقها إليه ، فقد ألمَّ بابن زيدون أمرٌ جعله يفارقها حيناً ؛ فكتبت إليه متشوّقةً لرؤيته :

ألا هــل لنا مِنْ بعدِ هذا التَّفرّقِ   سبيلٌ فيشكو كلُّ صبٍّ بما لقي

وقد كنتُ أوقاتَ التّزاورِ في الشّتا   أبيتُ على جمرٍ من الشوْقِ محرقِ[1]

[الطويل]

هكذا كانت ولادة تحبّ ابن زيدون وتتشوّق إليه ، ولكنّه ما لبث أن هام بها كما هامت به ، وأخذ يبادلها عشقاً بعشق وغراماً بغرام ، وأخذ يتحدّث عن حبّه الشديد لها ، ويتشوّق إليها كما تشوّقت إليه قبل ، ونلمس ذلك من شعره فيها ، فقد أنشدها عندما شايعها يوماً مودعاً :

ودّعَ الصّبْـر مُحبٌّ ودَّعك   ذائعٌ من سرّه ما استودعك

يقرعُ السنَّ على أن لم يكنْ   زادَ في تلكَ الخطى إذ شيّعك

يا أخا البدرِ سناءً وسنى   حفظَ اللهُ زماناً أطلَعك

إنْ يطُلْ بعدكَ ليلي فلَكَم   بتُّ أشكو قِصَرَ الليلِ مَعَك[2]

[الرمل]

لقد (أحسّ ابن زيدون وولادة وكأنّ روحيهما تآلفتا ، بل لكأنّهما احترقتا بلظى العشق والغرام ؛ فقادا حياة محمومة بالحبّ ، ليس فيها حشمة ، وإنّما فيها العنف والجرأة)[3] ولكنّ أيام السعد والوصال بين المتحابين لم تدم ، إذ سرعان ما حدثت الجفوة بينهما ، ثم كانت القطيعة المُرّة التي أورثت ابن زيدون جرحاً بليغاً نازفاً ظلّ يعاني منه طيلة حياته .

سبب الجفوة بين ابن زيدون وولّادة :

يتحدّث ابن بسام عن الجفوة بين ابن زيدون ومحبوبته ، ويقول : إنّ ابن زيدون طلب من جارية مغنّية أن تعيد بيتاً غنّته ؛ فغضبت ولادة إذ ظنّت أنّه يغازلها من دونها[4] ، أمّا المقّري فيسوق سبباً آخر وهو نقد ابن زيدون لبيتٍ نظمته ولادة وكان نقده يفتقر إلى

---

[1] ديوان ابن زيدون : 283 .

[2] ديوان ابن زيدون : 94 .

[3] ابن زيدون لشوقي ضيف : 20 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 431 .

اللباقة ، فاستبدّ بها الغضب وتحول قلبها عنه[1] ، ويـــرى الدكتـــور جـــودت الركـــابي أنّ (انضمام ابن زيدون لحركة الجهاورة قد ترك في نفسها أثراً سيئاً ، وهي بنت خليفة أموي؛ فجاءت الغيرة تذكي في نفسها شتى الوساوس)[2] ، ويقول الدكتور عمر الدقاق : (إنّ ولادة ذات النفس الفائرة والطبيعة المتقلبة هي التي تغيرت على ابن زيدون ، وتعلقت بوزير آخـر هو ابن عبدوس دون أن ترعى لمحبها عهداً)[3] ، وأظنّ أنّ الأسباب السابقة ليست مقنعـــة في تفسير سبب القطيعة التي حدثت بين الشاعر ومحبوبته ، وأرى أنّ السبب المقنع يظـــهر في شعر ابن زيدون الذي استبدت به يوماً ثورة غضب ؛ فاعتدى على محبوبتـــه الأمـــيرة بالضرب ، فشعرت أنّ كرامتها مُسّت ، وأنّ إهانةً بليغة لحقت بها ؛ فنقمت على الشاعر ولم تغفر له زلّته على الرغم من ندمه على فعلته ، ووعده بإصلاح ما أفسد ، وفي ذلك يقـــول معتذراً :

إن تكنْ نالتْكِ بالضَّرْبِ يدي	وأصابتكِ بما لـمْ أُرِدِ
فلقد كنتُ لَعمري فاديـــاً	لكِ بالمالِ وبعضِ الولَدِ
فثقِي منّي بعهدٍ ثابـــتِ	وضميرٍ خالصِ المعتقدِ
ولئنْ ساءَكِ يومٌ فاعلمـــي	أنْ سيتلوه سرورٌ بِغَدِ[4]

[الرمل]

<u>ابن زيدون يتغزل بمحبوبته ويستعطفها :</u>

حصلت القطيعة بين ابن زيدون وولادة ، ثم اكتملت مأساة ابن زيدون عندما سُجن ، وبدا في هذه المرحلة وكأنّ الدنيا قد أدبرت عنه ، وعلى الرغم من ذلك لم ينسَ محبوبتـــه ، بل أخذ يجهد في إلانة قلبها ، ويرسل إليها الأشعار راجياً منها أن تعطف عليه وتعود إليـه ، وكانت القصيدة النونية أشهر قصائده في هذا المضمار ، وقد نظمها وهو متخفٍّ في أرجـاء قرطبة بعد فراره من السجن ، وأرسلها إلى محبوبته (لعلها ترقّ ، وتجدد العهد ، فإن لـــم

---

(1) نفح الطيب للمقري ، ج4 : 205 – 211 .

(2) في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 171 .

(3) ملامح الشعر الأندلسي لعمر الدقاق : 140 .

(4) ديوان ابن زيدون : 56 .

يتحقق الأمل المرجوّ فلا أقل من أن تكون بطاقة وداع ، وكلمة أخيرة في قصة حبّ بائسة ، وفاء للحب الجاحد)[1] .

لقد افتتح ابن زيدون قصيدته هذه بتصوير حاله وما آل إليه ، فقد أصبح قربه من حبيبته بُعداً ، وصار الموت والهجر سيان في نظره ، ويود الشاعر أن يعلم محبوبته أنّ ضحكه قد حال إلى بكاء ، وأنّ الدهر قد استجاب لدعوة أعدائه ، وحقق لهم ما تمنّوه من افتراق الحبيبين ، فلم يعودا يلتقيان بعد أن كانا لا يخشيان التفرّق :

أضحى التَّنائي بديلاً مِنْ تَدانينا	ونابَ عن طيْبِ لُقيانا تجافينا
ألا وقد حانَ صُبحُ البيْنِ صبَّحَنا	حَيْنٌ[2]، فقامَ بنا للحَيْنِ ناعينا
مَنْ مبلِغ الملبسينا بانتزاحهمُ	حُزناً مع الدَّهْرِ لا يَبلى ويبلينا
إنّ الزَّمانَ الذي ما زالَ يضحكنا	أُنساً بقربهمْ قد عادَ يبكينا
غيْظَ العِدى مَنْ تساقيْنا الهوى فدعوا	بأنْ نُغصَّ فقالَ الدَّهرُ: آمينا
فانحلَّ ما كانَ معقوداً بأنفسنا	وأنبتَّ ما كانَ موصولاً بأيدينا
وقد نكونُ وما يُخشى تفرُّقُنا	فاليوم نحنُ وما يُرجى تلاقينا[3]

[البسيط]

وينتقل الشاعر إلى عرض ما يكنّه من حُبّ لولادة ، وشوق إليها ، ووفاء لها ، ويبيّن أنّ الحزن الذي سببه بُعدها عنه ، وهجرها إيّاه يكاد يقضي عليه لولا تأسّيه وتصبّره ؛ فقد أفسد عليه هذا الحزن حياته ؛ فأمست أيامه الحاضرة سوداء ، بينما كانت لياليه مع محبوبته بيضاء ناصعة ، ثم يتحسّر الشاعر على أيام وصاله مع محبوبته ، تلك الأيام التي كانت كالروضة الغنّاء ، ينال منها ما يشتهي ، ويقطف من ثمرها ما يريد ، ولكنّ هذا التحسّر لا يُملي على الشاعر السّخط والغضب ، بل على العكس من ذلك نراه يؤكد وفاءه الشديد لها ، فهو لا يتغيّر على محبوبته كما تغيّرت عليه ، والبُعد الذي طالما غيّر المحبين عاجز عن تغييره ؛ لذا فهو باقٍ على حبّ محبوبته التي كانت في وصالها ريحاناً لروحه ، وما زالت في بُعدها عنه ذلك الريحان الذي تتشوق إليه نفسه ، فقلبه ما مال إلى سواها ، وأمانيه لم تنصرف عنها قط :

---

[1] دراسات أدبية ونحوية : فتحي خضر ، منشورات دار الأرقم – رام الله ، ط1 ، 1987م : 162 .

[2] الحَيْن : الهلاك . ينظر المعجم الوسيط ، ج1 : 213 .

[3] ديوان ابن زيدون : 9 .

لمْ نعتقدْ بعدكمْ إلاّ الوفـــــاءَ لكمْ	رأياً ولمْ نتقلّدْ غيرَهُ دينـــــنا
بِنْتمْ وبِنّا فما ابتلت جوانحـــــنا	شوقاً إليكمْ ولا جفَّتْ مآقيـــنا
نكادُ حينَ تناجيكمْ ضمائـــرُنــا	يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا
حالتْ لفقْدِكمُ أيّامُــــنا فغـــدَتْ	سوداً وكانتْ بكُمْ بيْضاً لياليـــنا
إذ جانبُ العيْشِ طلْقٌ مِنْ تآلفـــنا	ومربعُ اللّهوِ صافٍ مِنْ تصافينا
وإذ هَصَرْنا غصونَ الوصْلِ دانيةً	قطوفُها فجنيْنا منه ما شيـــنا
لِيَسْقِ عهدُكمْ عهدُ السُّرورِ فمـــا	كنتمْ لأرواحِنا إلاّ رياحيــــــنا
لا تحسبـــوا نأيكمْ عنّا يُغيّـــرُنا	أن طالما غَيَّرَ النأيُ المحبّيــــنا
واللهِ ما طــلبتْ أهواؤنا بــــدَلاً	منكمْ ، ولا انصرفتْ عنكمْ أمانينا[1]

[البسيط]

ويشرك الشاعر ظواهر الطبيعة في معاناته ، فيطلب من البرق أن يبـــاكر قصـــر محبوبته ويسقي ساكنيه ، ويردّ الجميل إلى مَن أسقى الشاعر منهم الحبّ والغرام ، ثم يطلب من النّسيم أن يبلّغ تحياته إلى تلك المحبوبة التي لو أرسلت السلام إلى الشاعر لخلصته مـــن ضنكه ومعاناته :

يا ساريَ البَرْقِ غادِ القصرَ واسق بـــه	مَنْ كان صرفَ الهوى والوُدّ يسقينا
واســـأل هنالكَ هلْ عنّى تذكّــــرنا	إلفاً تذكّـــرهُ أمســـى يعنيــــــنا
و يا نسيمَ الصّبا بلّـــغْ تحيّتــــــنا	مَن لو على البُعدِ حيّاً كانَ يُحييــــنا
فهلْ أرى الدَّهرَ يقضيـــنا مُساعَفـــةً	منهُ وإن لمْ يكنْ غبّـــاً تقاضيــــنا[2]

[البسيط]

ويصف الشاعر محبوبته ، فهي ليست كسائر البشر ، بل ربيب ملوك ، كأنّها خُلِقـت من طينة المسك ، فجسدها أبيض كالفضّة ، أمّا الشعر الذي يتوجها فهو أصفـــر كـــالذهب (وجمال المحبوب هنا ليس من الجمال الذي تضمّه الشوارع ، وإنّما جمال ارستقراطي تلمح خلاله ليونة النعيم وغضارته ، وتأوّد القدّ المرهف ورخاصته حتى ليدميـــه مـــس العقـــود

---

[1] ديوان ابن زيدون : 10 .

[2] ديوان ابن زيدون : 10 – 11 .

والمجوهرات)[1] ، إلى جانب ذلك فهي أميرة وسليلة أمراء ، والشاعر إن كان دونها شـرفاً إلاّ أنّ المودة تساوي بين المحبين :

ربيبُ مُلْكٍ كأنّ اللهَ أنشـــاه	مسكاً وقدّرَ إنشاء الورى طيـنا
أو صاغه ورَقاً محضاً وتوّجه	من ناصعِ التّبرِ إبداعاً وتحسينا
إذا تأوّدَ آدته رفاهيــــــة	تومُ العقود وأدمته البُرى ليـنا
كانتْ له الشّمسُ ظِئراً في أكلته	بل ما تجلّى لها إلاّ أحاييـــنا
ما ضر أنْ لم نكنْ أكفاءه شرفاً	وفي المودة كافٍ من تكافيـنا[2]

[البسيط]

(ويقف الشاعر من محبوبته وقوف مناجاة فيه معانٍ عديدة من التمني والتحسّر والاحـترام والإجلال)[3] ، فهو يتحسّر على أيام وصاله مع محبوبته التي كانت روضة له ، كما كـانت نعيماً لحياته ، ويتمنى أن تعود إليه ، وتعيده إلى جنته التي أُخرِج منها ، وإلى النعيم الـذي فارقه ، والشاعر عندما يخاطب محبوبته لا يسميها إجلالاً لها وتكريماً ، ولأنّ قدرها العـالي يُغنيه عن ذلك ، ولكنّ وصفه إيّاها يدل عليها ، فلا أحد من البشـر يشـاركها جمالـها أو صفاتها :

يا روضةً طالــما أجنتْ لواحظنا	ورداً جلاه الصِّبا غضّاً ونسرينا
ويا حيـــاةً تمليـــنا بزهرتـــها	مُنىً ضروباً ولذّاتٍ أفانيـــنا
ويا نعيماً خطرنا من غضارتـــه	من وشي نعمى سحبنا ذيلَهُ حينا
لسنا نسمّيكَ إجلالاً وتكرِمــــةً	وقدرُكَ المعتلي عن ذاكَ يغنيـنا
إذا انفردْتِ وما شوركتِ من صفةٍ	فحسبنا الوصفُ إيضاحاً وتبيينا[4]

[البسيط]

ويعود الشاعر ليتلهف على ماضيه ، ويناجي تلك الجنة التي أُخرِج منها ، ويحنّ إلى كوثرها العذب الذي أبدل به زقوماً وغسلينا ، ويعود بنا إلى الوراء ليحدثنا عن تلك الأيـام السعيدة واللحظات الهنيئة التي كان ينعم فيها بوصال محبوبته ، لقد كان الحبيبـان آنـذاك

[1] في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 213 .

[2] ديوان ابن زيدون : 11 .

[3] الأدب الأندلسي – موضوعاته وفنونه : مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط5 ، 1983م : 210 .

[4] ديوان ابن زيدون : 11 – 12 .

سرّينِ مطويينِ في حالك الظلماء ، لا يفشيهما إلاّ لسان الصّبح ساعة بزوغه ، ثم يخـــاطب تلك المحبوبة التي ملأت عليه حياته أينما حلّ وحيثما ارتحل ، ويقول لها : إنّه لن يفقد الأمل بلقائها ، فإن لم يتم هذا اللقاء في الدنيا فسوف يتم في العالم الآخر يوم الحشر :

يا جنّةَ الخُلْدِ أُبدلـــنا بسدرَتـــها	والكوثرِ العذْبِ زقّوماً وغِسْليـــنا
كأنّنا لمْ نبتْ والوصـلُ ثالثـــنا	والسعد قد غضّ من أجفانِ واشينا
سرّانِ في خاطرِ الظّلماءِ يكتمـــنا	حتى يكادَ لسانُ الصُّبحِ يفشيـــنا
إن كانَ قد عزَّ في الدّنيا اللّقاءُ بكمْ	في موقفِ الحشرِ نلقاكمْ وتلقـونا[1]

[البسيط]

ويناجي الشاعر محبوبته مرّة أخرى ليعلمها أنّ الحزن قد اقترن بحياته مـن وقـت بُعدها عنه ، وهجرها إيّاه ، ورغم ذلك ما زال محباً لها ، لا يكتمل سروره ولا تتم بهجتـه إلاّ إذا كانت قريبةً منه ، فملذات الحياة مجتمعة لا تدخِل البهجة والسرور إلى نفسه ما دامت بعيدة عنه ، هاجرة إيّاه :

إنّا قرأْنا الأسى يومَ النّوى سوَراً	مكتوبةً وأخذنا الصّبْرَ تلقيـنا
أمّا هواك فلمْ نعدلْ بمنهلـــه	شرباً وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجفُ أُفقَ جمالٍ أنتِ كوكبـه	سالين عنه ولمْ نهجرْه قاليـنا
نأسى عليك إذا حثّتْ مُشعشعـةً	فينا الشمول وغنّانا مُغنّيـــنا
لا أكؤسُ الرّاحِ تُبدي من شمائلنا	سيما ارتياح ولا الأوتارُ تُلهينا[2]

[البسيط]

ويختم الشاعر قصيدته مستعطِفاً محبوبته ؛ فيرجوها أن تعود إليه ، وتخلّصه مـن عناء البُعد وألم الفراق ، فهو لا يستحقّ هذه المعاناة ؛ لأنّه عاشقٌ وفي ، فنفسه لم تَصْبُ إلى غيرها ، وقلبه لم يمل إلى سواها (ولعله لا يستطيع التخلّي عن هذا الوفاء في الحب ؛ لأنّـه سبب من أسباب بقائه ، فليقنع بالقليل ، وليودعها وفي نفسه ذلّة وانكسار ، وفي الجو الـذي خلقه ارتجاف وحسرة وانكسار)[3] :

دومي على العهْدِ ما دُمنا محافظةً	فالحرُّ مَنْ دانَ إنصافاً كما دِيْـنا

---

[1] ديوان ابن زيدون : 12 .

[2] ديوان ابن زيدون : 12 – 13 .

[3] في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 214 .

فما استعضْنا خليلاً منكَ يحبسُنا ولا استفدنا حبيباً عنكَ يُثنينا

ولو صبا نحونا مِن علو مطلعه بدر الدّجى لمْ يكنْ حاشاكِ يصبينا

أولى وفاءِ وإنْ لمْ تبذلي صِلَةً فالطيْفُ يقنعنا والذِّكْرُ يكفينا

وفي الجوابِ متاعٌ إن شفعتِ به بيْضَ الأيادي التي ما زلتِ تولينا

عليكَ منّي سلامُ اللهِ ما بقيتْ صبابةٌ منكَ نخفيها فتخفينا[1]

[البسيط]

لقد استجمع ابن زيدون شاعريته ، وفجّر عواطفه فكانت هذه القصيدة التي صارت (أغنية العاشق ، وسلوة المحزون ، وأمل المحبّ ، ورجاء اليائس ، وهمسة الحائر ، ودمعة الباكي)[2] ؛ لأنّ الشاعر جمع فيها ما يدور بخلده من معانٍ وصور ، وصاغها بعبارات تملك النفوس ، وتستولي على القلوب . والشاعر لم يقصر شعره الغزليّ على هذه القصيدة ، بل نقرأ له قصائد غزلية استعطافية أخرى غير هذه القصيدة ، إلاّ أنّ معانيه وصوره وأخيلته وعواطفه في قصيدته النونية هي ذاتها في قصائده الغزلية الأخرى ، فكما تشوّق إلى محبوبته في هذه القصيدة تشوّق إليها في سائر قصائده الغزلية ، فها هو يكاد يطير إلى محبوبته شوقاً وقد أصبح مضنى القلب ، منهك الجسم :

لا سكّنَ اللهُ قلباً عقّ ذكركمُ فلم يَطرْ بجناحِ الشّوْقِ خفّاقا

لو شاءَ حمْلي نسيمُ الصَّبا حين سرى وافاكمُ بفتىً أضناه ما لاقى[3]

[البسيط]

والمعنى ذاته يكرره الشاعر في قصيدة أخرى :

فلو أسطيعُ طِرْتُ إليك شوقاً وكيفَ يطيرُ مقصوصُ الجَناحِ[4]

[الوافر]

وتشوّقه إلى الحبيب كتشوّق الظمآن إلى الماء الزلال ليطفئ ظمأه ، ويروي عطشه :

فديتكِ إنّ صبري عنكِ صبري لدى عطشي على الماءِ القراحِ[5]

---

[1] ديوان ابن زيدون : 13 .

[2] تاريخ الأدب العربي في الأندلس : إبراهيم أبو خشب : 349 .

[3] ديوان ابن زيدون : 47 .

[4] ديوان ابن زيدون : 49 .

[5] ديوان ابن زيدون : 48 .

[الوافر]

وعلى الرغم من محاولة الشاعر إخفاء عواطفه إلاّ أنّ شوقه يفضحه ، وهو غريب عن وطنه ، بعيد عن حبيبه :

يخفي لواعجَه والشوقُ يفضحُهُ فقد تساوى لديه السِّرُّ والعلنُ(1)

[البسيط]

وكما تحدّث الشاعر في قصيدته النونية عن حزنه وسوء حاله بسبب فراق محبوبته تحدّث عن ذلك في قصائده الغزلية الأخرى ، فمحبوبته رفعته إلى الأوج حين كانت قريبة منه ، ثم ألقت به في الحضيض حين ابتعدت عنه :

أرخصتني من بعدما أغليتني وحططتني ولطالما أعليتني

كنتَ المُنى فأذقتني غصصَ الأذى يا ليتني ما فهتُ فيكَ:بليتني(2)

[الكامل]

ويتمنى الشاعر أن تبادله محبوبته حبّاً بحبّ ، وهياماً بهيام ؛ فيطول ليلها شوقاً إليه كما يطول ليله شوقاً إليها :

يا ليتَ مالكَ عندي منَ الهوى لي عندك

فطالَ ليلُكَ بعدي كطولِ ليلي بعدكَ(3)

[مجزوء الكامل]

ويشرك الشاعر الطبيعة في معاناته في كثير من قصائده كما أشركها في قصيدته النونية ، فالنسيم العليل إنّما اعتلّ حزناً على ما يعانيه الشاعر ، أمّا الزّهر المجلل بالنّدى فكأنّه يبكي تعاطفاً معه في محنته :

---

(1) ديوان ابن زيدون ورسائله : 162 .

(2) ديوان ابن زيدون : 66 .

(3) ديوان ابن زيدون : 55 .

إنّي ذكرتُك بالزّهراءِ مشتاقـــا والأُفقُ طلقٌ ومرأى الأرضِ قد راقا[1]
وللنّسيمِ اعتلالٌ في أصائلِـــهِ كأنّه رقَّ لي فاعتـــلَّ إشفـاقـــا
نلهو بما يستميلُ العينَ من زهرٍ جالَ النّدى فيهِ حتّى مالَ أعنـاقـا
كأنّ أعينَهُ إذ عاينـتْ أرقـــي بكتْ لما بي فجالَ الدمـعُ رقراقـا[2]

[البسيط]

ويعيد الشاعر مرّة أخرى صورة النّسيم الذي تعاطف معه فاعتلّ حزناً على ما ألـمّ به:

ولطالما اعتلَّ النَّسيمُ فخلتُهُ شكوايَ رقّتْ فاقتضتْ شكواكَ[3]

[الكامل]

ويشترك الشاعر مع حمامة كانت تهدل على غصن في الشكوى ، وكـان الغصـن الذي بينهما يتمايل وكأنّه متعاطف معهما :

وأرّقَ العينَ والظّلماءُ عاكِفَـةٌ ورقاءُ قد شفّها إذ شفّني حزنُ
فبتُّ أشكو وتشكو فوقَ أيكتها وباتَ يهفو ارتياحاً بيننا الغصنُ[4]

[البسيط]

وعرّض الشاعر بالأعداء والوشاة في نونيته ، كما عرّض بهؤلاء في غير قصيـدة من قصائده ، والشاعر يقصد بهؤلاء الأعداء عشاق ولادة الكُثر وفي مقدّمتهم الوزير ابـن عبدوس[5] ؛ فمحبوبته كادت تخلص له لولا مساعي هؤلاء الوشاة الذين بذروا بذور الشّـقاق

---

[1] قال الدكتور سيد نوفل عن هذه القصيدة أنّ عاطفتينِ تموجان فيها (عاطفة الماضي الجميل تكسبه الطبيعة الحلـوة مزيداً من الحُسْن ، وعاطفة الحاضر المحروم يكسو الطبيعة ثوباً من القتامة والكآبـة ، والشـاعر إذا تحـدّثَ عـن الماضي ابتسمت الطبيعة في طلاقة الأفق ، وصفاء وجه الأرض ، وابتسام الروض ، وطرب الزهر وتـألق الـورد وإشراق الضحى ، وإذا تحدّثَ عن الحاضر تمثّل له في اعتلال النسيم وإشفاقه ، وبكاء الزهـر ، وجـولان دمعـه الرقراق ، ونعاس النيلوفر ، وبذلك يبدو اشتباك الطبيعة مع عواطف الشاعر التي يذكيها باعثاً في النفوس لحناً مـن الأسى والإشفاق والصدى العميق) . ينظر شعر الطبيعة في الأدب العربي : سيد نوفل ، دار المعارف – مصـر ، ط2 ، (د.ت) : 267 .

[2] ديوان ابن زيدون : 46 – 47 .

[3] ديوان ابن زيدون : 97 .

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله : 162 .

[5] الوزير أبو عامر بن عبدوس (ذو الوزارتينِ) ، منافس ابن زيدون في حب ولادة ، توفي عام 472هـ . ينظر الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 1 : 65 .

والخلاف بينهما ، والشاعر إنّما تتأجّج نيران عداوته على هؤلاء الوشاة ؛ بسبب رضى محبوبته عنهم :

ولي أملٌ لو الواشون كفوا　　لأطلعَ غرسُه ثمرَ النّجـــاحِ
وأعجبُ كيفَ يغلبني عدوٌّ　　رضاكِ عليه من أمضى سلاحي[1]

[الوافر]

ويلوم الشاعر محبوبته ؛ لأنّها انخدعت بأعدائه ، وغُرّت بزورهم ؛ فوقعت في شِراكهم :

وناجاكِ بالإفكِ فيَّ الحســود　　فأعطيته جهرَةً ما سأل
وراقَكَ سحرُ العدى المفترى　　وغرَّكِ زورهمُ المُفتَعَل[2]

[المتقارب]

ويذكّر الشاعر محبوبته بمناقبه حين كان قريباً منها عساها تعطف عليه وتعود إلى وصاله ، لقد كان يصبّر نفسه على البُعدِ عنها كي لا تملّه ، كما كان يتظاهر بالرضى والسرور وعلى الرغم من أنّه لم ينل من محبوبته ما يرضيه ويسرّه ، وكان الأحرى بمحبوبته أن تقابل إحسانه بإحسان ، وأن تغفر ذنبه إن كان قد أذنب ، كما كان يغتفر ذنوبها، سواء أكانت هذه الذنوب متعمدة أم غير متعمدة :

ألمْ ألزمِ الصَّبْرَ كيما أخــف　　ألمْ أُكثرِ الهَجْرَ كي لا أُمل ؟
ألمْ أرضى منكَ بغيرِ الرّضى　　وأبدي السّرورَ بما لمْ أنَل ؟
ألمْ أغتفرْ موبقاتِ الذّنــو　　بِ عمداً أتيتِ بها أمْ زلَـل ؟
وما ساءَ ظنّي في أن يسيءَ　　بيَ الفعل حسنُكِ حتّى فَعَل[3]

[المتقارب]

ويشكو الشاعر من محبوبته التي لم يجدِ معها عتابه ، بل كانت تتذرّع بشتى الذرائع، وتبرّر بُعدها عنه بالمبررات التي تشبه مبررات الفلاسفة والجدليين :

ومهما هَزَزْتُ إليكِ العتا　　بِ ظاهرتِ بين ضروب العِلَل
كأنّكِ ناظرْتِ أهل الكلامِ　　وأوتيتِ فهماً بعلم الجَـــدَل[4]

---

[1] ديوان ابن زيدون : 48 – 49 .
[2] ديوان ابن زيدون : 34 .
[3] ديوان ابن زيدون : 34 – 35 .
[4] ديوان ابن زيدون : 35 .

[المتقارب]

ويتأرجح الشاعر بين الأمل واليأس في قصائده ، فها هو يأمل من محبوبته أن ترسل السلام إليه مع النسيم ، فما زال فؤاده معلّقاً بها ، وقلبه مائلاً إليها :

وإنْ تُهدي السَّلامَ إليَّ غبّــاً … ولو في بعضِ أنفــاسِ الرّياحِ

فؤادي مِنْ أسىً بكَ غيرَ خالٍ … وقلبي عن هوىً لكِ غير صاحِ[1]

[الوافر]

ولكنّه في قصيدة أخرى ييأس من لقاء محبوبته ، ويعتبر الودّ الذي كان بينهما قد قضى قبـل انتهاء أجله :

فلمْ يكُ حظّي منكِ الأخس … ولا عُدّ سهمي فيكِ الأقــل

عليكِ السلامُ سلامُ الوداعِ … وداعُ هوى ماتَ قبلَ الأجل[2]

[المتقارب]

لقد سلك ابن زيدون شتى المسالك التي ظنّ أنّها ستجلب قلــب محبوبتــه وتســتدر عطفها ؛ فتغزل بها ، وأطنب في الحديث عن حزنه وسوء حاله وضنك عيشه بسبب فراقها، كما وازن بين ما كان عليه عندما كان ينعم بوصالها وبين ما آل إليه عندما هجرته وابتعدت عنه ، وبكى خلال ذلك وأنَّ ، وتشوّق إلى محبوبته وحنَّ ؛ ولكن لم ينفعه بكاؤه وأنينه ، ولا تشوّقه وحنينه ، إذ إنّها لم تستجب إليه ، ولم تدم على العهد الذي رجاها أن تحافظ عليه :

دومي على العهدِ ما دُمنا محافظةً … فالحرّ مَنْ دانَ إنصافاً كما دينا[3]

[البسيط]

ولم ترسِل إليه السلام مع النسيم :

وإن تُهدي السلامَ إليَّ غبّاً … ولو في بعضِ أنفاسِ الرّياحِ[4]

[الوافر]

ولم تردّ عليه بجواب :

وفي الجوابِ متاعٌ إن شفعتِ به … بيض الأيادي التي ما زلْتَ تولينا[5]

---

[1] ديوان ابن زيدون : 49 .

[2] ديوان ابن زيدون : 35 .

[3] ديوان ابن زيدون : 13 .

[4] ديوان ابن زيدون : 49 .

[5] ديوان ابن زيدون : 13 .

[البسيط]

ولم يجالس الشاعر القوم الذين أحبهم ، فقد ضيّعوا العهد الذي بقى محافظاً عليه :

يا هل أجالسُ أقواماً أحبّهـمُ ؟ كنّا وكانوا على عهدٍ فقد ظعنوا

أو تحفظونَ عهوداً لا أضيّعها إنّ الكرامَ بحفظِ العَهْدِ تُمتَحَـنُ[1]

[البسيط]

ورأى ابن زيدون أن يخاطب غريمه في حبّ ولاّدة الوزير ابن عبدوس ؛ فأرسـل إليه قصيدة يتهدده ويتوعّده إن هو استمرّ في حبّ ولادة ، افتتحها بقوله :

أثرتَ هزبرَ الشّرى إذ ربَض ونبّهته إذ هدا فاغتمـض

حذارِ حذارِ فإنّ الكريـمَ إذا سيمَ خسفاً أبى فامتعض[2]

[المتقارب]

ولكنّنا نلمس في هذه القصيدة أثراً للاستعطاف ، فقد ناشد ابن زيدون المودة القديمـة التي كانت بينه وبين ابن عبدوس ، واستحلفه أن يشفق عليه ويرحمه ، ويكفّ عـن حـبّ ولادة ، إذ يقول :

أبا عامرٍ أينَ ذاكَ الوفاءُ إذا الدّهرُ وسنان والعيشُ غـضُّ

وأينَ الذي كنتَ تعتدُّ مِـنْ مصادقتي الواجب المفتـرَض ؟

ألمْ تنشَ مِنْ أدبي نفحَـةً حسبْتَ بها المسْكَ طيباً يفض ؟

وشمّرتَ للخوضِ في لُجَّةٍ هي البحرُ ساحلها لم يُخَـض

وغرّكَ من عهـدِ ولادةَ سرابٌ تراءى وبرقٌ ومَـض

هي الماءُ يأبى على قابضٍ ويمنع زبدتَهُ مِنْ مَخَـض

أبا عامرٍ عثرةً فاستقـلْ لتبرمَ مِنْ وُدّنا ما انتقـض

وإلا انتحتكَ جيوشُ العِتـا بِ مناجزةً مِنْ قضيضٍ وقض[3]

[المتقارب]

لقد استهلّ ابن زيدون هذه القصيدة بالتهديد والوعيد ، ثم لجأ إلى الاستعطاف ، حيث كان الشاعر يسعى إلى إبعاد غريمه (ابن عبدوس) عن محبوبته بأيّ وسيلة كانت ؛ فإن لم

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله : 162 .

[2] ديوان ابن زيدون : 90 .

[3] ديوان ابن زيدون : 90 – 93 .

يستطع إخافة ابن عبدوس فليثر شفقته وعطفه ، وليذكره بسالف العلاقة بينهما ، ولكنّ الوزير ابن عبدوس أصمّ أذنيه عن تهديد ابن زيدون واستعطافه ، فلم (يستقل من عثرته)، ولم يأبه بـ(جيوش العتاب) .

وهكذا أخفق ابن زيدون في استدرار عطف غريمه ، كما أخفق في استمالة قلب محبوبته التي أصرّت على هجره وإبقائه بعيداً عنها ، غارقاً في بحار أشجانه وأحزانه .

2. ابن حداد[1]

تعلّق قلب ابن حداد في صباه (بصبية نصرانية ذهبت بلبّه كلّ مذهب ، وركب إليها أصعب مركب ، وحكّمها في رأيه وهواه)[2] . ولمّا كان عدم التصريح بأسماء المعشوقات في شعر الغزل ظاهرة منتشرة[3] ، فقد كنّى ابن حداد عن محبوبته حيث (كان يسميها نويرة كما فعله الشعراء الظرفاء قديماً في الكناية عمّن أحبوه ، وتغيير اسم مَن علقوه)[4] ، وكثيراً ما صرّح في شعره أنّ محبوبته نصرانية على الرغم من أنّه مسلم ، وكان الأحرى بمحبوبته أن تقع سبيّةً في يده في وقت الحرب ، لكنّ الذي حصل كان مختلفاً تماماً ، فقد سبته هي في أوقات السلم حين تعلّق بها قلبه :

سبتني على عهدٍ منَ السّلمِ بيننا ولو أنّها حربٌ لكانتْ هي السّبيا[5]

[الطويل]

وقد جعل ابن حداد قسماً كبيراً من شعره في التغزّل بمحبوبته واستعطافها ، حيث يبدو لنا من شعره أنّها كانت بعيدةً عنه ساخطةً عليه ، أمّا الشاعر فكان يبكي حزناً على عدم وصالها ، كما كان يلتمس منها الرضى والوصال ؛ لأنّ قلبه أضحى مرهوناً بيديها :

إنّ المدامعَ والزَّفيـر قد أعلنا ما في الضّمير

فعلامَ أُخفـي ظاهـراً سقمي عليَّ به ظهير؟

---

[1] ابن حداد سبقت ترجمته صفحة 78 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 2 : 693 .

[3] نذكر هنا بيت ابن زيدون في نونيته : لسنا نسميكَ إجلالاً وتكرمةً وقدركَ المعتلى عن ذاكَ يغنينا . ينظر ديوانه : 12 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 2 : 693 .

[5] ديوان ابن حداد : 306 .

هبْ لي الرضى مِنْ ساخطٍ قلبي بساحتِهِ الأسيـــر[1]

[مجزوء الكامل]

لقد تمكّن العشق من الشاعر ؛ فأصبح دائم البكاء ، يكاد يُجنُّ من شدّة شـــوقه إلـــى محبوبته ، كما أمسى عاجزاً عن كتمان حبّه لها ، فقد حان الوقت ليذهب الشـــكّ بـــاليقين ، ويعلم الناس أنّ نويرة لا سواها هي محبوبة قلبه ، وساكنة فؤاده :

رويدَكَ أيُّها الدَّمعُ الهَتّـــون فدون عيان مَنْ أهوى عيون

يُظَنُّ بظاهري حِلمٌ وفهـــمٌ ودخلةُ باطني فيه جنـــــون

إلا كم ذا أُستِّرُ ما ألاقـــي وما أُخفيهِ مِنْ شوقي يَبيـــن

نويرةُ بي نويرةُ لا سواها ولا شكَّ فقد وضحَ اليقيـــن[2]

[الوافر]

وكون محبوبة الشاعر نصرانية ، فقد حفل شعره بذكر ما له علاقـــة بالنصـــارى ؛ كالكنائس والصلبان والرهبان والنسّاك ، فها هو يخاطب محبوبته قائلاً لها : بحـــق عيســـى – عليه السلام – أريحي قلبي ممّا يقاسيه من شدّة الشّوق وحرارة الوجد ، لقد وهبك حســـنك الحكم عليّ ، فأنت من يحييني ، وأنتِ من يميتني ، هذا الحسن أولعني بالصليب وبعبدته من رهبان ونسّاك ، وجعلني أتردد على الكنائس لا حباً بها ، وإنّما شوقاً إليكِ ، ورغبـــة فـــي رؤيتك :

عساكِ بحقِّ عيساكِ مريحةَ قلبي الشّاكي

فإنَّ الحُسْنَ قـــدْ ولاَّ كِ إحيائي وإهلاكي

وأولعني بصلبـــــانٍ ورهبانٍ ونُـــسَّـــاكِ

ولمْ آتِ الكنائسَ عن هوىً فيهـــنَّ لولاكِ[3]

[مجزوء الوافر]

ويتأوّه الشاعر من حبه غير الموفق ، هذا الحبّ الذي لا يستطيع الانفكاك منه ، ولا نسيانه ؛ لأنّه وقع في شَرَك محبوبته ؛ فأمسى واقعاً في بلوى لا فرج لـــها ، وأخـــذ يبكـــي ويبكي عساها ترثي لحاله ، وتخلّصه من عناء البُعد وألم الفراق :

---

[1] ديوان ابن حداد : 222 .

[2] ديوان ابن حداد : 264 .

[3] ديوان ابن حداد : 241 .

وها أنا منكِ في بلوى ولا فرجٌ لبلـــواكِ
ولا أسطيعُ سلوانـــاً فقد أوثقتِ أشراكي
فكمْ أبكي عليكِ دمـــاً ولا ترثينَ للباكـــي[1]

[مجزوء الوافر]

ويتساءل الشاعر : هل دريت يا نويرة ماذا فعلت عيناك بعيني ؟ ، وهل تعلمين مـــا فعل حُسنُك في قلبي ؟ إنّ عينيّ المحبوبة سيف مسلط على الشاعر يريد قتله ، أمّا حسنها فقد أذكى النار في قلبه ، وعلى الرغم من ذلك فالشاعر عاشق وسيبقى عاشقاً حتـــى النهايـــة ، سواء أعطفت عليه محبوبته فمنحته الحب الذي ينشد ، أم بقيت كارهة له ، بعيدة عنه ، لقـــد وقع الشاعر المحب ضحيّة لمحبوبته ، واستطاعت عيناها أن تقتله كما قتلت قبله الكثير :

فهلْ تدرينَ ما تقضي على عينيّ عينـــاكِ ؟
وما يذكيهِ منْ نـــارٍ بقلبي نورُكِ الذّاكي؟
نويرة إن قلـــيت فإ نّني أهواكِ أهـــواكِ
وعيناكِ المنـــبـــئّتا كِ أنّي بعضُ قتلاكِ[2]

[مجزوء الوافر]

لقد خاطب ابن حداد محبوبته ورجاها أن تصله ، وبكى وتأوّه عساها ترثي لحالـــه وتعطف عليه ، ولكنّها لم تفعل ؛ إذ لا نجد في شعره ما يدل على أنّها وصلته ، بل أصـــرّت على إبقائه بعيداً عنها يكتوي بنيران الحبّ والغرام .

3. شاعران آخران :

هذان الشاعران دون سابقيهما شهرة وأخباراً وإنتاجاً شعرياً ، الأول هو مشرف ابن راشد[3] ، وأمّا الآخر فهو علي بن أبي البشر[4] ، ويكاد هـــذان الشـــاعران يتشـــابهان فـــي معاناتهما ، فقد كان كلّ واحد منهما يحيا في غبطةٍ وطيبِ عيشٍ قريباً من حبيبه ، يتبـــادلان

---

[1] ديوان ابن حداد : 241 .

[2] ديوان ابن حداد : 242 .

[3] أبو الفضل مشرف بن راشد ؛ لم أجد لهذا الشاعر ترجمة ، لكن يتضح من الخريدة أنّه توفي في القرن الســـادس الهجري . ينظر خريدة القصر وجريدة العصر : العماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدســـوقي ، دار نهضـــة مصـــر للطباعة والنشر ، (د.ت) ، قسم 4 ، ج1 : 15 .

[4] ابن أبي البشر : هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر ، من شعراء صقلية . ينظر رايات المـــبرزين لابن سعيد الأندلسي : 150 .

المودة ، ويتساقيان الغرام حتى سخط على كلّ شاعر حبيبه ؛ فهجره وابتعد عنه ، فكان هذا الهجر سبباً في معاناة ابن راشد الذي يقول :

كُنتُ في غبْطةٍ وطيبِ عيْشٍ   لو وقاني منْ سطوة البيْنِ واقِ[1]

[الخفيف]

أمّا ابن أبي البشر فيقول أنّ بُعد حبيبه حصل بعد قربه ، وقطيعته أعقبت وصاله :

جفا بعدما كانَ لي واصلاً   وخلّف عندي ما خلّفا[2]

[المتقارب]

لقد أخذ الشاعران يستعطفان حبيبيهما عساهما يعطفان عليهما ويخلصانهما من عناء البُعد وألم الفراق ، فهذا ابن راشد يحثّ حبيبه على وصاله ، وعلى وضع حدّ للقطيعة التي أرّقت الشاعر ومنعته النوم الهنيء ، إنّ هذا الحبيب يجور في حكمه عندما يقابل حب الشاعر له ببغض ، ورضاه عليه بسخط ، وفي ذلك يقول :

أيها الغُصنُ لِنْ بعطفيكَ عطفاً   وليكن منكَ للقطيعةِ رفضُ
وأجزْ ودّي بمثله ودعْ السّـ   ـخط ، وعدْ للرضى فللختمِ فضُّ
يا شقيقَ الفؤادِ حكمُكَ جَوْرٌ   لك منّي حبٌّ ولي منكَ بغضُ
نمْ هنيئاً فما دنا من شجوني   -مُذ تناءيتَ عن جفوني- غمضُ[3]

[الخفيف]

أمّا ابن أبي البشر فقد رجا حبيبه أن يعطف عليه ، ويخلّصه من عناء فراقه ، ونرى الشاعر خلال استعطافه يسلك مسلك الشعراء العاشقين بذرف الدموع الغزيرة ، والاكتواء بنار الغرام المحرقة ، وفي ذلك يقول :

أما تعطِفنْ على خاضعٍ   لديكَ يناجيكَ مستعطِفا
إذا كتبتْ يدُهُ أحرفاً   إليكَ محا دمعُهُ أحرُفَا
ولو كنتُ املكُ غرب الدموع   منعتُ جفوني أن تذرفا

---

[1] خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي ، قسم 4 ، ج 1 : 15 .

[2] خريدة القصر وجريدة العصر : العماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، الدار التونسية للنشر ، 1966م ، ج1 : 10 .

[3] خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي ، قسم4 ، ج1 : 15 .

غراماً بإشعالِ نارِ الغـــرام وما عُذْرُ صبٍّ بكى واشتفى[1]

[المتقارب]

لقد خاطب هذان الشاعران حبيبيهما ، والتمسا منهما الرحمة والوصـــال ، وبسـبب ندرة أخبار هذينِ الشاعرين فلسنا ندري هل أثمرت أشعارهما ؛ فعاد كلّ شاعرٍ إلى وصـال حبيبه ، أم ظلّ الشاعران بعدين عن حبيبيهما يصطليان بنار الشوق ، وحرارة الوجد .

نظرات في الأشعار الاستعطافية الموجّهة إلى المحبوبة

عندما نلقي نظرة على الأشعار التي استعطف بها الشعراء محبوباتهم نلحظ أمـوراً ثلاثة :

الأول : أنّ هؤلاء الشعراء عندما خاطبوا محبوباتهم خضعـوا وتذللـوا لـهن ، وأهـدروا كرامتهم، وتخلوا عن عزّة نفوسهم ، فهذا ابن زيدون يقدّم حياته رخيصة لمحبوبتـه ؛ فقـد أمسى عبداً ذليلاً لها بعدما تعلّق قلبه بها :

سلني حياتي أهبها فلســتُ أملكُ ردّك

الدّهرُ عبدي لـمّا أصبحتُ في الحبّ عبدك[2]

[مجزوء الكامل]

لقد رأينا كيف استعطف ابن زيدون الحاكم ، وكيف كان محافظاً علـى كرامتـه ، معتدّاً بنفسه في بدايات استعطافه ، أمّا عندما استعطف محبوبته فقد اختلف أمره ؛ فقد خضع لها من البداية ، وامتلأت قصائده المرسلة إليها بكثير من عبارات الخضوع والتذلل .

وهذا ابن حداد الذي يود أن يُعلِم محبوبته أنّ الناس يخطِئون عندما يظنونه ذا حلـم وفهم ؛ لأنّه ليس كذلك ، وإنّما هو مجنون بحبها ، ظاهره يخالف باطنه :

يظنُّ بظاهري حلمٌ وفهمٌ ودخلةُ باطني فيهِ جنونُ[3]

[الوافر]

أمّا ابن أبي البشر فقد خاطب محبوبته مخاطبة الخاضع الذليل عساها تعطف عليه ، وتعود إليه :

---

[1] خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، ج1 : 10 .

[2] ديوان ابن زيدون : 55 .

[3] ديوان ابن حداد : 264 .

أما تعطفن على خاضعٍ لديكَ يناجيكَ مستعطِفا[1]

[المتقارب]

والثاني : فهو أنّ جلّ الشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم – إن لم نقل كلّهم – أخفقوا في تحقيق هدفهم ، فلم تُغنِ عنهم أشعارهم شيئاً ؛ فابن زيدون خاطب محبوبته الشاعرة بالقصائد العديدة التي فجّر فيها عواطفه ، ولكن دون جدوى ، وابن حداد لا نجد في شعره ما يدل على أنّ محبوبته قد وصلته ، وحققت له هدفه الذي كان ينشد ، أمّا الشاعران الآخران فندرةُ أخبارهما تمنعنا من معرفة المصير الذي آلا إليه .

أمّا الثالث : فهو أنّ الشعراء الذين استعطفوا الحكّام التمسوا منهم العطف والصفح ، فقد كان أولئك الشعراء مسجونين ، أو مبعدين ، أو مهددين بعقوبة أشدّ ، أمّا الشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم فلم يكونوا كذلك ، وإنّما كانوا يكتوون بنيران الحب والغرام ؛ لذا كان استعطافهم بطريقةٍ أخرى ، فقد حاول هؤلاء الشعراء إثارة عطف محبوباتهم واستمالة قلوبهنّ بأساليب شتّى ؛ فتارة تغزّلوا بهنّ وعبّروا عن حبّهم الشديد لهنّ حتى تقابلهم محبوباتهم بحب مماثل ، وتارة أخرى وصفوا سوء حالهم وضنك عيشهم وبكاءهم المتواصل وحسرتهم الدائمة ، وتارة ثالثة وازنوا بين أيام الوصال حيث السعادة والنعيم ، وأيام القطيعة حيث التعاسة والشقاء ، كلّ ذلك من أجل استمالة قلوب محبوباتهم واستدرار عطفهنّ .

---

[1] خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، ج1 : 10 .

ثالثاً : استعطاف الوالد:

كان لاستعطاف الوالد الواجد على ابنه نصيب قليل من الأشعار الاستعطافية ، ولم أجد فيما قرأت شعراً يمكن وضعه تحت هذا العنوان إلاّ قصائد لآل عبّاد ، حيث استعطف المعتمد – حين كان ولياً للعهد – أباه المعتضد ، ثم لمّا آلت مقاليد الحكم إليه وقف بعضُ أبنائه أمامه معتذرين ومستعطفين ، ويجدر بنا أن نتحدّث عن استعطاف المعتمد والده في قسم ، ثم نتحدّث عن استعطاف ابنيّ المعتمد والدهم في قسمٍ آخر .

1. المعتمد يستعطف أباه[1]

كان المعتضد من أقوى ملوك الطوائف ، وقد عُرِف ببأسه وشدّة مراسه وقساوة قلبه، فقد قتل أعداءه ، وعلّق رؤوسهم على غصون الشجر في بستانه[2] ، بل أنّه لم يتورّع عن قتل ابنه إسماعيل حين علم بخيانته له ، وتآمره عليه[3] .

عندما كلّف هذا الملك الجبار ابنه المعتمد بمحاربة أمير مالقة[4] باديس بن حبوس لم يجد الابن مناصاً من الطاعة ؛ فرحل المعتمد مع أخيه جابر يقودان جيشاً عظيماً ، وتمكنا من إخضاع مالقة إلاّ فلولاً من العبيد لاذوا بقلعة المدينة ؛ فأشار أهل مالقة على المعتمد بالاحتراس منهم ، والبقاء على أهبّة الاستعداد والحذر ، ولكنّ المعتمد استخفّ بهؤلاء العبيد، ولم يأبه بنصيحة الناصحين ، وقضى ليلته تلك في اللهو والمجون ، بينما قضى العبيد ليلتهم يستنجدون بابن باديس حتى أنجدهم بجيشٍ زاخر ، وفتك جيشه بجيش المعتمد ، وانتهب عتاده وسلاحه ، وفرّ المعتمد وأخوه مهزومين يجرّانِ ذيول الخزي والعار .

أقام المعتمد وأخوه في رُندة[5] ، وكانا في أسوأ حال ، يقضيانِ وقتيهما في همٍّ وقلق، وبخاصة بعدما أشيع أنّ والدهما قد أهدر دمهما ، وأعدّ لمقابلتهما سيفاً بتّاراً ؛ فأخذ المعتمد

---

[1] المعتمد بن عباد سبقت ترجمته صفحة 50 .

[2] أشار ابن عمار إلى ذلك في قصيدة مدح بها المعتضد ، يقول:

أثمرتْ رمحك من رؤوس كماتهم   لمّا رأيت الغصن يعشق مثمراً . ينظر قلائد العقيان لابن خاقان : 975 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 1 : 143 – 149 .

[4] مالقة : مدينة أندلسية ساحلية ، تقع بين المرية والجزيرة الخضراء ، كانت مقصد المراكب التجارية والتجار ؛ فزادت ثروتها ، وتضاعفت عمارتها . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 5 : 43 .

[5] رُندة : معقل حصين بالأندلس ، وهي مدينة قديمة تقع على نهرٍ جارٍ بين إشبيلية ومالقة ، كثيرة الزروع والخيرات. ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 3 : 73 .

يفكّر في كيفية الخلاص ؛ فخطر على باله أن يكتب إلى أبيه قصيدة يعتذر إليه ، عساه يقبل عذره ويعطف عليه وعلى أخيه ، وفعلاً كتب المعتمد قصيدة افتتحها بدعوة أبيه إلى التصبّر وتسكين القلب ، وتنحّيه الهمّ والقلق جانباً ؛ لأنّ القدر لا يُردّ ، وكأنّه بذلك يلفت نظر أبيه إلى أنّ الهزيمة التي لحقت به كانت قدراً واقعاً لا مردّ له ، والقدر قد يأتي بما يسرّ ، وقد يأتي بما يُسيء ، وأنّه إن كان قد مُنيَ بخيبةٍ واحدة ، ولحقت به هزيمة ، فلطالما وافقه الصواب وحالفه النصر والظفر ، يقول :

سكّنْ فؤادَكَ لا تذهبْ بكَ الفِكَـرُ ماذا يعيدُ عليكَ الهمّ والحـذرُ

وازجر جفونك لا ترضى البكاءَ لها واصبرْ فقد كنتَ عندَ الخطبِ تصطبرُ

فإنْ يكنْ قدرٌ قد عاقَ مِنْ وطـرٍ فلا مردَّ لما يأتـي بـه القـدرُ

وإنْ تكنْ خيبةٌ في الدّهـرِ واحدةٌ فكمْ غزوت ومن أشياعكَ الظّفـرُ[1]

[البسيط]

وينتقل المعتمد لمدح والده ؛ فيصوره مقاتلاً شجاعاً يقاتل الأعداء كالليث الباسل ، وكان المعتمد يقاتل مع ذلك الليث وكأنّه مخلبٌ له أو ناب ، قوّته قوّة لذاك الليث ، وضعفه ضعف له ، لقد أحرزت جيوش المعتضد تحت قيادته انتصارات مؤزّرة ، انتشرت أخبارها في الآفاق ، ولسوف تبقى أخبار تلك الانتصارات خالدة لا تفنى مع مرور الأيام ، وتعاقب الليالي ، يقول :

يا ضيغماً[2] يقتل الأقرانَ مفترسـاً لا توهنني ، فإنّي النّابُ و الظّفُرُ

كم وقعة لكَ في الأعداءِ واضحـةً تفنى الليالي ولا تفنى بها الخَبَرُ

سارت بها العيسُ في الآفاقِ فانتشرت فليسَ في كلِّ حيٍّ غيرها سمرُ[3]

[البسيط]

لقد كانت تلك الهزيمة التي لحقت بالمعتمد مصيبة عظيمة أرّقته ، وزاد من أرقه وقلقه خوفه من عقاب والده ، ويحاول المعتمد أن يستثير عاطفة والده عندما يصف سوء

---

[1] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 56 . والبيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب : ابن عذارى المراكشي ، تحقيق ج – س – كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة – بيروت ، ط2 ، 1983م ، ج3 : 275 .

[2] الضّيغم : الأسد الواسع الشّدق . ينظر المخصّص لابن سيده ، سفر 8 ، مجلد 2 : 62 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 57 .

حاله وضنك عيشه بعدما حلّت به تلك المصيبة ، ثم يدعو والده إلى العفو عنه حتى ينعتـــق من سوء الحال وصعوبة المآل ، يقول :

لقد أخلفتْني ظنونٌ أنتَ تعلمهـــا	وغالَ موردُ آمالي بهـــا كـــدرُ
فالنّفسُ جازعةٌ والعينُ دامعـــةٌ	والصوتُ منخفضٌ والطرفُ منكسِرُ
قد حلت لوناً وما بالجسمِ من سَقَمٍ	وشبت رأساً ولمْ يبلغني الكِبـــرُ
ومت إلا ذماءً فـــيَّ يُمسكـــه	إنّي عهدتُكَ تعفو حينَ تقتـــدرُ[1]

[البسيط]

ويعتذر المعتمد عن الذنب الذي ارتكبه والذي لم يكن إساءة مقصودة ؛ لذا فـــهو لا يستحقّ عقاباً على ذنبه هذا ؛ لأنّ الذين يستحقون العقاب هم أعداء والده الذين يكنّـــون لـــه البغض والحقد ، ولا يتورعون عن غشّه وخديعته :

لمْ يأتِ عبدُكَ ذنباً يستحـــقّ به	عتبى ، وها هو قد ناداكَ يعتـــذرُ
مـــا الذنْبُ إلاّ على قومٍ ذوي دغلٍ[2]	وفَى لهم عدلكَ المألوف إذ غدروا
قومٌ نصيحتهم غشٌ ، وحبّهـــمُ	بغضٌ ، ونفعهمُ إن صَدَّقوا ضـــررُ
يميزُ البغضُ في الألفاظِ إنْ نطقوا	ويُعرَفُ الحقدُ في الألحاظِ إن نظروا[3]

[البسيط]

ويختم المعتمد قصيدته بالتماس الرضى من والده ، والشاعر إن نال هـــذا الرضـــى فسوف يطيب عيشه ، وينسى همومه وأحزانه ، ويتخلّص من أرقه وقلقه ، أمّا إن أخفق فـــي إرضاء والده فسوف تبقى حياته مسوّدة في وجهه ، وسيكون موته أحب إليه مـــن حياتـــه ، وفي ذلك يقول :

أجبْ نداء أخي قلـــب تملكـــه	أسىً ، وذي مُقلةٍ أوهى بها سهرُ
رضاكَ راحة نفسي لا فُجعتُ به	فهو العتادُ الذي للدّهرِ أدّخـــرُ
وهو المُدامُ الذي أسلو بها فإذا	عدمتها عبثتْ في قلبيَ الفِكَـــرُ

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 57 . والبيـــان المُغـــرب لابـــن عذارى ، ج3 : 275 .

[2] دغل : عيب وفساد . ينظر المعجم الوسيط ، ج1 : 288 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 57 .

وإنّما أنا ساعٍ في رضاكَ فـإنْ أخفقتُ فيه ، فلا يفسحْ ليَ العمرُ[1]

[البسيط]

وعندما انتهى المعتمد من كتابة قصيدته أرسل بها إلى والده ، وبقي أيامـاً خائفـاً يترقب (فلمّا بلغت الأبيات والده عفا عنهما ، واستدعاهما إلى حضرته ، وأيس مـن ملـك مالقة)[2] ، وحين علم المعتمد وأخوه جابر بعفو أبيهما عنهما طارا فرحاً وأخذا يسـتقبلان الحياة من جديد .

2. ابنا المعتمد يستعطفان والدهما :

كان الراضي بن المعتمد من أهل العلم والأدب ، كلفاً بالمطالعة والدراسة ، منشـغلاً بتحصيل العلوم ، غير آبهٍ بالتربية العسكرية التي كان ينبغي أن ينشـأ عليـها الأمـراء ؛ فغضب منه والده ، وكتب إليه هازئاً :

المُلكُ في طيِّ الدّفاتـر فتخلَّ عن قودِ العساكـر

طُفْ بالسريرِ مسلِّمـاً وارجع لتوديع المنابـر

واطعنْ بأطراف اليـرا عِ نُصِرْتَ في ثغرِ المحابـر

واضربْ بسكّينِ الـدوا ةِ مكانَ ماضي الحـدِّ باتـر

أو لستَ أرسطاليس[3] إن ذُكِرَ الفلاسفـةُ الأكابـر

وكذاكَ إنْ ذُكِرَ الخليلُ[4] فأنتَ نحـويٌّ وشاعـر

---

[1] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 58 .

[2] البيان المُغرِب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى ، ج3 : 275 .

[3] أرسطوطاليس : فيلسوف يوناني شهير ، ولد عام 384 ق . م ، تتلمذ على أفلاطون ، وعلّم الاسـكندر الأكـبر ، وكان له أثر كبير في الفلاسفة الإسلاميينَ الذين لقّبوه بـ(المعلم الأول) ، توفي عام 322 ق . م . ينظر الموسـوعة العربية الميسرة ، مجلد 1 : 117 .

[4] الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ، ولد بالبصرة عام 100هـ ، وكان إماماً في علم النحو ، ومن أئمـة اللغة والأدب ، وهو واضع علم العروض ، مصنِّف كتاب العين ، وتوفي عام 170هـ. ينظر وفيات الأعيـان لابـن خلكان ، ج2 : 244 – 248 .

وأبو حنيفة[1] ساقــــطٌ　　في الرّأيِ حينَ تَكون حاضر
هذي المكارمُ قد حويـ　　تَ فكنْ لمنْ حاباكَ شاكـر
واقصدْ فإنّكَ طاعـــمٌ　　كاسٍ وقلْ : هل من مفاخر[2]

[مجزوء الكامل]

وعندما بلغت هذه القصيدة الراضي أدرك خطأه حين جعل تحصيله للعلوم يتم علـى حساب الاهتمام بأمور الدولة ، وقيادة جيوشها ، وعزّ عليه إغضاب والـده ؛ فكتـب إليـه قصيدة يتنصل فيها من كثير ممّا رماه به أبوه ، وممّا جاء في هذه القصيدة قوله :

مولايَ قدْ أصبحتُ كافـر　　بجميع ما تحوي الدّفاتر
وفللتُ سكيـــنَ الــدوا　　ةِ وظللتُ للأقلامِ كاسـر
وعلمتُ أنّ المُلكَ مـــا　　بين الأسنّةِ والبـــواتر
والمجدُ و العلياء فـــي　　ضربِ العساكرِ بالعساكر
لا ضربَ أقوالٍ باقـــ　　والِ ضعيفاتٍ مناكـــر
قد كنتُ أحسب من سفا　　هٍ أنّها أصل المفاخـــر
فإذا بهـا فــــرْعٌ لهـا　　والجهلُ للإنسانِ عــاذر
لا يدركُ الشّرفَ الفتـى　　إلاّ بعسّالٍ وباتــــــر[3]

[مجزوء الكامل]

ولا ينسى الراضي أن يُذكِّر أباه بماضيه عندما قاتل الأعداء ببسالة وانتصر عليهم ، ومنعهم من الاستيلاء على أجزاء من مملكة أبيه ، وفي ذلك يقول :

لا تنسَ يا مولايَ قو　　لةَ ضارعٍ لا قولَ فاخر
ضبطَ الجزيرةَ عندما　　نزلت بعقوتها العساكر
أيامَ ظلتُ بها فريـ　　داً ليس غير اللهِ ناصر

---

[1] أبو حنيفة النعمان : النعمان بن ثابت الكوفي التميميّ بالولاء ، ولد عام 80هـ بالكوفة ، إمـام الحنفيـة ، وأحـد الأئمة الأربعة ، كان عالماً عاملاً زاهداً عابداً ، أراد المنصور أن يوليه القضاء فأبى ؛ فحبسه ، وقيـل توفـي فـي الحبس عام 150هـ . ينظر تاريخ بغداد للحافظ بن علي الخطيب البغدادي ، المكتبة السـلفية – المدينـة المنـورة ، (د.ت) ، ج13 : 323 – 454 . ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ج5 : 405 – 415 .

[2] الحلة السيراء لابن الأبار ، ج2 : 75 .

[3] نفح الطيب للمقري ، ج4 : 254 .

إذ كانَ يعشي ناظري   لمعُ الأسنّةِ والبواتــر
ويصمّ أسماعي بها   قرعُ الحجارة بالحوافر[1]

[مجزوء الكامل]

ويختم الراضي قصيدته ملتمساً الرضى من أبيه ، داعياً إيّاه إلى وضعِ حــدٍّ للومــه وعتابه حين يقول :

هبني أسأتُ – كما أسأ   تَ – أما لهذا العتب آخِر
هبْ زلّتي لبنوّتـــــي   واغفر فإنّ اللهَ غافــــر[2]

[مجزوء الكامل]

كان الراضي شاعر بني عبّاد بعد أبيه (وجلّ شعره في استعطاف أبيـــه المعتمـد لطول موجدته عليه ، والاعتذار في كلّ حين إليه)[3] ، كتب له يوماً يخاطبه (وقد أنـــهض جماعة من أخوته دونه ، وبعث بها مع بعض بنيه)[4] :

أعيذكَ إن يكونُ بنا خمـــولُ   ويطلعُ غيرنا ، ولنا أفـــولُ
حنانكَ ، إنْ يكنْ جُرمي قبيحاً   فإنّ الصفحَ عن جُرمي جميلُ
وإن عثرتْ بنا قَدَمٌ سفاهـــا   فإنّي من عثاري مستقيـــلُ
وأحسنُ ما سمعتُ به عزيزٌ   يناديهِ فيرحمــــه ذليـــلُ
وأنتَ الملك تعفو عن كثيــرٍ   فما لك ظِلْتَ يغضبُكَ القليلُ؟[5]

[الوافر]

ويذكر الراضي ابنه الصغير الذي حمل رسالته ، كما يتوسّل بأبنائه لينـــال رضـــى والده ، ويستدرّ عطفه ، إذ يقول :

بعثتُ برقعتي هذي رسولاً   صغير السنّ ليسَ له حويلُ
لترحمه وأفراخاً إذا مـــا   عتبتَ عليَّ عادَ لهم عويلُ

---

[1] نفح الطيب للمقري ، ج4 : 254 .
[2] نفح الطيب للمقري ، ج4 : 254 .
[3] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 73 .
[4] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 71 .
[5] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 72 .

بقيتَ لهم على عتبٍ وعتبى فإنّ حياتكَ الظلُّ الظّليـــــلُ[1]

[الوافر]

أمّا الرشيد بن المعتمد فقد (عتب عليه أبوه في طريقه من مكناسة[2] إلـــى أغمـــات عتباً أفرط فيه ؛ فكتب إليه يستعطفه)[3] :

يا حليفَ النَّدى وربَّ السماحِ وحبيبَ النّفــوسِ و الأرواحِ
مِنْ تمامِ النُّعمى عليَّ التماحي لمحةً مِنْ جبينكَ الوضّـــاحِ
قد غنينا ببشرهِ وسنــــــاه عن ضياءِ الصّباحِ والمصباحِ
ذاكَ حظّي مِنَ الزّمانِ فإنْ جا دَ بهِ لي بلغْت كلَّ اقتراحـــي[4]

[الخفيف]

ولمّا وصلت الأبيات إلى أبيه ، وكان في أغمات أسيراً ردّ عليه بأبيات يتحسّر فيـــها على ماضيه عندما كان في ذرى مجده وعنفوان عزّه ، يقول فيها :

كنتُ حلفَ النّدى وربَّ السّمـــاحِ وحبيـــبَ النّفـــوسِ والأرواحِ
إذ يميني للبذلِ يومَ العطايــــــا ولقبضِ الأرواحِ يومَ الكفـــاحِ
وشمالي لقبضِ كــــلِّ عنـــــانٍ يُقحِمِ الخيلَ في مجالِ الرّماحِ
وأنا اليومَ رهنُ أسرٍ وفقـــــرٍ مستباحِ الحمى مهيضَ الجناحِ
لا أجيبُ الصّريخَ إن حضرَ البا سُ ولا المعتفينَ يومَ السّماحِ
عادَ بشري الذي عهدتَ عبوساً شغلتني الأشجانُ عن أفراحي
فالتماحي إلى العيونِ كريــــــةٌ ولقد كانَ نزهـــــةَ اللمّـــاحِ[5]

[الخفيف]

لقد ردّ المعتمد على ابنه ردّاً نستشفّ منه أنّ النكبة التي تعرّض لها كانت سبباً في تضييـــق خُلقه ؛ فجعلته يعتب على ابنه دون أن يرتكب ذنباً ذا بال ، وعلى الرغم مـــن ذلـــك فقـــد

---

[1] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 72 .

[2] مكناسة : مدينة بالمغرب ، وهي مدينتان صغيرتان على مرتفع ، بنى إحداهما يوسف بن تاشفين ، والأخرى قديمة تكثر فيها أشجار الزيتون . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، ج5 : 181 .

[3] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 69 .

[4] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 70 .

[5] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 70 .

استسمحه الرشيد كما فعل أخوه الراضي من قبل أكثر من مرّة ، وكان والدهما قد سبقهما عندما استعطف أباه المعتضد .

نظرات في الأشعار الاستعطافية الموجهة إلى الوالد

نستطيع القول : إنّ هذه الأشعار هي أكثر الأشعار الاستعطافية توفيقاً ؛ فعاطفة الأبوّة تفرض على الأب أن يتجاوز عن سيئات ابنه إن بدر عن الابن أيّ اعتذار أو استعطاف ؛ فالمعتضد عفا عن ابنيْه المعتمد وجابر بفضل القصيدة التي أرسلها إليه المعتمد، وكما مرّ بنا فقد كان المعتضد قاسي القلب شديد البأس ، حيث قتل ابنه إسماعيل حين علم بخيانته له وتآمره عليه ، ولم أعثر على اعتذار أو استعطاف لهذا الابن قبل مقتله ، أمّا المعتمد فيبدو أنّه قد عاملَ ابنيْه كما عامله أبوه من قبل ، فردُّه على الرشيد يدلّ على أنّ قلبه كان يخلو من أيّ غضب عليه ، أمّا ابنه الراضي فأغلب الظنّ أنّه كان يقبل عذره ويعطف عليه في كلّ مرّة يستعطِفه فيها ، ذلك أنّه لم يرتكب أياً من عظائم الذّنوب التي تجعل العطف صعباً والعفو عسيراً .

بعد الاطلاع على الأشعار الاستعطافية المختلفة نلحظ الأمور الآتية :

أولاً : انتهج الشعراء المستعطِفون أساليب مختلفة أثناء استعطافهم ، وتتمثّل هذه الأساليب في طرائق ثلاث هي :

أ – **مخاطبة المستعطَف** : حيث خاطب الشاعر مَنْ يستعطفه ، والتمس منه العطف تصريحاً، وكانت هذه الطريقة هي الأكثر شيوعاً في شعر الاستعطاف ، فقد رأينا أنّ معظم الشعراء الذين استعطفوا الحكّام قد لجأوا إلى هذه الطريقة ، أمّا الشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم أو الأبناء الذين استعطفوا آباءهم فلم ينتهجوا طريقة غيرها أثناء استعطافهم .

ب – **مخاطبة وسيط** : حيث كان الشاعر يخاطب وسيطاً علّه يتوسّط له ويتشفّع فيه ، وكان الشاعر يلجأ إلى هذه الطريقة بعد أن يفشل في الطريقة الأولى ، ولكن نستطيع القول : إنّ هذه الطريقة قد باءت بالفشل ؛ إذ أنّنا لا نجد إلاّ شاعراً واحداً أفلح وسيطه بالتشفّع فيه ، أمّا بقيّة الشعراء الذين خاطبوا الوسطاء فلم يحصل أيٌّ منهم على العفو بفضل شفاعة وسيطه ، بل إنّنا لم نجد ما يدلّ على أنّ هذا الوسيط حاول التشفّع للشاعر الذي طلب شفاعته .

ج – **التلميح** : ولم يستخدم هذه الطريقة إلاّ المعتمد الذي أبت عليه كرامتـه وعـزّة نفسـه استعطاف ابن تاشفين تصريحاً ؛ فلجأ إلى ذلك تلميحاً ؛ فاسترحم القيد ، ووازن بين ما كـان عليه وما آل إليه ، وذكر أبناءه وبناته وشقاءهم بعد سعادة ، وذلّهم بعد عـزّ ، واسـتطاع المعتمد إثارة عاطفة كلّ من يطّلع على أشعاره إلاّ أنّه فشل في إثارة عاطفة ابن تاشـفين ، ولعل جهل ابن تاشفين البربريّ باللغة العربية كان سبباً في ذلك .

ثانياً : لا نجد أيّاً من الشعراء السابقين قد وقف أمام مستعطفه وأنشده أشعاره الاسـتعطافية، وإنّما كان ينظم هذه الأشعار ويرسلها إليه ، وغالباً ما كانت تُرسل هذه الأشعار مكتوبـة ، وكما نعلم فالشعر يكون أكثر تأثيراً في النَّفْس عندما يُسمع وبخاصة مـن لسـان الشـاعر المنكوب، أمّا القصيدة المكتوبة فقد تقرأ جميعها أو جزء منها ، أو قد لا يجد من أُرسلت إليه رغبة في قراءتها ، أو وقتاً لذلك هذا إن وصلت تلك القصيدة إليه .

ثالثاً : اقترن شعر الاستعطاف – في الأعمّ الأغلب – بالتذلّل وإهراق ماء الوجه ، ويتفاوت هذا التذلّل بين شاعر وآخر ؛ فالشعراء الذين استعطفوا الحكام تخلّوا عـن عـزّة نفوسـهم وأهدروا كرامتهم ، وإن بدا بعضهم في بدايات استعطافه متماسكاً ومعتـدّاً بنفسـه ، إلاّ أنّ طول المعاناة كسرت من حدّتهم ، وجعلت عبارات التذلّل والهوان تتسرّب إلـى أشـعاره ، ويشذّ عن ذلك المعتمد بن عبّاد الذي استعطف تلميحاً دون أن يتخلّى عن كرامته أو يـهدر ماء وجهه ، وعندما لم يحقق هدفه كفّ عن الاستعطاف ، وآثر السجن وآلامه على الوقوف أمام سجّانه موقف الخاضع الذليل الذي يستجدي العطف ، ويلتمس الرحمة .

أمّا الشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم فقد تذللوا لهنّ جميعاً ، وأفرطوا في ذلـك ، على عكس الأبناء الذين استعطفوا آباءهم ، فكان استعطافهم يخلو من الإفراط فـي التذلّـل والهوان ، وكأنّهم كانوا على ثقة من عفو آبائهم عنهم علماً أنّ التذلّل للوالدين لا يُنقِص مـن قدر الابن بل أنّه من الأمور المستحبّة التي حثّ عليها الإسلام ، بقوله تعالى : { واخفـض لهما جناح الذُّلِّ من الرحمة ، وقل ربِّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا }[1].

رابعاً : نلاحظ أنّ استعطاف الوالد كان أكثر ضروب الاستعطاف توفيقاً ، أمّـا أكثرهـا إخفاقاً فكان استعطاف المحبوبة ، إذ أنّ جميع الشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم فشلوا فـي

---

[1] سورة الإسراء : آية 24 .

تحقيق ما كانوا يصبون إليه ، وذهبت جهودهم هباءً منثوراً ، أمّا الشعراء الذين اســـتعطفوا الحكام فمنهم مَنْ أفلح في تحقيق مأربه ؛ فنال العفو والصفح بفضل أشعاره الاستعطافية .

الفصل الثالث

الأغراض الشعرية المرتبطة بالاستعطاف

في عصر ملوك الطوائف

الفصل الثالث

الأغراض الشعرية المرتبطة بالاستعطاف في عصر ملوك الطوائف

عدّ الاستعطاف غرضاً من أغراض الشعر العربي[1]، وكان الغرض الرئيس في القصائد والمقطوعات الشعرية الاستعطافية ، وكان الشاعر المستعطف يتناول إلى جانب الاستعطاف غرضاً شعرياً أو أكثر لتكون أغراضاً ثانوية تساعده في تحقيق هدفه المتمثل في كسب عطف مَنْ يستعطفه ، واستمالة قلبه ، ونكاد لا نجد قصيدة أو مقطوعة شعرية واحدة في عصر ملوك الطوائف اقتصرت على موضوع الاستعطاف ، إذ إنّ الشـــعراء المستعطفين كانوا يمزجون استعطافهم بأغراض شعرية شتى ، أهمها :

أ – المديح :

كان المديح أكثر الأغراض الشعرية ملازمة للاستعطاف ، حتى أنّ بعضاً مـــن دارسي الأدب ألحقوا الاستعطاف بالمديح[2]؛ ذلك لأنّهم لاحظـــوا أنّ معظـــم الأشـــعار الاستعطافية – خاصة تلك الموجهة للحاكم – قد احتوت مدحاً لذلك الحاكم وثناءً عليـــه ، وكان الشاعر المستعطف لا يقصد المديح لذاته ، بل يتخذه وسيلة للاستعطاف ، فكـــانت مدائحه تفتقر لنبرة الإخلاص والصدق الوجداني ، وتجلت فيـــها نغمـــات الاســـتعطاف والاستشفاع ، ولم يكتفِ الشاعر المستعطف في هـــذا العصـــر بمـــدح مـــن يســـتعطفه والإشادة به، بل تعداه إلى أقاربه ، يمدحهم ويشيد بهم ، ويثني عليهم ؛ فهذا ابن زيـــدون يشيد بآل جهور عامة في معرض استعطافه أبا حزم بن جهور ، ويثني علـــى كبـــيرهم وصغيرهم ، فالكبار منهم ذوو قرائح مجربة يغشون عظائم الأمور بحكمة ورأي سديد ، أمّا صغارهم فذوو مروءة ونخوة يغيثون المستغيث بسماحة دونما تردد أو إبطاء :

يَغشى التّجاربَ كَهلهم مُستغنياً ... بقريحةٍ هي حسبه تجريبا

وإذا دعوتَ وليدهم لعظيمـــةٍ ... لباكَ رقراق السّماح أديبا[3]

[الكامل]

---

[1] الجامع في تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري : 801 .

[2] نهاية الأرب للنويري ، السفر الثالث : 258 .

[3] ديوان ابن زيدون : 132 .

وفي قصيدة أخرى يشيد بآل جهور الذين يتقدمون على غـيرهم تقـدّم الليـالي البيضاء المقمرة على سائر الليالي ؛ لأنّهم ملوك الأرض العظام ، دونهم كـلّ الملـوك الجبابرة الذين يلوون أعناقهم على الناس تكبّراً واختيالاً :

لولاَ بنو جَهـــور ما أشرقتَ هِمَمي   كَمِثْلِ بيضِ الليالي دونها الدّرَعُ

هُمُ الملوكُ ملوكُ الأرضِ دونِهـــمُ   غِيدُ السوالفِ في أجيادِها تلَـعُ

قَوْمٌ متى تحتفلْ في وصفِ سُؤددِهم   لا يأخُذِ الوصفُ إلاّ بعضَ ما يَدَعُ[1]

[البسيط]

أمّا ابن عمارُ الذي خاطب أبناء المعتمد مستشفعاً بهم ، مستعطفاً إياهم ، فقد أشاد بأبيهم المعتمد ، ومدحه بأجلّ الصفات وأعظمها ، فالمعتمد – كما وصفه الشاعر – ملـك عظيم يتعالى على غيره من ملوك الأرض ، بل أنّ أولئك الملوك الجبابرة لا يستطيعون المثول بين يديه ، إلاّ بعدما يضعون جباههم له ، ويرفعون أياديهم إليه :

فأبوك من تغشى الملوك بساطه   شوساً فما يرمونه بعيونِ

ما يعرض الجبّار منه لحاجــةٍ   إلاّ برفع يدٍ و وضع جبينِ[2]

[الكامل]

ويمدح ابن عمار آل عبّاد عامة ، ويخصّ بمدحه الرشيد بـن المعتمـد ، فبنـو عبّاد سادة كرام أباة ، أمّا الرشيد فهو فيهم متقدّم تقدّم ليلة القدر على الليـالي الأُخَـر ، متفوّق عليهم تفوّق يوم العيد على سائر الأيام :

أنت ريحانة العُلا لبني عبــا ...... دِ السادة الكرام الصيـدِ

أنت فيهم إن يُعتموا ليلة القدر   وإذ يصبحون يوم العيدِ[3]

[الخفيف]

ونجد المعتمد يستعطف والده المعتضد حتى يستأصل غضبه عليه بعدما هُزم في إحدى معاركه هزيمة نكراء ، ونراه يسبق استعطافه بمدحٍ لوالده ، وإشادةً بقومه عامة ، وبأبيه عبّاد خاصة ، فقد كان عبّاد ذا مجد ورفعة ، ، كريماً جـواداً يـهب الأعطيـات الجزيلة ويحتقرها ، وكان يجمع إلى جانب كرمه شجاعة تجعل عظماء الملوك يقبّلـون يده احتراماً له وتعظيماً :

مَنْ مثل قومك ؟ مَنْ مثل الهمام أبي   عمرٍو – أبيكَ – له مجدٌ ومفتخرُ

---

(1) ديوان ابن زيدون : 171 – 172 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 425 .

(3) الذخيرة لابن بسام، قسم2، مجلد1: 427 . وفي البيتين خلل عروضي لكنهما وردا هكذا في المصدر .

سميــدع يَهــبُ الآلاف مُبْتَدئـــاً ويَستَقِلُّ عَطايـــاه و يَحْتَقِـــرُ
له يــدٌ كُـــلُّ جبّـــارٍ يقبّلـــها لولا نَداه لقلنا إنّــهــا الحَــجَــرُ[1]

[البسيط]

والشعراء المستعطفون عندما مدحوا من يستعطفون تناولوا معـــانيَ لـــم تكـــن مبتكرة، فقد سبقهم إليها شعراء سابقون ، فقد **أعـــرب بعـــض الشـــعراء عـــن حبّـــهم لمستعطفيهم** أو لمن طلبوا شفاعتهم ؛ فهذا ابن عمار يعتبر المحبة التي يكنّـــها للمعتمـــد والتي ستبقى في قلبه حتى مماته تميمة ستبعد عنه الموت :

وبَيْنَ ضُلوعِي في هواهُ تَميمةٌ ستَنْفع لو أنّ الحِمام يُجلّــح
ويُهنيه إنْ مُتُّ السّلو فإنّنـــي أموتُ وبي شَوقٌ إليه مُبرّح[2]

[الطويل]

أمّا ابن زيدون فلم يعبر عن حبه لسجانه أبي الحزم بن جهور أثناء مدحه إيـــاه ، لكنّه تحدّث عن المودة التي يكنّها لصديقه وشفيعه أبي حفص بن برد ، لقد كـــانت تلـــك المودة ثابتة راسخة في قلب الشاعر ، فلا أحد يستطيع الانتقاص منها أو التشكيك فيها :

ووِدادي لَكَ نَصٌّ لمْ يخالفْهُ قِياسُ[3]

[مجزوء الرمل]

ويذكّر الشعراء مَنْ يستعطفونهم بالماضي حين كانت علاقاتهما طيبة لا تشـــوبها شائبة ، ويذكرونهم بسالف الخدمات التي قدموها إليهم ، فهذا ابن زيـــدون يشـــير إلـــى قصائده المتتالية التي نظمها في مدح أبي الحزم بن جهور :

أأنقض فيك المدح من بعد قوة فلا أقتدي إلاّ بناقضة الغزل[4]

[الطويل]

والأمر ذاته نجده عند ابن عمار الذي يذكّر المعتمد بالخدمات الجليلة التي قدّمـــها له ولدولته ، تلك الخدمات التي ينبغي أن تجعل المعتمد يستصغر ذنب الشاعر أمامها :

ولِمْ لا ؟ وقدْ أَسلفتُ وُدّاً وخِدْمَةً يَكِرّانِ في لَيْلِ الخَطَايا فَيُصْبِح؟[5]

[الطويل]

---

[1] قلائد العقيان :لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 154 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 421 .

[3] ديوان ابن زيدون : 82 .

[4] ديوان ابن زيدون : 162 .

[5] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 153 .

أمّا الراضي فقد لفت نظر والده إلى شجاعته وبسالته عندما قاتل الأعداء وانتصر عليهم ، ومنعهم من الاستيلاء على أجزاء من مملكة أبيه :

لا تنسَ يا مولاي قو . . . . لةَ ضارعٍ لا قول فاخر

ضَبَطَ الجزيرةَ عندما نَزلتْ بعقوتِها العَسَاكر

أيامَ ظلتُ بها فريــ داً ليسَ غير اللهِ ناصر[1]

[مجزوء الكامل]

وأشاد الشعراء بتقوى ممدوحيهم حينما استعطفوهم ، وتحدثوا عن ورعهم وطاعتهم الله ، فقد تحدّث ابن زيدون عن تقوى أبي حزم ، ذلك الملك الأواب المنيب الذي يثيب في حق الله ، ويعاقب فيه أيضاً :

مَلِكٌ أطاعَ اللهَ منه موفــقٌ ما زال أوّاباً إليه مُنِيبـا

يأتي رِضاه معادياً و موالياً ويكونُ فيه معاقباً ومُثِيبا[2]

[الكامل]

وقد جمع أبو الحزم إلى جانب تقواه مروءة أهّلته لأن يكون من ذوي السيادة والفضل :

نَهوضٌ بأعباءِ المَروءةِ والتُّقَى سَحُوبٌ لأذيالِ السّيادةِ والفَضْلِ[3]

[الطويل]

وأعرب ابن عمار عن ثقته بعفو المعتمد عندما يُخيِّر بين عقابه والعفو عنه ؛ لأنّ العفو عن المسيء والتجاوز عن ذنبه من الأمور التي تقرّب إلى الله ، والمعتمد سيختار ما يدينه إلى الله ويقربه منه :

سجاياكَ إن عافيتَ أندى وأسمحُ وعُذْرُكَ إن عاقبتَ أجلى وأوْضحُ

وإنْ كانَ بينَ الخطتين مزيــة فأنت إلى الأدنى من الله تَجنَـحُ[4]

[الطويل]

ولفت ابن عمار نظر المأمون بن المعتمد إلى أنّ العفو عنه والتشفّع فيه سينفعه في دينه ، حيث الأجر والثواب للعافين عن الناس ، وفي دنياه حيث يبقى الشاعر خادماً وفياً لآل عبّاد ودولتهم :

---

[1] نفح الطيب للمقري ، ج4 : 254 .

[2] ديوان ابن زيدون : 132 .

[3] ديوان ابن زيدون : 159 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 420 .

ما لي أُنبِّه ناظِراً لم يغفُ عن   حظيِّه من دُنيا ولا من دين[1]

[الكامل]

وأشار الشعراء المستعطفون إلى كرم مَنْ يستعطفون وجودهم ، فهذا ابن زيدون يشيد بكرم أبي الحزم بن جهور ، ويبيّن أنّ كرمه ليس طارئاً ، بل هو أصيل عريق في آبائه وأجداده :

هُمامٌ عريق في الكرام وقلما   تَرى الفرعَ إلاّ مستمداً من الأصل[2]

[الطويل]

ولا يكتفي الشاعر بالإشادة بكرم أبي الحزم ، وإنّما يشيد بكرم آل جهور الذين عدّوا الكرم سنّة يسيرون عليها ، ويتواصون بها :

هو الكريمُ الذي سنّ الكرامُ له   زُهرَ المساعي فلم تَستَهْوِه البِدَعُ

من عزّة ألهمتْهُ في تَعاقُبِهـا   إنّ المكارمَ إيصاءٌ بها شَـرِعُ[3]

[البسيط]

ونجد عند ابن عمار إشادة بكرم المعتمد وجوده ، فالمعتمد كريم جواد كالبحر الذي يهب من يقصده الأعطيات الجزيلة :

بَحرٌ إذا ركبَ العُفاةُ سُكونَـه   وَهَبَ الغِنَى في عِزَّةٍ وسُكونِ[4]

[الكامل]

ولم يكتف الشاعر بالإشادة بكرم المعتمد وجوده بل أشاد بكرم ابنه الرشيد عندما تشفّع فيه ، لقد ذكّر الشاعر الرشيد بالقصائد التي نظمها في مدحه ، وكان حقاً عليه أن يمدحه ؛ لأنّه دوحة للمجد وروضة للندى والجود :

كنتُ أشدوْ عليكَ يا دوحةَ المجـ   ـدِ ويا روضةَ النَّدى والجُودِ[5]

[الخفيف]

أمّا ابن سيده فتحدّث عن كرم من يستعطفه بطريقة مختلفة إذ أنّه رأى أنّ جسده إنّما كوّن بفضل أعطيات إقبال الدولة الجزيلة ومكارمه الكثيرة :

دم كوّنَتْـهُ مكرماتُـك والذي   يُكوّن لا عتبٌ عليه إذا أفنى[6]

[الطويل]

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 424 .

[2] ديوان ابن زيدون : 160 .

[3] ديوان ابن زيدون : 172 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 425 .

[5] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 426 .

[6] جذوة المقتبس للحميدي ، الباب الثامن : 293 .

وعلى الرغم من أنّ التنويه بالشجاعة والإشادة بها كانا من المعاني التي طالما تناولها الشعراء المادحون في شتى العصور ، **إلاّ أنّنا نلاحظ أنّ قلّة قليلة من شعراء هذا العصر أشادوا بها** ، ولعل ميل الناس إلى السلم في عصر الطوائف ، ونبذهم الجهاد، وخلودهم إلى الدّعة كانت وراء ذلك ، لقد كان المعتمد من الشعراء القلائل الذين أشادوا بالشجاعة ، حيث تحدّث عن شجاعة والده في الحروب أثناء استعطافه ، ولكنّ حديثه هذا جاء في معرض افتخاره بنفسه :

يا ضَيْغَماً يَقتُلُ الأقرانَ مُفترساً لا توهنني فإنّي النابُ والظّفرُ[1]

[البسيط]

أمّا ابن زيدون فرأى أن يمدح أبا الحزم بن جهور بطريقة مغايرة ، فوصفه برجل السلام الذي يؤثر السلم على الحروب وشؤمها ، وإيثاره هذا يدل على حصافة رأيه ، وبُعْد نظره :

وزيرُ سِلمٍ كفاه يُمْنُ طائره شؤمَ الحروبِ ورأيٌ مُحصَد المرر[2]

[البسيط]

ولم ينس الشعراء المستعطفون الحديث عن ذكاء مَنْ يستعطفون وبُعْد نظرهم ورأيهم السديد ، فقد أشاد ابن زيدون بفهم أبي الحزم وذكائه وسداد رأيه ، حيث كانت آراء النبهاء في ساعات الشدّة ناقصة كالخطوط المهملة ، وكان رأي أبي الحزم كالشكل الذي يوضحها ، ويزيل الإبهام عنها :

إذا أشكل الخطبُ المُلمُّ فإنّه وآراءَه كالخطّ يوضح بالشّكلِ[3]

[الطويل]

والذكاء كما يراه الشاعر ليس حكراً على أبي الحزم وحده ، بل هو أصيل في آل جهور عامة الذين يغشون عظائم الأمور بقرائح مجرّبة وآراء سديدة :

يغشى التّجاربَ كَهْلُهم مُستَغنِياً بِقَريحَةٍ هي حَسْبُه تَجريبا[4]

[الكامل]

وعندما خاطب ابن زيدون صديقه أبا حفص بن برد طالباً شفاعته أشاد بذكائه وفهمه ، ورأى أنّ أبا حفص يفوق إياس بن معاوية حكيم العرب ذكاءً وفهماً ، وكان الشاعر يستنير برأيه ، ويسترشد بفهمه :

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 48 . والحلة السيراء لابن الأبار ، ج2 : 27 .

[2] ديوان ابن زيدون : 149 .

[3] ديوان ابن زيدون : 160 .

[4] ديوان ابن زيدون : 132 .

يا أبا حفصٍ وما ســــــا ... والكَ في فَهمِ إياسُ
من سَنَـــا رأيــك لي في ... غَسَقِ الليلِ اقتباسُ[1]

[مجزوء الرمل]

وتطرّق الشعراء إلى معانٍ أخرى عندما مدحوا مَنْ يستعطفون ، فـــابن عمـــار نوّه بحلم المعتمد الذي وصفه بالصخرة العظيمة الصلبة التي تتحطم عليها الذنوب ؛ لأنّ هذه الذنوب مهما عظمت ستكون دون حلم المعتمد عظمة .

نَعم لي ذَنبٌ غَيرَ أنّ لِحلمِهِ ... صَفَاةٌ يَزلُّ الذنبُ عنها فيسفحُ[2]

[الطويل]

أمّا المعتمد فأشاد بصبر والده في الملمات حين خاطبه مستعطفاً إياه :

وازجرْ جفونَك لا ترضَ البكاءَ لها ... واصبرْ فقدْ كنتَ عندَ الخَطْبِ تَصْطَبِرُ[3]

[البسيط]

وتحدّث ابن زيدون عن معانٍ أخرى في المديح عندما استعطف أبا الحزم ابـــن جهور ، فوصفه بأمير عادل ينصر المظلوم ، ويحافظ على حقّ الجوار ، فلا يســمح أن يتعرّض جاره لضرّ أو لضيم :

ولئن عَجبتُ لأن أضامَ وجهــورٌ ... نِعمَ النصيرُ فقد رأيتُ عَجِيبَا
من لا تُعدّى النائبــاتُ لجــارِه ... زَحفاً ولا تمشي الضّراءَ دبيبا[4]

[الكامل]

كما تحدث عن هيبته التي ملأت النواظر ، وعن ذكره الحسن الذي ملأ المسامع في آفاق الأرض :

مَلأ النواظرَ صامتـــاً ولربمـــا ... مَلأ المسامعَ سامعــاً ومجيبا[5]

[الكامل]

وأشار الشاعر إلى سهر أبي الحزم على رعيته ، حيث كان أمــــيراً يســتعذب حرمان عينيه من النوم لأجل الاعتناء برعيته ، والاهتمام بشؤونها ؛ فعمّ الأمن أرجـــاء البلاد ، حتى أنّ صروف الدهر غابت ، وطيور القطا نامت بـــأمن واطمئنـــان دون أن يثيرها مثير أو أن ينغّص حياتها منغّص :

---

[1] ديوان ابن زيدون : 82 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 421 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 48 .

[4] ديوان ابن زيدون : 131 .

[5] ديوان ابن زيدون : 132 .

كمْ اشترى بِكَرَى عينيه مــن سَهَــر هدوءَ عينِ الهُدى في ذلك السّهر
في حضرة غاب صرفُ الدهر خَشْيَتَه عنها ونام القَطا فيها فلم يَثُــرِ[1]

[البسيط]

لقد مزج معظم الشعراء المستعطفين استعطافهم بمدح من يستعطفون والإشــادة بهم ، ولكن كان مدحهم يفتقر لصدق العاطفة ؛ فالشاعر المنكوب لا يُعقل أن يحمل فــي صدره حباً لن نكبه ، فيثمر هذا الحب مدحاً له وثناء عليه ، لقد كان المدح الخالي مــن العاطفة الصادقة يصدر عن الشاعر إرضاء لمن يمدحه كي يعطف عليــه ، ويخلّصــه من نكبته .

كذلك نلاحظ المبالغة في المديح ، وإضفاء صفات ألوهية على الممدوح ، ومــن ذلك قول أبي الحسن البغدادي الفكيك الذي وفد إلى الأندلس من المشرق وزجّ به المعتمد في السجن بعدما اتّهم بالإلحاد والزندقة :

أيا ابن عبّاد الملكُ الذي يدُه من فيضها الرزق بين الخلق مَقْسومُ[2]

[البسيط]

لقد جعل الشاعر أرزاق العباد مقسومة من عطاء يد المعتمد وجوده .

أمّا ابن عمار فقد جعل الجبابرة يرفعون أياديهم للمعتمد ، ويضعون جباههم لــه أن راموا منه حاجة :

ما يعرضُ الجبار منه لحاجةٍ إلاّ برفع يدٍ ووضعِ جَبين[3]

[الكامل]

كما نجد في هذا المدح معانيَ رددها الشعراء المادحون الذيــن ســبقوا شــعراء عصر الطوائف ، فجاء الشاعر يكرر هذه المعاني ، بل أننا نجد أنّ بعضاً من المعاني قد كررها الشاعر نفسه في قصائده أكثر من مرّة .

وعلى الرغم من كثرة المديح في الأشعار الاستعطافية والمبالغة فيه أحيانــاً ، إلاّ أنّه لم يجد نفعاً ، إذ أنّ قسماً كبيراً من الشعراء أخفق في تخليص نفسه أو رفع العقــاب الواقع عليه.

---

[1] ديوان ابن زيدون : 149 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم4 ، مجلد1 : 373 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 425 .

ب- الغزل :

هام الشاعر المحبّ بمحبوبة لا تحبّه ، وتعلّق قلبه بها ، فأخذ يرنو إليها عساها تبادله حباً بحب وهياماً بهيام ، ولكنه عندما أخفق في ذلك لم يستطع أن يسلو حبها ، ولم يجد مناصاً من استعطافها وذرف الدموع بين يديها عساها ترقّ لحاله ، وتمنحه الوصال الذي يصبو إليه .

وقد تكون العلاقة بين الشاعر المحبّ ومحبوبته علاقة حميمة ؛ فيحيا العاشقان وهما يتبادلان الحب ويتساقيان الغرام ، حتى يعكر صفو هذه العلاقة معكّر ؛ فيحصل الفراق بين المحبينِ ، وتبتعد المحبوبة عن محبوبها الذي تمكّن منه العشق ، فيأخذ الشاعر المحبّ بمخاطبة محبوبته واستعطافها ، والتوسل إليها كي ترحمه ، وتعود إليه وتخلّصه من عناء البعد وألم الفراق .

وفي كلتا الحالتين يكون الشاعر المحبّ مخلصاً في حبّه ، صادقاً في عواطفه ، لأجل ذلك نراه يتحمل عناء مخاطبة محبوبته البعيدة عنه ، متغزلاً فيها تارة ، مستعطفاً إياها تارة أخرى ، آملاً من وراء ذلك إثارة عطفها كي ترثي لحاله ، وتشفق عليه ؛ فتمنحه الحبّ الذي ينشده ، والوصال الذي يتمناه .

إننا نقرأ في الأشعار الاستعطافية لأولئك الشعراء العشاق غزلاً أقرب ما يكون إلى الغزل العذري الذي عرفه المشرق لا سيما في العصر الأموي ، فأنّ الشاعر وبكى بسبب بُعد محبوبته عنه ، وتحدّث عن ضنك عيشه وسوء حاله ، فهذا ابن زيدون أشهر مَنْ حُرم من محبوبته ، وأكثر من نظم الشعر استمالة لقلبها واستدراراً لعطفها ، يخاطبها ويعلمها أنّ حياته أمست جحيماً ، فلا يلتذّ بمنام ، ولا يطيب له طعام ، ولا يسوغ له شراب بسبب بُعدها عنه وهجرها إياه :

متى أَبُثّكَ ما بِـــي	يا راحتي وعذابـــي؟
متى يَنُوبُ لِسَانـــي	في شرحه عن كتابي؟
الله يعلمُ أنّـــــي	أصبحتُ فيك لمَا بـــي
فلا يطيبُ طعامـــي	ولا يسوغُ شَرَابـــي[1]

[المجتث]

لقد كانت محبوبة الشاعر (ولادة) واحة لقلبه ومصدراً لسعادته حين كانت قريبة منه ، فأمست مصدراً لعذابه وأصلاً لشقائه عندما قلته وابتعدت عنه ، ويوازن

---

[1] ديوان ابن زيدون : 50 .

الشاعر في جلّ القصائد التي خاطب فيها محبوبته بين زمانينِ : زمان السعادة والـــهناء حيث كان يسعد بوصالها وقربها ، وزمان التعاسة والشقاء حيث أمسى حزينـــاً تعســاً ؛ بسبب بُعدها عنه وهجرها إياه ، لقد كان الدهر يُضحكه في الزمان الأول ، وكانت لياليه تبدو له بيضاء ناصعة ، إذ إنّه كان ينعم بجنة الخلد ، ويستقي من كوثرها العذب ، أمّــا في الزمان الآخر فأخذ الدهر يبكيه ، وأصبحت الأيام في نظره ســوداء حالكــة ، أمّــا الزقوم والغسلين فحلاّ محلّ جنّة الخلد وكوثرها العذب :

إنّ الزّمانَ الذي ما زالَ يُضحِكُنا أنساً بقربهم قــد عَــادَ يُبكينــا

حالتْ لفقدكُــم أيامُنــا فَغَــدتْ سُوداً وكانتْ بكم بِيْضَاً ليالينــا

يا جنّةَ الخُلدِ أبدلْنــا بِسِدرَتِهــا والكوثرِ العذبِ زقّوماً وغسلينا[1]

[البسيط]

ونرى الشاعر يستعذب هذا الشقاء في سبيل الحبّ ، ويُعلم محبوبته أنّه غير ناقم عليها ، وأنّه ماضٍ في حبّها ، وإن كلّفه ذلك الكثير من البكاء والعناء ؛ لأنّ نفسه المعذّبة المحبّة (ما كانت لترغب في النسيان بل ما كانت لترغب في الاستسلام إلى اليــأس)[2]، فقلبه متعلق بها لم يمل إلى سواها على الرغم ممّا يقاسيه في سبيل حبّها ، ويأمل الشاعر بلقاء محبوبته في الدنيا ، فإن تعذّر ذلك فسوف يتم اللقاء في موقف الحشر :

بنتم وبنّا فما ابتلّــتْ جوانِحُــنــا شَوقاً إليكم ولا جفّــت مآقيــنــا

نَكادُ حينَ تُناجيــكــم ضمائــرُنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

والله ما طلبت أهـــواؤنا بـــدلاً منكم ولا انصرفتْ عنكم أمانينا

نكاد حيــن تناجيــكــم ضمائرُنــا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

إن كانَ قد عزّ في الدنيا اللقاءُ بكم في موقفِ الحشرِ نلقاكم وتلقونا[3]

[البسيط]

ويبيّن الشاعر أنّ حبّه لمحبوبته هو كلّ حياته ، (وأنّه يرى في سبيل العشق ما لا يــراه غيره ، ويهون عليه كلّ شيء في سبيل إرضاء حبيبه حتى حياته ، وهو فخور بهذا)[4]:

أنـــى أُضيـــعُ عهْدَك أم كيف أخلفُ وعْـــدَك؟

و قد رأتــكَ الأمانـــي رِضــىً فلــم تَتَــعَــدّك

---

[1] ديوان ابن زيدون : 10 .

[2] في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 194 .

[3] ديوان ابن زيدون : 10 – 11 .

[4] بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف : 82 .

يا ليت شعري وعندي | ما ليسَ في الحبِّ عندك
هل طال ليلُك بَعـدي | كَطُـولِ ليلـي بَعْـدَك
سلْني حياتي أَهَبْـهـا | فَلَسْـتُ أَمْـلِكُ رَدَّك
الدَّهْرُ عبـدي لـمّـا | أصبحتُ في الحبِّ عَبْدَك[1]

[مجزوء الكامل]

ولكنّ الشاعر يشكو من محبوبته التي تركته هائماً في حبـها ، دون أن ترثـي لحاله ، وتخلصه من عناء البُعد ولوعة الفراق ، ويتحدث خلال ذلك عن العشـق الـذي تمكّن منه ، وملك فؤاده ، فجعله لا يطيق الصبر على بُعد محبوبته عنه وهجرها إياه :

كـم ذا أريـدُ و لا أرادُ | يا سوءَ ما لقيَ الفـؤادُ
أصفي الودادَ مُـدلَّـلاً | لم يصفُ لي منه الودَادُ
يقضي علـيّ دلالُـه | في كلّ حيـنٍ أو يكـادُ
كيف السلُـوّ عن الذي | مثواهُ في قلبي السوادُ
ملك القلـوب بحسنـه | فَلَهَا إذا أمـرَ انقيـادُ
يا هاجري كَمْ أستفيـ | دُ الصبرَ عنكَ فلا أُفادُ
هلاّ رَثَيْتَ لِمَنْ يَبيـ | تُ وحَشوُ مقلتَه السهادُ
إن أجنِ ذنباً في الهوى | خَطَأً فقد يكبو الجـوادُ[2]

[مجزوء الكامل]

ولا يفوت الشاعر أن يشبه محبوبته بتشابيه طالما استخدمها الشعراء العاشقون ، فـهي كالشمس التي توارت عن ناظريه بابتعادها عنه ، أمّا وجهها الجميل وقـد أميـط عنـه الحجاب فكالقمر المنير ، وقد ظهر بعد انقشاع السحاب :

الشّمسُ أنتِ تـوارتْ | عن ناظري بالحجابِ
ما البدر شفَّ سنـاه | على رقيق السحابِ
إلاّ كـوجهـك لمّـا | أضاء تحت النقـابِ[3]

[المجتث]

---

[1] ديوان ابن زيدون : 55 .
[2] ديوان ابن زيدون : 51 .
[3] ديوان ابن زيدون : 50 .

وليست الصور الفنية هي الوحيدة التي قلّد فيها ابن زيدون سابقيه من الشعراء ، بل (إنّه كان يتصيّد الألفاظ والمعاني التي قيلت في العشق ، فينظمها ويلبسها ثوباً جديداً وكأنّها له ، وقد برع في ذلك براعة عظيمة)[1]، كقوله مخاطباً محبوبته :

يا غزالاً أصارنــي	موثقاً في يــدِ المِــحَــنْ
إنّني مُذْ هَجَـرتَنــي	لـم أذقْ لــذّةَ الوَسَـنْ
شافعي يا مُعذِّبـــي	في الهوى وَجْهُك الحسنْ
كنتِ خلواً من الهوى	وأنــا اليــوم مُــرتَهَــنْ
كان سِرّي مُكتّمــاً	وهو الآن قــد عَلَـــنْ
ليس لي عنك مَذهَبٌ	فكما شئــت لــي فَكُــن[2]

[مجزوء الخفيف]

وأمر آخر قلّد فيه ابن زيدون الأقدمين ، وهو استهلال بعض قصائده بالنسيب مجاراة للشعراء الجاهليين ، فنراه في قصيدته الرائية يتغزل بمحبوبته ، ويعبّر عن سهاده وأرقه بسبب هجرها إياه ، وبُعدها عنه ، ثم يفضي بعد ذلك إلى استعطاف أميره الذي زجّ به في السجن :

ما جَالَ بَعدَكِ لحظِــي في سَنَــا القَمَــرِ	إلاّ ذكرتُكِ ذِكرَ العينِ بِالأثَــرِ
ولا استطلتُ ذُمــاءَ الليــلِ مِنْ أســفٍ	إلاّ على ليلةٍ سرّت مع القِصَرِ
فهمتُ معنى الهوى مِنْ وحْي طَرْفِكِ لــي	إنّ الحوارَ لمفهومٌ مِنَ الحَــوَرِ[3]

[البسيط]

كما ذكر الشاعر – مقلّداً الأقدمين – الأمكنة التي كان يلتقي فيها محبوبته ، فتشهد حبهما وتعطف على عشقهما ، فذكر الزهراء :

إنّي ذَكرتُكِ بالزهراءِ مُشتاقا	والأفْقُ طَلْقٌ ومرأى الأرضِ قد راقا[4]

[البسيط]

كما ذكر في شعره قرطبة والرصافة والعقاب والنبتي وغيرها من الأماكن التي كانا يقضيان فيها لحظات العشق وساعات الصفاء .

---

[1] بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف : 83 .

[2] ديوان ابن زيدون : 20 .

[3] ديوان ابن زيدون : 147 .

[4] ديوان ابن زيدون : 47 .

كان حبّ ابن زيدون لاهياً عابثاً في مطلعه ، ثم ما لبث أن انقلب إلى جذوة نار تأكل قلبه ، عندما أزورت محبوبته عن حبه وهجرته (فلعب دور الهجر في قلبه لعباً قاسياً شديداً ، وفجّر فيه شعر الحرقة واللوعة وشعر الذكرى والحنين)[1]، وأبدع الشاعر في قصائده أيّما إبداع ، حين استجمع شاعريته وفجّر عواطفه ، واطّلع على أشعار الشعراء السابقين ، فتصيّد ألفاظهم ومعانيهم ، وأعاد صياغتها بعبارات تملك النفوس ، وتستولي على القلوب (وكأنّ الإنسان لم يقرأ مثلها ، ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان في تعبير الشاعر وأسلوبه)[2]، لقد كان ابن زيدون في أشعاره كالفنان الذي يستعين بالألوان لإظهار الصورة التي يريد أن يبرزها ، فكان (الفن وحده هو الذي أكسب ابن زيدون زعامة الشعر في عصره ، وأغرى فحول الشعراء بمحاكاته ، والانضواء تحت رايته)[3]، لذا نكاد لا نجد جديداً في أشعار سواه من شعراء عصره الذين أحبوا وعشقوا ؛ ففشلوا في حبهم ، وأخفقوا في عشقهم ؛ فخاطبوا محبوباتهم مستدرين عطفهن ، راجين وصالهن ، فكما بكى ابن زيدون وتأوّه بسبب فراق محبوبته وابتعادها عنه بكى ابن حداد وتأوّه ، وأعلم محبوبته أنّ صبره على فراقها قد نَفِد ، وأنّ الأشواق تفطر قلبه ، والأحداق تسيل دمعه ، لقد أقام الشاعر في مدينة تدمير إقامة تعسة بعيداً عن محبوبته ، وكان في أسوأ حال ، وكان حاله البائس يثير شفقة من يبصره هناك، إنّ البؤس قد اقترن بحياة الشاعر منذ أن فارق محبوبته ، فأمسى دامع العين ، منغّص العيش :

يا غائباً خَطَرات القلبِ مَحْضَرُه	الصبرُ بَعدكَ شيءٌ لستُ أَقدره
تركتَ قلبي وأشواقي تُفَطِّــــرُه	ودمعُ عَيني وأحداقي تُحدِّرُه
لو كنتَ تُبصرُ في تدميرِ حَالتنا	إذن لأشفقتَ مما كنتَ تُبصرُه
فالعينُ دونك لا تحلى بلذّتـــهـا	والدهر بعدك لا يصفو تَكَدُّرُه[4]

[البسيط]

ويبكي ابن حداد فراق محبوبته في سائر قصائده التي تشوق بها إليها ، وبكاء الشاعر وأنينه أظهرا ما يحاول إخفاءه من حب لمحبوبته وهيام بها ، ولا يطلب الشاعر

[1] في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 192 .
[2] في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 192 .
[3] في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 205 .
[4] ديوان ابن حداد : 209 – 210 .

من محبوبته المستحيل ، فكلّ ما يطلبه هو رضاها عليه ، وتخليصه من عنت البُعد وألـم الفراق .

إنّ المـــدامـــعَ والزّفيـــرْ قد أعلنا ما في الضمير
فعــلامَ أخفـــي ظاهِـــراً سَقمي عليَّ به ظَهيْـر
هب لي الرضى من سَاخطٍ قَلبي بِساحتِه الأَسيــر[1]

[مجزوء الكامل]

لقد عاش الشاعر حياة بائسة ؛ بسبب ابتعاد محبوبته عنه ، وعلى الرغم من ذلك يعلم محبوبته أنّه محبّ لها غير ساخط عليها ، وسيبقى عاشقاً وفياً لها حتى لـــو بقيـــت بعيدة عنه ؛ لأنّ حبها مَلَك قلبه ، وتمكّن منه :

فهل تدرينَ ما تَقَضي على عينيّ عينـــاكِ ؟
و ما يُذكيه من نَـــارِ بقلبي نُورك الذّاكي ؟
نويرةُ إن قليتِ فــإ نني أهواكِ أهــواكِ[2]

[مجزوء الوافر]

إنّ الشاعر لم يهم بمحبوبته النصرانية فحسب ، بل هام بكلّ ما يمتّ للنصـــارى بصلة ؛ فأحبّ الكنائس وما فيها من صلبان ورهبان ونسّاك :

عساكِ بحقِّ عيساكِ مُريحة قلبي الشاكي
فإنّ الحسن قد ولاّ كِ إحيائي وإهلاكي
وأولعني بِصلْبـــانِ ورُهبانِ ونُسّـــاكِ[3]

[مجزوء الوافر]

ونرى الشاعر علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر يصنع صنيع سابقيه ؛ فيتحدث عن انعدام صبره ، وبكائه المتواصل على فراق محبوبته ، لقد كان كالملك المتوّج عندما نَعُم بقربها ، أمّا عندما ابتعدت عنه وهجرته فأمسى كمن خُلِع عن ملكه .

ولقد وجدتُ الصبر بَعْدَكُمُ صَعباً وكنتُ أظنّه سَهــلا
واستعبرتْ عيني فقلت لها هلاّ حذرتِ الأعينَ النَّجلا
لا مرحباً بِالبينِ من أجَــلٍ تنأى الحياةُ به ولا أهــلا

---

[1] ديوان ابن حداد : 222 .

[2] ديوان ابن حداد : 242 .

[3] ديوان ابن حداد : 241 .

قد كان لي مُلكاً دنوكـــــم   فالآنَ أصبح بَعْدَكُم عَزلا[1]

[السريع]

والشاعر يشكو من محبوبته التي لم تبادله الحب ، ولم تشاركه الغرام ، بل كانت تتلاعب فيه وتستهتر بمشاعره ، لقد ساءت حال الشاعر ، ولازمه السقام ؛ بســـبب مـــا يقاسيه من بُعد وفراق ، ولكنّ معاناته لم تثر عاطفة محبوبته ، إذ ظلّت بعيـــدة عنـــه ، عابثة فيه :

فيـــه لـــي جَنَّـــةٌ وفيه نَعيـــمُ   وعذابٌ أشقى بـــه وجحيمُ

جَاءني عائداً ليعلـــمَ مـــا بـــي   مِنْ تَجنّي هَواه وهوَ عَليـــمُ

هوَ يدري ما أوجبَ السُّقْمَ لكنْ   ليسَ يَدري ما يقاسي السّقيمُ

ثمّ نادى وقَدْ رأى سوءَ حَالـــي   جَلّ مُحيي العظامَ وهي رميمُ[2]

[الخفيف]

والأمر ذاته نجده عند الشاعر أبي الفضل مشرف بن راشد ، لقد التمـــس هـــذا الشاعر الرحمة من محبوبته ، ورجاها أن تصله ، وتخلصه من العذاب الواقـــع فيـــه ، فصبره على فراقها على وشك النفاد ، والأسى والضّنى أصبحا ملازميـــنِ لـــه منـــذ أن ابتعدت عنه محبوبته :

بثنـــايـــاكَ العِـــذَابِ   لا تُطِل فيك عَذابـــي

كنْ رَحيماً بي رَفيقاً   واجعلِ الوَصْلَ ثَوابي

لا يغرنّكَ صبـــــري   واحتمالي مِنْكَ مابي

فالأسى بين ضُلوعي   والضّنى بَيْنَ ثِيابـــي[3]

[مجزوء الرمل]

ويأمل الشاعر من محبوبته أن تخلصه من أساه وضنكه ، وتعود إليه حتى يُشفي غليله ، ويبكي فرحاً بعودتها ووصالها ، كما كان يبكي حزناً على بُعدها وفراقها .

للتلاقي يهون مـــا ألاقـــي   من سهادٍ وعبرةٍ واشتياقِ

لو تخلصتُ للقاء لأطفـــأ   تُ غليلي بدمعي المُهراقِ

فدموعُ الفراقِ كالنّارِ حَرّى   وَكذا ضدّها دموعُ التّلاقي[4]

[الخفيف]

---

[1] خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي : 14 – 15 .

[2] خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي : 15 .

[3] خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي : 15 .

[4] خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي : 14 .

لقد هام الشعراء السابقون بمحبوباتهم اللائي هجرنهم ؛ فشرعوا (في الاعتذار والخضوع ، والتذلّل ، والأدلة بحجّتهم من الإدلال والإذلال)[1] كي يستميلوا قلوبهنّ إليهم ، وسلكوا من أجل تحقيق ذلك شتى المسالك ؛ فتارة تغزّلوا بهنّ ووصفوا حُسنهنّ وجمالهنّ ، وتارة أخرى تشوّقوا إليهنّ وبكوا وذرفوا الدموع الغزيرة ، وتحدثوا عن ضنك عيشهم وسوء حالهم بسبب بُعدهنّ وهجرهنّ ، ولكنّهم فشلوا في تحقيق هدفهم ، إذ أنّنا لا نجد أيّاً منهم أثمرت أشعاره ، ونجحت جهوده فعادت محبوبته إلى حماه أو منحته الحبّ الذي كان ينشده .

ج- الفخر :

مزج عدد من الشعراء المستعطفين أشعارهم الاستعطافية بفخرهم بأنفسهم ، واعتدادهم بها تارة ، وبلفت نظرِ مستعطَفيهم لمناقبهم المتعددة وفضائلهم الماضية تارة أخرى ، وكأنّ هؤلاء الشعراء أرادوا من وراء ذلك تحقيق أمرين : الأول هو تذكير مَن يستعطفون بأنّهم ليسوا كعامة الناس ، وإنّما هم من عليّة القوم وخاصتهم ؛ لذا ينبغي ألاّ يهانوا وألا يعاقبوا جرّاء ذنب اقترفوه ؛ فعظم شأنهم وعلو مكانتهم ، وخدماتهم التي قدموها للحاكم كلها أمور كفيلة بتخفيف ذنوبهم مهما عظمت – كما كانوا يظنون – ، أمّا الأمر الثاني : فهو إبعاد التذلل وإهراق ماء الوجه عن استعطافهم ، بحيث يظهر هؤلاء الشعراء متماسكين محافظين على عزة نفوسهم وكرامتها أثناء استعطافهم .

كان ابن زيدون أكثر الشعراء افتخاراً بنفسه واعتداداً بها أثناء استعطافه ، بخاصة في تلك القصائد التي نظمها في بدايات نكبته ومفتتح سجنه ، فقد بدا ابن زيدون في تلك القصائد رجلاً محافظاً على كرامته واثقاً من نفسه ، تشيع في أشعاره روح الكبرياء والأنفة من ذلّ القيد وكبوة الحظ (حتى ليكاد يكون معظم شعره فخراً واعتداداً أكثر منه تنصّلاً واستعطافاً)[2]، فقد رأى ابن زيدون أنّ النكبة التي تعرّض لها إنّما حصلت بفعل دسائس الأعداء والوشاة الذين لم ينالوا منه ، إلاّ لأنّه يتقدّم عليهم بعلمه وفضله ؛ فقاموا بالافتراء عليه والإضرار به ، وهو لا يستطيع إرضاء أولئك الأعداء إلاّ إذا تخلى عن علمه ، وجهل كما يجهلون :

ولو أنّي أستطيعُ كي أُرضي العِدا　　شَريتُ ببعض العِلمِ حظّاً من الجهلِ[3]

[الطويل]

---

[1] طوق الحمامة لابن حزم : 180 .

[2] ابن زيدون عصره – حياته – أدبه : حسن جاد حسن : 158 .

[3] ديوان ابن زيدون : 160 .

لقد كان أعداؤه سبباً في نكبته حسداً من عند أنفسهم ؛ لأنّه يتقدّم عليهم كما يتقدّم الجواد السابق على سائر الجياد في ميادين السباق :

جَوادٌ إذا استَنَّ الجِيادَ إلى مَدىً　　تَمَطَّرَ فاستولى على أَمَدِ الخصلِ[1]

[الطويل]

وقد فخر ابن زيدون بنفسه في معرض هجومه على أعدائه وحسّاده ، فكان حاله وحالهم كحال الليث الذي لا يعبأ بنهيق الحمير ، وكحال البدر الذي لا يكترث بنباح الكلاب ، ثم وصف نفسه بالروض ذي الرائحة العطرة الزكية الذي لا يضيره طنين الذباب فيه ، لقد كان الشاعر كصفحة الماء ، وكان أعداؤه كالكدر الذي يطفو على سطحها ، كما كان كضوء الشمس وكان حسّاده كالضباب الذي يحاول أن يحجبه عن الأرض ، ولكن هيهات للكدر أن يفسد الماء ، و هيهات لذاك الضباب أن يحجب ضوء الشمس عن الأرض ويحرمها منه :

وقد تُسمعُ الليثَ الجحاشُ نهيقَها　　وتُعلي إلى البدرِ النّباحَ كلابُ

إذا راق حُسْنُ الرّوْضِ أو فَاحَ طِيبُه　　فما ضرّه إن طنَّ فيه ذبابُ

وقد تَغشى صفحةَ الماءِ كدرةٌ　　ويطفو على ضوءِ النّهارِ ضَبابُ[2]

[الطويل]

ويُظهر ابن زيدون نفسه وكأنّه متعالياً على غيره من الناس ، فيرى أنّ العظماء – ويعدّ نفسه منهم – هم الذين ينكبون ، أمّا عوام الناس فلا يتعرضون للمصائب والنكبات ، إنّ تلك النكبات التي ألمّت به كالرياح العاصفة التي تعصف بالشجر الباسق ، وهي كالكسوف الذي يحدث للشمس والقمر ، أمّا النباتات الصغيرة القصيرة فتسلم من أذى الرياح العاصفة ، كما أنّ النجوم الصغيرة لا يضيرها خسوف أو كسوف :

هل الرّياحُ بِنَجْمِ الأرضِ عاصفةٌ　　أم الكسوفُ لِغيرِ الشّمسِ والقَمَرِ؟[3]

[البسيط]

ويشبّه الشاعرَ نفسه وقد سجن بالسيف الذي أودِع في غمده ، لقد ظهر الشاعر متماسكاً عندما خاطب سجّانه أبا الحزم بن جهور ، حيث لم يجزع من سجنه ، بل إنّه اعتبر أنّ ما تعرّض له أمراً طبيعياً ؛ فالإنسان العظيم قد ينكب كما أنّ السيف الصارم قد يودع في غمده :

---

[1] ديوان ابن زيدون : 161 .

[2] ديوان ابن زيدون : 120 – 121 .

[3] ديوان ابن زيدون : 149 .

إن طالَ في السّجنِ إيداعي فَلا عَجَبٌ   قد يودعُ الجفنَ حدُّ الصارمِ الذكرُ[1]

[البسيط]

ونرى ابن زيدون يكرر هذه الصورة عندما خاطب صديقه أبا مسلم بن أفلح مستشفعاً فيه ، لقد حاول الشاعر أن يبرر هروبه من السجن ، فبيّن أنّ المدّة الطويلة التي قضاها في سجنه كادت تهلكه ؛ لأنّه كالسيف الذي يفسده طول بقائه في غمده :

وبقاءُ الحُسامِ في الجِفن يثني   منه بَعْدَ المَضاءِ والتصميمِ[2]

[الخفيف]

وأشار الشاعر إلى رجاحة عقله الذي ينهاه عن ارتكاب ما زعمه الواشون ، فلا يُعقل أن يسيء القول لمن أحسن إليه أو أن يقابل إحسانه بإساءة :

وإنّي لَتنهاني نُهاي عن التي   أشادَ بها الواشي ويعقلني عَقْلي

وما كنتُ بالمُهدي إلى السّؤددِ الخنا   ولا بالمُسيء القَولِ في الحُسن الفعل[3]

[الطويل]

وعندما خاطب ابن زيدون صديقه أبا حفص بن برد واستشفع فيه بعدما فشل في الحصول على عفو أبي الحزم وصفحه ، شكا لصديقه أولئك الأصدقاء الذين تنكّروا له ، ونجده أثناء شكواه يفخر بنفسه ، ويعتدّ بها ؛ ليظهر أمام صديقه بمظهر الإنسان العزيز المتحامل على نفسه الذي لا تضيره النكبات ، ولا تفتّ من عضده النوائب ، لقد شبه الشاعر نفسه بالأسد الجريء الذي يلبد لفريسته استعداداً للانقضاض عليها ، كما وصف نفسه بالمجد الذي يغشى النعاس مقلته ، إنّ مثال الشاعر وقد تعرّض للنكبة كمثال المسك الذي لا يقدّر الناس قيمته فيلقونه في التراب ويطأونه بأقدامهم :

يَلبدُ الورد السّبنتى   وله بعدُ افتراسُ

فتأملْ كيفَ يَغشَى   مُقلةَ المجدِ النعاسُ

ويفتّ المسكُ في التّر   ب فيوطأ ويداسُ[4]

[مجزوء الرمل]

لقد فخر ابن زيدون بنفسه ، وبالغ بالاعتداد بها ، وكأنه (لم ينظم الشعر لإرضاء شخص آخر غير نفسه)[5]، ولكنّ هذا الفخر كان في بدايات نكبته ، أمّا تلك

---

[1] ديوان ابن زيدون : 149 .

[2] ديوان ابن زيدون : 124 .

[3] ديوان ابن زيدون : 162 .

[4] ديوان ابن زيدون : 83 .

[5] في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 198 .

الأشعار التي نظمها بعدما قضى وقتاً طويلاً في سجنه فتخلو تماماً من أيّ فخر أو اعتداد، بل أنّها تحوي كثيراً من عبارات التذلل والهوان ، لقد كسرت المعاناة حدّته ، وطعنت كبرياءه في الصميم .

أمّا المعتمد بن عبّاد الذي خاطب والده المعتضد مستعطفاً إياه بعدما هُزِم هزيمة نكراء في مالقة ، فيفخر بنفسه في معرض مدحه لوالده ، حيث كان والده كالأسد الذي يفتك بأعدائه ، وكان المعتمد بمثابة المخلب والناب لذلك الأسد :

يا ضَيْغَماً يقتلُ الأقرانَ مفترساً لا توهنني فإنّي النابُ والظُّفرُ[1]

[البسيط]

ثم فخر الشاعر بأخلاقه العالية التي أدبه عليها أبوه ، تلك الأخلاق التي جعلته يبتعد عن الانغماس في الملذات والانقياد وراء الشهوات ، لقد ابتعد المعتمد عن شرب الخمور ، ولم يملك سمعة غناء القيان ، أمّا الجواري الفاتنات فعجزت عن إغوائه :

لم أوتَ مِن زمني شيئاً ألذُّ به فلستُ أعرفُ ما كأسٌ ولا وترُ

ولا تملّكني دَلّ ولا خَفَــرٌ ولا تمرّسَ بي غَنْجٌ ولا حــورُ[2]

[البسيط]

أمّا الراضي بن المعتمد الذي وجد عليه أبوه بسبب انشغاله بالعلم ، وجعل تحصيله يتم على حساب التربية العسكرية التي ينبغي أن ينشأ عليها الأمراء ، فقد حاول أن يسترضي والده ، فخاطبه بقصيدة فخر فيها بنفسه ، وذكّر والده بتلك اللحظات التي استبسل فيها في الدفاع عن مملكة أبيه ، ومنع الأعداء من الاستيلاء على أجزاء منها :

لا تنسَ يا مولاي قَو لةَ ضارعٍ لا قولَ فاخرْ

ضَبَطَ الجزيرةَ عندما نَزلتْ بِعَقوتِها العَساكـرْ

أيامَ ظِلتُ بها فَــر يداً ليسَ غيرَ اللهِ ناصرْ

إذ كان يَغشى ناظري لمعُ الأسنّةِ والبَواتـرْ

ويصمّ أسماعي بِهـا قَرعُ الحجارةِ بالحوافرْ[3]

[مجزوء الكامل]

إنّ المتتبّع للفخر في شعر الاستعطاف يلحظ أمرين :

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 48 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 57 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 48 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 57 .

[3] نفح الطيب للمقري ، ج4 : 254 .

أولهما : قلة الشعراء المستعطفين الذين تناولوا الفخر في استعطافهم ، وهؤلاء كان لـــهم ماضٍ مجيد أو كانوا أمراء فكان فخرهم في محلّه ، أمّا بقية الشعراء المســـتعطفين فـــلا نجد في أشعارهم ذِكراً للفخر ، فقد كانوا من عامة الناس الذين لا يوجد في حياتهم مـــا يفخرون به ، أمّا الأمر الثاني فهو اقتصار الفخر على ذات الشاعر الذي لـــم يفخـــر لا بوالده ولا بقبيلته ، وإنّما كان فخره بنفسه فقط .

د- الوصف :

كان الوصف غرضاً آخر تناوله الشعراء المستعطفون في أشعارهم الاســتعطافية استثارة لرحمة من يستعطفون واستدراراً لعطفهم ، واســـتخدم الشـــعراء المســـتعطفون الوصف في مجالات متعددة ، فتحدثوا عن معاناتهم ، ووصفوا الحال البائس الذي آلـــوا إليه بسبب تلك المعاناة ، فهذا ابن زيدون يتحدث عن النكبة التي داهمته وهو في مقتبـــل العمر وريعان الشباب ، فجعلت الشيب يكسو رأسه ، وجعلت الشباب يفارقه قبل الأوان:

ما لي وللأيامِ ؟ لَجّ معَ الصّبَا عُدَوانها فكسا العِذَار مَشـــيبـــا

محقتْ هِلالَ السنّ قبلَ تمامِـــه وذَوَى بِها غُصْنُ الشّبابِ رَطِيبا[1]

[الكامل]

أمّا ابن عمار فيصف حاله وهو يتحدث عن حيرته وقـــد أخطـــأ بحـــقّ مليكـــه المعتمد، لقد كان الشاعر حائراً متردداً أيُقبِل على المعتمد صاغراً نادماً أم يـــهيم علـــى وجهه في ربوع الأرض :

أصدّقُ ظنّي أمْ أصيخُ إلى صَحبــي فأمضى عَزْماً أمْ أعوجُ مع الركبِ

وأصبحتُ لا أدري أفِي البُعْدِ رَاحَتي فأجعلُه حظّي أمِ الحظُّ في القُرْبِ[2]

[الطويل]

ونرى المعتمد يستعطف والده بعدما هزم في إحدى معاركه ، ويصـــف حالـــه وضنك عيشه ، لقد أثقلت تلك الهزيمة كاهله ، وزاد من مرارتها خوفه من والده الـــذي كان شديد البأس ، قاسي القلب ؛ فمكث خائفاً باكياً ، وتغيّر لونه ، وأصبح كلون الســقيم الذي يكابد الداء ، وبدا منهك القوى كالشيخ الطاعن في السن على الرغم من أنّ الكبر لم يبلغه ، والشيخوخة لم تداهمه :

قد أخْلَفَتْني ظنونٌ أنتَ تعلمُـــها وغـــالَ مـــوردُ آمالـــي بها كَـــدِرُ

---

[1] ديوان ابن زيدون : 131 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 407 . وقلائد العقيان لابن خاقان : 90 . والحلة السيراء لابن الآبـــار ، ج2 : 135 .

فالنَّفسُ جازعةٌ والعينُ دامعــــةٌ والصوتُ منخفضٌ والطَّرْفُ مُنْكَسِرُ
قد حلتُ لوناً وما بالجسم من سَقَمٍ وشبتُ رأساً ولم يبلغني الكِبَـــــرُ
ومت إلاّ ذِماءً فـــيّ يمســـــكه إنّي عهدتُكَ تعفو حيــنَ تَقتــــدرُ[1]

[البسيط]

وعندما دالت أيام المعتمد ، وأُسِر في أغمات ، وصف لنا حال بناته اللواتي كـنّ في أتعس حال ، كما وصف حال زوجته التي كانت تبكي بدموع غزيرة أسفاً على مــــا حلّ بها وبآل بيتها ، وحزناً على فراق أبنائها :

معي الأخواتُ الهالكاتُ عليكما وأمكما الثّكلَى المُضرمـــة الصّـــدرِ
فتبكي بدمعٍ ليس للقطرِ مثلـــه وتزجرها التقوى فتصغي إلى الزّجرِ[2]

[الطويل]

ومرّة أخرى يصف المعتمد حال بناته وقد رآهنّ يدخلن عليه يهنّئنه بالعيد ، وهنّ في حالة مزرية تدمي الفؤاد ، لقد كانت بناته الأميرات يعشنَ في ضنك شديد ، يرتديـــن الثياب البالية ، ويعانين من الجوع ، وكنّ يغزلن للناس كيّ ينفقنَ على أنفسهنّ :

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مَسرورا فساءكَ العيدُ في أغماتَ مأسورا
ترى بناتِك في الأطمارِ جائعــــةً يغزلنَ للناس لا يملكنَ قِطْميرا
برزنَ نحوكَ للتسليمِ خاشعــــــةً أبصارُهنَّ حسيرات مكاسيــرا
يطأنَ في الطينِ والأقدامُ حافيــةً كأنّها لم تَطأ مِسكـــاً وكافـــورا[3]

[البسيط]

أمّا ابن غصن الحجاري فيصف لنا المكان الذي اعتقل فيه وحرمه حريته ، لقـد كان ذلك المكان ضيقاً ، وكان الشاعر مقيداً فيه بالأكبال والأصفاد :

ما لنا في وطءِ البسيطةِ حظّ لا ولا في نَشْقِ الهواءِ نصيبُ
في محلّ كأنّه ظِلفُ شَـــاةِ ليس فيه لذي دَبيـــبِ دَبيـــبُ
وكأنّ الكبلَ الثّقيلَ إذا مـــا رنَّ في السّاقِ للخُطوبِ خطيبُ[4]

[الخفيف]

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 48 . والبيان المغرب لابن العذارى ، ج3 : 275 .
[2] قلائد العقيان لابن خاقان : 12 .
[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 73 . وقلائد العقيان لابن خاقان : 25 . وشذرات الذهب لابـــن عمـــاد الحنبلي ، ج3 : 388 – 389 .
[4] أعتاب الكتّاب لابن الآبار : 220 .

كما وصف بعض الشعراء المستعطفين الطبيعة وأشركوها في معاناتهم ؛ فــابن زيدون أهاب بالطبيعة ناطقة وصامتة ، حية وجامدة أن تشاركه فــي نكبتــه ، وتــهتم بمصيره (فتقيم النجوم المآتم ، وتسلم نفسها للهوان مثله ، ويستبدّ به الخيال فيطلب مــن نجوم الثريا السبع أن تتفرق بعد ائتلاف ، وتنقص بعد تمام ، وكأنّ الشاعر جــزء مــن الطبيعة ممتزج بها ، متجاوب المشاعر معها)[1]:

ألم يأنِ أن يبكي الغمامُ على مِثلي	و يطلبُ ثأري البرقُ منصلتَ النّصلِ
وهلاّ أقامَتْ أنجُــمُ الليــلِ مأتماً	لتَنْدُبَ في الآفاق ما ضَاع من نثلــي
ولو أنصَفَتْني وهي أشكالُ همتي	لألقتْ بأيدي الذلِّ لمّا رأتْ ذُلّــــي
ولافترقتْ سبعُ الثريا و غاضَــها	بمطلعها ما فرّق الدّهرُ من شملــي[4]

[الطويل]

ولمّا خاطب ابن زيدون صديقه أبا حفص بن برد وجد عزاءه في الطبيعة يتسلى بها ، ويأخذ منها ما يبعث الأمل في نفسه ، (فلئن حُبِس وحُرِم نعمة الحرية والانطــلاق فإنّ له عزاءً في الغيث المحتبس ، والأسد المنكمش ، والمقلة يعروها النعاس، والمســك الذي يوطأ ويداس)[3]:

ولئن أمسيتُ محبوساً	فللغيثِ احتبــاسُ
يلبدُ الوَرد السّبَنتــى	وله بعدُ افتــراسُ
فتأمّلْ كيفَ يَغشـــى	مُقلةَ المجدِ النعاسُ
ويَفتُّ المسكَ في التُّر	بِ فيوطأ و يداسُ
لا يكنْ عهــدُكَ وَرداً	إنّ عهدي لكَ آسُ[4]

[مجزوء الرمل]

ويشرك ابن زيدون الطبيعة في عشقه وهيامه ، فيطلب من البرق أن يباكر قصر محبوبته ، ويسقي مَنْ فيه ، ويردّ لساكنيه الجميل الذي قدّموه للشاعر عندما أســقوه وداً وهياماً ، كما يطلب من النسيم أن يحمل أشواقه وتحياته إلى محبوبته أملاً بأن يحمل ذلك النسيم أشواق محبوبته وتحياتها له :

يا ساري القصرِ غادِ القصرَ واسقِ به	مَنْ كان صِرفَ الهوى والودُّ يُسقينا

---

[1] البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر لسعد إسماعيل شلبي : 92 .

[2] ديوان ابن زيدون : 159 .

[3] البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر لسعد إسماعيل شلبي : 93 .

[4] ديوان ابن زيدون : 83 .

و يـــا نسيـــمَ الصَّـــبا بلّـــغ تَحيّتَـــنا   مَنْ لو على البُعدِ حيّاً كانَ يُحييـــنا[1]

[البسيط]

وحين لجأ الشاعر إلى الزهراء ، وأرسل من هناك قصيدته القافيّة إلى محبوبته ، وتشوّق إليها وتلهّف إلى لقائها ، افتتن في قصيدته تلك بالطبيعة افتتاناً عظيماً ، فجعلـــها تشاركه عواطفه وأشجانه ؛ فالنسيم العليل إنّما اعتلّ تعاطفاً معه ، أمّا الندى الذي يجلّـــل الزهر فما هو إلاّ دموع لذلك الزهر الباكي حزناً على ما حلّ بالشاعر :

إنّي ذكرتُكِ بالزّهــراءِ مُشتاقـــا   والأُفْقُ طَلْقٌ ومرأى الأرضِ قَدْ راقا

وللنّسيمِ اعتلالٌ في أَصائلِـــــه   كأنّـــما رقَّ لـــي فاعتـــلَّ إشفاقـــا

نلهو بما يستميلُ العينَ من زهر   جَالَ الندى فيه حتى مـــالَ أعناقـــا

كأنّ أعينَه إذْ عاينتْ أرَقِـــــي   بَكتْ لِما بي فجالَ الدّمـــعُ رَقراقـــا[2]

[البسيط]

ويشترك الشاعر في الشكوى مع حمامة كانت تهدل على غصن ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، وكأنّ الغصن قد تعاطف مع الشاعر والحمامة فأخذ يتمايل ويتحرك حزناً على ما ألمّ بهما :

وأرّقَ العينَ والظلماءُ عاكفـــةٌ   ورقاء قد شفّها إذ شفّني حـــزنُ

فبتُّ أشكو وتَشكو فوقَ أيكتها   وباتَ يهفو ارتياحاً بيننا الغُصنُ[3]

[البسيط]

ولا ينسى ابن زيدون وصف محبوبته التي كانت بيضاء الوجه يتوجـــها شـــعر أصفر اللون :

ربيبُ مُلْكٍ كـــأنّ اللهَ أنشـــأه   مِسكاً وقدَّرَ إنشاءَ الورى طِينـــا

أو صاغَه ورِقاً مَحضاً وتوّجَهُ   مِنْ نَاصعِ التِّبْرِ إبداعاً وتَحسينا[4]

[البسيط]

كما لم يفت الشاعر وصف الأمكنة التي كان يجتمع فيها مع محبوبته ، إنّ كـــلّ شيء في تلك الأمكنة كان يعطف عليهما ويشهد حبّهما ، لقد كانت تلك الأمكنة جميلـــة ؛ لأنّها احتوت عليهما وشهدت لحظات أنسهما ، فوصف الشاعر تلك اللحظات التي قضاها مع محبوبته في الزهراء وفي النبتي وفي الرصافة :

---

(1) ديوان ابن زيدون : 10 – 11 .

(2) ديوان ابن زيدون : 46 – 47 .

(3) ديوان ابن زيدون ورسائله : 162 .

(4) ديوان ابن زيدون : 11 .

و يومٍ بجوفيّ الرّصافةِ مُبْهِــجِ

مررنا بروضِ الأقحوانِ المدبجِ

وقابلنا فيه نسيمَ البنفســـــجِ

و لاحَ لنا وردٌ كخدٍّ مضــــرّجِ

نراه أمام النّور وهــو إمــــامُ[1]

[الطويل]

لقد حذا الشاعر حذو الشعراء الجاهليين الذين كانوا يطنبون في وصف الأمكنة التي كانوا يجتمعون فيها مع محبوباتهم (وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين : الأول إحياء ذكرى تلك الأيام وما فيها ، والثاني أنّ الشاعر يعرف أنّ معاني العشق والحبّ سرعان ما تنفــد ، فهو يتحايل على بثّ شيء من المعاني الأخرى التي لها صلة بذلك كي يتســنى لــه أن يجول في ميدان أوسع ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول مــن أن يدركــها الملل ، فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لإظهار الصــورة التــي يريد أن يبرزها)[2].

لم يكن ابن زيدون الوحيد الذي وصف الطبيعة وأشركها في معاناته ، فهذا ابــن عمار يصنع صنيعه ويتبع خطاه ، فيرثي حاله ويندب حظّه ، ويخيــل إليــه أنّ ســائر الكائنات متعاطفة حزينة على مصابه ، فالغيوم المنهمرة تبكي على حالـــه ، والحمــائم النائحة تنوح حزناً على ما حلّ به ، وصوت الرعد ولمعان البرق إنّما يطلبان الثأر لــه ، أمّا النجوم الزهر في الليالي السوداء فقد لبست ثياب الحداد ، وأقامت المآتم حزناً عليه :

علــيَّ وإلاّ مــا بكــاءُ الغَمائــمِ ... وفيَّ وإلاّ مــا نيــاحُ الحمائمِ

وعنّي أثارَ الرّعدُ صَرخةَ طالبٍ ... لثأرٍ وهزَّ البرقُ صفحةَ صارمِ

وما لبستْ زُهرُ النجومِ حِدادَها ... لغيري ولا قامتْ لَهُ في مَآتِــمِ[3]

[الطويل]

لقد لجأ الشاعر الأندلسي إلى الوصف في أشعاره الاستعطافية ، وجعله غرضــاً ثانوياً ليساعده على تحقيق ما كان يصبو إليه ، وأجاد في وصف الطبيعة حيــن جعلــها تشاركه آلامه وأحزانه ، فبدا وكأنّه جزء منها ، تؤثّر فيه ويؤثّر فيها .

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله : 130 .

[2] بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف : 80 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 372 .

هـ- الهجاء :

كان الشاعر المستعطِف يحاول تبرئة نفسه ؛ فينفي التهم المنسوبة إليه ، ويظهر نفسه بمظهر الإنسان البريء الذي افترى عليه أعداؤه وحسّاده كي ينالوا منه ، ويلحقوا به الأذى والضرر ، وكان الشاعر يحمل على أولئك الأعداء والحسّاد ، فهذا ابن زيدون يتّهمهم بالافتراء عليه كما افترى أبناء يعقوب على أخيهم يوسف – عليه السلام – :

كانَ الوشاةُ وقدْ مُنيتُ بإفكهمْ ... أسباطَ يَعقوبٍ وكنتُ الذّيبا[1]

[الكامل]

وينعت الشاعر أعداءه بالمفسدين الذين يبرعون في إذكاء نيران الفساد ، وهم إنّما تمادوا بإضرار الشاعر ؛ لأنّه يفوقهم في قدره الرفيع ، ويسمو عليهم في خلقه الجميل :

فَديتُكَ كم ألقى الفواغرَ من عِداً ... قِرَاهُمُ لِنيرانِ الفسادِ ثِقابُ

عَفَا عنهمو قَدَرِي الرفيعُ فاهجروا ... وباينهم خُلقي الجميلُ فعابوا[2]

[الطويل]

وأولئك الأعداء ما هم إلاّ حمير تنهق ، وكلاب تنبح ، وذباب يطنّ ؛ لذا ينبغي عدم تصديقهم فيما يزعمون ؛ لأنّهم وشاة كاذبون :

وقد تُسمعُ الليثَ الجحاشُ نهيقَها ... وتُعلي إلى البدرِ النباحَ كلابُ

إذا راقَ حُسْنُ الرّوضِ أو فاحَ طِيبه ... فما ضرّه إن طنّ فيه ذبابُ

فعُدْ بيدٍ بيضاءَ يَصدعُ صِدقُها ... فإنّ أراجيفَ العُداةِ كِذابُ[3]

[الطويل]

ويحمل ابن زيدون على أصدقائه القدامى الذين تنكروا له وحادوا عن صداقته ، وأخذوا يتسقطون أخباره ، ويترقبون عقابه ؛ فكانوا كالذّئاب التي تعتسّ فريستها استعداداً للانقضاض عليها :

ما ترى في معشرٍ حا ... لوا عنِ العَهدِ وخاسوا

ورأوني سامرياً ... يتّقى منه المساسُ

أذؤبٌ هامتْ بلحمي ... فانتهاشٌ وانتهاسُ

---

[1] ديوان ابن زيدون : 133 .

[2] ديوان ابن زيدون : 120 .

[3] ديوان ابن زيدون : 120 – 122 .

كلهمْ يسألُ عن حالي وللذئـبِ اعتسـاسُ[1]

[مجزوء الرمل]

ونجد المعتمد بن عبّاد يحمل على الأعداء الغادرين الذيـن يختـانون العـهود ويغشون في النصيحة ، ويظهرون الحب لكنّهم يبطنون ضدّه ، ويتظاهرون بتقديم النفـع لكنّهم لا يريدون إلاّ الضرر ، إنّ أولئك الأعداء يظهرون ما لا يبطنون ، لكنّ عداوتـهم ظاهرة في ألفاظهم إن تحدثوا ، وفي عيونهم إن نظروا ، إنّهم هم الذين يستحقون العقاب الشديد وليس المعتمد الذي أخطأ خطأً غير مقصود كانت نتيجته هزيمة نكراء في سـاحة المعركة :

ما الذّنبُ إلاّ على قومٍ ذوي دَغَلٍ وفّى لهم عَفوك المعهودُ إذ غدروا

قومٌ نصيحتهُم غـشٌ وحُبّهـمُ بُغْضٌ ونفعهُم إن صَدَقـوا ضـررُ

تميزُ الغيظَ في الألفاظِ إن نَطِقوا وتعرفُ الحِقْدَ في الألحاظِ إن نَظروا[2]

[البسيط]

أمّا ابن عمارٍ فيخصّ بني عبد العزيز بالهجوم ، حيث كان بين الشاعر وبينـهم عداوة ؛ فأخذوا يفترون عليه ، وينسبون إليه مآثم لم يرتكبها ومعايب لم يقترفـها كـي يوغروا صدر المعتمد عليه فيعاقبه ، ويشمتون فيه :

ولا تلفتتْ رأيَ الوشاةِ و قولَهـم فَكُـلُّ إنـاءٍ بالذي فيـهِ يَرشَـحُ

سيأتيكَ في أمري حديثٌ وقدْ أتى بزورٍ من بني عبدِ العزيزِ مُوشَّحُ

تخـيّـلتُهـم لا درَّ لله درّهـم أشاروا تِجاهي بالشّماتِ وصرَّحوا[3]

[الطويل]

كان الشاعر المستعطِف يهجو أعداءه وحسّاده في معرض دفاعه عـن نفسـه ، لكنّه كان معتدلاً في هجائهم ، إذ أنّه لم يشتط ولم يسف في ذمـهم ، فقـد كـان يبغـي الحصول على عطف مستعطَفه ورحمته ، وليس إغاظة حسّاده وأعدائه .

و- الرثاء :

لم يدع الشعراء المستعطفون غرضاً من أغراض الشعر يستعينون فيـه علـى تحقيق هدفهم إلاّ تناولوه في قصائدهم ومقطوعاتهم الاستعطافية ، وإن كان من الطبيعـي أن يمزج الشاعر المستعطِف استعطافه بالمدح أو الغزل أو الفخر أو الوصف أ وهجـاء

---

[1] ديوان ابن زيدون : 82 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 48 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 57 .

[3] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 154 .

الوشاة والأعداء ، إلاّ أنّه من الغريب أن يتناول أغراضاً أخرى في استعطافه كالرثاء والحكمة ، لذا نادراً ما نجد هذين الغرضين في الأشعار الاستعطافية ، ونكاد لا نجد الرثاء إلاّ في الأشعار الاستعطافية لشاعرين اثنين : الأول هو ابن الحناط[1] الذي غضب عليه أبو الحزم بن جهور ؛ فأقصاه عن قرطبة ، وظلّ يعيش في المنفى طيلة حياة أبي الحزم ، وعندما توفي كتب ابن الحناط إلى ابنه أبي الوليد بن جهور يستعطفه ويرجوه كي يأذن له بالعودة إلى بلده مسقط رأسه قرطبة ، ونرى الشاعر يمهد لاستعطافه برثاء أبي الحزم تارة وبمدح ابنه أبي الوليد تارة أخرى ، محاولاً بذلك استمالة قلبه وكسب عطفه ، لقد رأى ابن الحناط أنّ موت أبي الحزم كان رزءاً عظيماً لم يخفف من وطأته إلاّ تولّي أبي الوليد الحكم بعده ؛ لأنّ أبا الحزم كان ملكاً كريماً تقياً ، ، ساس الرعية بالعدل والإنصاف ؛ فأثابه الله بأن أسكنه الجنان العُلى ، أمّا ابنه أبو الوليد فقد اضطلع بمهام الأمر وسار على درب أبيه بسلوك مسالك الكرم والعدل والتقوى ؛ فكان خير خلف لخير سلف ، وكان مثاله وقد خلف أباه كمثل القمر الذي يخلف الشمس :

إنّا إلى اللهِ في الرزءِ الذي فَجِعا	والحمدُ للهِ في الحُكْمِ الذي وَقَعا
ولّى أبو حَزم مِن مُلْكِ تقلّدَه	أبو الوليدِ فعزَّ المُلْكُ و امتنعا
أبٌ كريمٌ غدا الفردوسُ مسكنَه	وابنٌ نجيبٌ تولى الأمرَ واضطلعا
للهِ شمسُ الضحى في اللَّحْدِ قدَ غَرَبَتْ	فأعقبتْ قَمراً بالسَّعْدِ قَدْ طَلَعا[2]

[البسيط]

وينتقل الشاعر لطلب العفو والصفح من أبي الوليد بن جهور راجياً منه أن يقيل زلله ويمنحه العفو الذي يأمله ، ويعرب الشاعر عن ثقته بعفو أبي الوليد ؛ لأنّه – كأبيه – أمير محسن تقيّ سيختار الصفح عن المسيئين ، والتجاوز عن ذنوبهم ابتغاء مرضاة الله وثوابه ، وسيردّ الشاعر الجميل لأميره إن هو عفا عنه ؛ فينظم فيه القصائد المادحة التي يمدحه بها ، ويشيد به ، ولسوف تمحو المدائح تلك القصائد السابقة التي انتقص فيها الشاعر من أبي الوليد وأبيه :

يا واحدَ الدّينِ و الدنيا أقِلْ زَلَلاً	يدعوك جانبه أن تَقتصَّ أو تَدعا
لو أنّه أعطى الدنيا بما رحُبَت	ولم يَنَلْ عفوكَ المأمولَ ما قَنَعا

[1] ابن الحناط : محمد بن سليمان الرعيني ، ويعرف بابن الحناط ، كان مكفوفاً ، برع في الأدب والبلاغة والشعر ، كما كان حاذقاً بالطب والفلسفة ، توفي عام 437هـ في الجزيرة الخضراء . ينظر : الذخيرة لابن بسام، قسم2 ، مجلد1 : 437 . وبغية الملتمس لابن عميرة الضبّي : 77 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم1 ، مجلد1 : 449 .

وما عساكَ سوى الإحسانِ تصنعه	**إلى مسيءٍ رجا عُتباكَ فارتَجَعا**
وليمحونَ مديحي فيكَ من كَتَبٍ	**محواً حديث ملامي حيثما سُمِعَا**[1]

[البسيط]

أمّا الشاعر الثاني الذي تناول الرثاء في استعطافه فهو المعتمد بن عبّاد ، وكما مرّ بنا فقد استعطف المعتمد سجّانه يوسف بن تاشفين تلميحاً لا تصريحاً ، وحاول استثارة عطفه بشتى الوسائل ، فتارة مدح ابن تاشفين ، وتارة ثانية تحدّث عن معاناته في السجن ، وتارة ثالثة وازن بين ما كان عليه وما آل إليه ، وتارة رابعة تحدّث عن مصير أبنائه وبناته بعد محنته ، لقد عاشت بناته وما تبقّى من أبنائه الصغار في ضنك شديد ، أمّا أبناؤه الكبار فقد قتلوا ، وها هو يرثيهم بفؤاد حزين ، ودمع غزير ، لقد كان فقْد المعتمد لأبنائه حلقة في سلسلة مصائب حلّت بساحته ؛ فقد عُزل عن ملكه ، وزُجّ في السجن ، وتشردت بناته ، وقتل أبناؤه ، وقُيِّد وزوجَته بالسلاسل والأصفاد ، وكانا يتقاسمان المعاناة والبكاء تحسّراً على حالهما ، وحزناً على فراق أبنائهما :

هوى الكوكبانِ الفتحُ ثم شقيقُه	**يزيدُ فهل بَعدَ الكواكبِ من صَبْرِ**
أَفَتْحُ لقدْ فتحتَ لي بابَ رحمةٍ	**كما بيزيد الله قد زادَ في أجري**
توليتما و السنُّ بعدُ صغيرةٌ	**ولم تلبثِ الأيامُ إنْ صغرتْ قدري**
فلو عدتّما لاخترتُما العودَ في الثرى	**إذ أنتما أبصرتُماني في الأسرِ**
أبا خالدٍ أورثْتَنِي الهمَّ خالداً	**أبا نصرٍ مُذْ ودّعتَ ودَّعَني نَصري**
وقبلكما ما أودعَ القلبُ حَسرةً	**تجدّدَ طولُ الدَّهرِ ثكْلُ أبي عمرو**[2]

[الطويل]

لقد كان شعر المعتمد يقطر حزناً وأسى ، فحديثه عن معاناته وآلامه وموزانته بين عزّه وذلّه ، ورثاؤه لأبنائه جعلت الذين يطّلعون على أشعاره يتعاطفون معه ، ويرثون لحاله ، أمّا سجّانه يوسف بن تاشفين فقد أصرّ على إبقائه في سجنه مقيداً حتى قضى نحبه فيه ، لقد أثّر المعتمد السجن وآلامه على استعطاف ابن تاشفين ، ومخاطبته مخاطبة الخاضع الذليل الذي يلتمس الرحمة ، ويستجدي العطف .

---

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم1 ، مجلد1 : 450 .

(2) قلائد العقيان لابن خاقان : 12 .

ز- الحكمة :

كانت الحكمة من الأغراض التي قلّما تناولها الشعراء في أشعارهم الاستعطافية ، إذ إنّنا لا نجد سوى شاعرين اثنين تناولا هذا الغرض خلال استعطافهما ، الأول : ابن زيدون الذي نُكب بعدما سخّر شبابه لخدمة أميره أبي الحزم ؛ فوقف إلى جانبه ، وعمل معه بكلّ قواه ، وساهم في تثبيت أركان حكمه ، وأخذ يمدحه ، ويثني عليه في قصائده وأشعاره ، فكان مصيره السجن ، فلم تنفعه مواقفه السابقة مع أميره ، ولا قصائده المادحة له ، أمّا أولئك الذين لم يعملوا عمله ، ولم يقفوا مواقفه فكان جزاؤهم التبجيل والترفيع ، لقد استخلص الشاعر من محنته العبر ، وأدرك أنّ المرء المجدّ قد لا ينال ما يتمناه وإن جدّ في سبيل ذلك واجتهد ، أمّا الإنسان القاعد الخامل فقد ينال ما لم يسعَ إليه، وما لم يجتهد في سبيل تحقيقه ، لقد صاغ الشاعر هذه المعاني في قصيدة أرسلها إلى صديقه أبي حفص بن برد استهلها بالحكمة ؛ فرأى أنّ الأمور المقدّرة ستقع لا محالة سواءً غفل الإنسان عنها أو تنبّه لها واحترس ؛ فالغفلة قد تنجي أحياناً ، أمّا التيقّظ فقد يودي بصاحبه إلى الهلاك ، كما أنّ الدنيا حظوظ ، فمن حالفه الحظ لا يضيره قعود أو تكاسل ، أمّا من لا يحالفه فلا ينفعه جدّ ولا اجتهاد ، إنّ سنّة الحياة قضت بأن يعزّ أناس ويذلّ آخرون ، فالبشر مختلفون ؛ منهم السادة الرفعاء ، ومنهم الأدنياء الحقراء ، وكلا الفريقين متمسك بحياته متمتع بها ، سواء كان شريفاً من الأشراف أو خسيساً من الخُساس :

ربما أشرفَ بالمر	ءِ على الآمالِ ياسُ
ولقد يُنجيكَ إغفا	لٌ ويرديك احتراسُ
ولَكَمْ أجدى قُعودٌ	ولَكَمْ أكدى التماسُ
وكذا الدّهرُ إذا ما	عَزَّ ناسٌ ذلَّ ناسُ
وبنو الأيامِ أخيافٌ[1]	سراةٌ و خُسّاسُ
نلبسُ الدنيا و لكنْ	متعةً ذاك اللباسُ[2]

[مجزوء الرمل]

أمّا الشاعر الآخر فهو ابن حداد الذي استهلّ قصيدة من قصائده بالحكمة قبل أن يسترحم ابن صُمادح ، ويرجوه إطلاق سراح أخيه المعتقل ، لقد رأى الشاعر أنّ الإنسان

---

(1) الأخياف : الناس المختلفون في الأخلاق . ينظر : المعجم الوسيط ، ج1 : 26 .

(2) ديوان ابن زيدون : 82 .

منقاد لحكم زمانه ، وأنّ الدهر يرفع أقواماً ، ويذلّ آخرين ، فإذا رفع الدهر من شأن أحد أو أذلّه فإنّه لا يفعل ذلك عن تعمّد أو سابق إصرار ، ويكون بذلك كالسحاب الذي يفيد غيثه ناحية وقد يضرّ أخرى ، ويرجع الشاعر النفع والضرر إلى الله تعالى لا إلى الدهر أو المزن ، فعلى الإنسان أن يكون راضياً بحكم الله وقضائه :

الدهرُ لا ينفكُّ عن حدثانه ... والمرءُ مُنقادٌ لِحُكمِ زَمانِهِ
فَدَعِ الزَّمانَ فإنّه لمْ يعتمدْ ... بجلالهِ أحداً و لا بهوانِهِ
كالمُزْنِ لمْ يُخصصْ بنافعِ صَوبهِ ... أفقاً ولم يختر أذى طَوفاتِهِ
ولكنْ لباريهِ بواطنِ حِكمةٍ ... في ظاهرِ الأضدادِ مِنْ أكوانهِ[1]

[الكامل]

ويرى الشاعر أنّ الحظوظ تلعب دوراً كبيراً في إسعاد المرء وإتعاسه ؛ فالإنسان مهما سعى فإنّه لن يصل إلى مبتغاه ، ولن يحقق أمانيه ما لم يكن حظيظاً ؛ فاجتهاد الإنسان وسعيه إذا لم يقترنا بحظّ كانا كالرمح الذي لا سنان له :

وعلمْتُ أنّ السعيَ ليسَ بمُنْجحٍ ... ما لا يكونُ السّعدُ مِن أعوانهِ
والجِدُّ دونَ الجَدِّ ليسَ بنافعٍ ... والرمحُ لا يمضِي بغيرِ سنانهِ[2]

[الكامل]

لقد نجح ابن حداد في تحقيق ما كان يصبو إليه ، فما أن بلغت الأبيات المعتصم ابن صُمادح حتى قال : (شعره أعقل منه ، صدق فإنّه لا يتهيّأ له صلاح عيش إلاّ بأخيه وهو منه بمنزلة السنان من الرمح ، ثم أمر بإطلاقه ولحاقه به)[3].

لقد كانت الحكمة في الشعر الأندلسي بعامة دون نظيراتها في الشعر المشرقي ، فقلّة قليلة من شعراء الأندلس تناولها في أشعارهم ، وهؤلاء لم يبلغوا مبلغ نظرائهم المشارقة ، فكانت أشعارهم في الحكمة قليلة ، كما كانت معانيهم فيها سطحية .

لقد رأينا في هذا الفصل أنّ الشعراء المستعطِفين كانوا لا يدعون غرضاً شعرياً يظنون أنّه يساعدهم على تحقيق هدفهم إلاّ تناولوه ، وجعلوه بجانب الاستعطاف غرضهم الرئيس ؛ فخلطوا استعطافهم بالمديح والفخر والغزل والوصف والهجاء والرثاء

---

[1] ديوان ابن حداد : 301 .
[2] ديوان ابن حداد : 302 .
[3] نفح الطيب للمقري ، ج4 : 49 .

والحكمة، وقلّما نجد قصيدة أو مقطوعة شعرية استعطافية لـــم يمـــزج الشـــاعر فيـــها الاستعطاف بغرض واحد أو أكثر من الأغراض الشعرية السابقة .

لقد كانت بعض الأغراض الشعرية ملائمة للاستعطاف ساعدت الشـــاعر فـــي تحقيق مأربه والوصول إلى هدفه ؛ فالمديح كان يتطرّق إليه الشاعر المستعطِف استمالة لقلب من يخاطبه واستدراراً لعطفه ، وقد درج الشعراء المستعطِفون سواء أكـــانوا فـــي المشرق أم في الأندلس على مزج استعطافهم بمدح من يســـتعطفون ، والثنـــاء عليـــهم والتعبير عن حبهم ، إلاّ أن مدحهم كان فاتراً ، ويفتقر لصدق العاطفة ؛ لأنّ الشـــاعر لا يعقل أن يحبّ من نكبه وعاقبه ؛ فيشرع يمدحه ويثني عليه .

أمّا الشعراء الذين فخروا بأنفسهم ، فكان فخرهم ملائماً لاستعطافهم حيناً ، وغير ملائم حيناً آخر ، فعندما ذكّر الشاعر الحاكم بخدماته ومواقفه الجليلة التـــي قدمـــها لـــه ولدولته أراد من وراء ذلك لفت نظر ذلك الحاكم إلى أنّ مناقبه عديدة ، وحسناته كثيرة ، وأنّ الذنْب الذي اقترفه ينبغي أن لا يُنسي الحاكم تلك المناقب والحسنات التي قدّمها إليه في سالف الأيام ، فكان هذا الفخر مناسباً في معرض الاستعطاف ، والأمر ذاته ينطبـــق على الابن الذي استعطف أباه ، وفخر بشجاعته ودماثة أخلاقه ، فكان ذلك حافزاً لـــلأب كي يمنح ابنه العفو الذي يبتغي ، والعطف الذي ينشد .

أمّا عندما فخر الشاعر بنفسه أثناء استعطافه ، وظهر وكأنّه متكبر ومتعالٍ علـــى غيره فقد كان فخره ذاك وبالاً عليه ، إذ أنّه بعمله هذا ألّب عليه صدر الحاكم الذي أصرّ على عقابه ؛ لإذلاله وكسر شوكته ؛ لأنّ عادة الحكام جارية بإيثار اعتراف الخدام لـــهم بالتقصير والتفريط[1]، وإظهارهم التذلل والانكسار خلال استعطافهم .

كما نجد الغزل غرضاً ملائماً اختلط باستعطاف المحبّ محبوبته الواجدة عليـــه البعيدة عنه ، وكان الشاعر صادق العاطفة في تغزّله ، إذ إنّ صدقه في حبها وإخلاصـــه لها جعله يذرف الدموع حزناً على فراقها وأسفاً على بُعْدها ، لقد تحدّث الشـــاعر عـــن ضنك عيشه وبؤس حياته ؛ بسبب ابتعاد محبوبته عنه ، عساه بذلك يستميل قلبها ويستدر عطفها .

كذلك كان الوصف غرضـــاً لائقـــاً للاســـتعطاف ، والوصـــف فـــي الأشـــعار الاستعطافية كان يتمثل في شكلين اثنين : الأول وصف مادي ، حيث وصـــف الشـــاعر أموراً مادية ملموسة كسجنه وقيده ومحبوبته ، أمّا الشكل الثاني فنستطيع تسميته وصفـــاً

---

[1] صبح الأعشى للقلقشندي ، ج9 : 165 .

معنوياً ، حيث وصف الشاعر حاله البائس أثناء نكبته كما وصف حال من قاسموه تلك النكبة من أزواج وأبناء وبنات .

أمّا الهجاء فقد اقتصر على هجاء الأعداء والوشاة الذين اتّهمهم الشاعر بالافتراء عليه ، وبيّن أنّ الكذب والحسد والنفاق وغيرها من الصفات الدنيئة هي ديدن أولئك الوشاة والمفترين ، لقد بدا الشاعر المستعطِف مؤدباً إلى حدّ ما خلال هجائه أعداءه ؛ ذلك أنّه لم يشتط ولم يسرف في ذمهم ؛ لأنّه أراد إظهار نفسه بمظهر الإنسان البريء المفترى عليه المغلوب على أمره أمام أميره .

لقد كان الرثاء فاتراً في الأشعار الاستعطافية ، يفتقر لصدق العاطفة ، وبخاصة عندما كان الشاعر المستعطِف يرثي من نكبه ويتحسر على موته ، وكان رثاؤه له مقدماً لطلب العفو من خليفته ، أمّا عندما كان الشاعر يرثي أهله وآل بيته الذين فقدهم في نكبته فكانت عاطفته صادقة ، وكان رثاؤه لهم يقطر حزناً وأسى ؛ ممّا جعل المطّلعين على شعره يتعاطفون معه ، ويشاطرونه تحسّره ولوعته .

وخلط الشعراء استعطافهم بالحكمة ، وكانت الحكمة في أشعارهم سطحية المعاني ، وتأثر شعراء الحكمة الأندلسيون – على قلتهم – بنظرائهم المشارقة ؛ فجاءت الحكمة في أشعارهم دون نظيراتها في الشعر المشرقي كمّاً ونوعاً .

الفصل الرابع

السّمات الفنيّة لشعر الاستعطاف
في عصر ملوك الطوائف

الفصل الرابع

السمات الفنية لشعر الاستعطاف في عصر ملوك الطوائف

يلفت انتباه الدارس للشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف الكثرة الوفيرة لشعر الاستعطاف ، هذا الشعر الذي تعددت سماته ، بحيث لا يستطيع الباحث أن يحيط بها كلها أو يعرضها مفصلة ، ومن هنا رأيت أن أكتفي بالحديث عن السمات الفنية البارزة ، وهي – كما يرى الباحث – تتمثل في :

أولاً : بناء القصيدة .

ثانياً : اللغة .

ثالثاً : الخيال والصور .

رابعاً : المحسنات المعنوية واللفظية .

خامساً : الأوزان والقوافي .

سادساً : استلهام التراث .

وسأتناول فيما يلي كل سمة من هذه السمات بشيء من التفصيل .

أولاً : بناء القصيدة :

يجدر بنا قبل الحديث عن هذا الموضوع العودة إلى فروع شعر الاستعطاف ، فقد عرفنا أنّ شعر الاستعطاف يتفرع في فروع ثلاثة ، هي : استعطاف الحاكم، واستعطاف المحبوبة ، واستعطاف الوالد ، وقد رأينا أنّ الفرع الأول يستحوذ على القسم الأكبر من الأشعار الاستعطافية ، وهذا الفرع نستطيع تقسيمه إلى قسمين : الأول مخاطبة الحاكم واستعطافه ، أما الثاني فهو مخاطبة وسيط علّه يتوسط للشاعر ويتشفع فيه ، ونبدأ بالحديث عن القسم الأول فنلاحظ أنّ حجم الأشعار التي نظمها الشعراء المستعطفون لم يكن واحداً، إذ إننا نجد القصائد الطوال ، كما نجد المقطوعات الشعرية التي لا تتعدى بضعة أبيات ، إنّ القصائد الطوال كان أصحابها من الشعراء المتميزين في الأدب الأندلسي كابن زيدون وابن عمار وهما – كما نعلم – من فحول شعراء الأندلس ، ومقدرتهما الأدبية تمكنهما من نظم تلك القصائد ، فقد خاطب الشاعر الأول سجّانه واستعطفه بقصائد طويلات ولا نجد له إلاّ مقطوعة شعرية واحدة في هذا المضمار وهي:

قُلْ لِلوزيرِ ، وقدْ قَطعتُ بِمَدحِـهِ	**زمني ، فكان السجن منه ثوابي**
لا تخشَ في حقّي بما أمْضَيْتَـه	**من ذاكَ فِيَّ ، ولا تَـوَقَّ عتابي**
لم تُخطِ في أمري الصواب موفَّقاً	**هـذا جزاء الشـاعر الكـذّابِ**[1]

[الكامل]

أما قصائده التي وقفت عليها فهي : اللامية[2]والرائية[3] واللامية الثانية[4] وقصيدتين بائيتين[5] وقصيدة حائية[6]، أما الشاعر الثاني فقد استعطف المعتمد

---

[1] ديوان ابن زيدون : 255 .

[2] ومطلعها : ألم يأن يبكي الغمام على مثلي ويطلب ثأري البرق منصلتَ النصلِ . الديوان : 159 .

[3] ومطلعها : ما جال بعدكِ لحظي في سنا القمرِ إلاّ ذكرتكِ ذكر العينِ بالأثرِ . الديوان : 147.

[4] ومطلعها : (إياني) في جواركم الذليل وحدّي في رجائكم الكليلُ . الديوان : 164 .

[5] مطلع الأولى : أما علمتْ أنّ الشفيع شباب فيقصر عن لوم المحبّ عتابُ . الديوان : 113 . والثانية : هذا الصباح على سراكَ رقيبا فصلي بفرعكِ ليلكِ الغربيبا . الديوان : 130 .

[6] ومطلعها : أما وألحاظ مراض صحاح تصبي وأعطافٍ نشاوى صواح . الديوان : 145 .

في غير حادثة ، وكانت له في ذلك قصائد طـــوال كالميميـــة[1] والبائيـــة[2] والثائيـــة[3] والحائية[4]، ولا نجد له إلاّ مقطوعة شعرية واحدة كان قد كتب بها إلى المعتمـــد يقـــول فيها:

نفسي تَحنُّ إلى فِـداءِ تَفديكَ نَفسي مِنْ شِـراءِ
فاسبقْ بنقدِك وعدَهُـمْ مُسْترخِصاً لي بالغَـلاءِ
ثمّ امضِ فيَّ على اختيا رِكَ مِنْ فناءٍ أو بقـــاءِ
و اللهِ مـــا أدري إذا قَالوا غَداً يَومُ اللّقَـــاءِ
ما أقتلُ الحاليـــنِ لي إنْ كَانَ خَوفي أو حَيائي[5]

[مجزوء الكامل]

أما المعتمد فكان كسابقيه فحلاً من فحول الشعراء ، ولكنّه استعطف ابن تاشـــفين تلميحاً لا تصريحاً ، فكان الاستعطاف في شعره غير جليّ ، لقد نظم المعتمد في ســـجنه الكثير من القصائد والمقطوعات الشعرية ، ولكنني وقفتُ له عند مقطوعتيـــن نستشـــف منهما استعطافاً مقنعاً ، الأولى ومطلعها :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيدُ في أغماتَ مأسورا[6]

[البسيط]

أما الثانية فقد استهلها بقوله :

قَيْدي أمـــا تَعلـــمنِـــي مُسْلِـمَـــاً أبيتَ أنْ تُشـــفِـــقَ أو تَرحَـمَـــا[7]

[السريع]

---

[1] ومطلعها : عليّ وإلاّ ما بكاء الغمائم ؟ وفيّ وإلاّ ما نياح الحمائم ؟ . الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 372 . وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط4 ، 1997م : 643 .

[2] ومطلعها : أصدّق ظنّي أم أصيخ إلى صحبي وأقضي غريمي أم أعوج مع الركبِ ؟ الحلة الســـيراء لابن الآبار ، ج2 : 135 . وينظر : قلائد العقيان لابن خاقان : 90 . وقد اختلفت روايـــة البيـــت الأول فـــي المصدرين والرواية المذكورة من الحلة السيراء .

[3] ومطلعها : لك المثل الأعلى ما أنا حارث ولا أنا ممّن غيّرته الحوادثُ . الحلة السيراء لابن الآبـــار ، ج2 : 143 .

[4] ومطلعها : سجاياكَ إن عافيت أندى وأسمحُ وعذركَ إن عاقبتَ أجلى وأوضحُ . الذخيرة لابـــن بســـام ، قسم2 ، مجلد1 : 420 . وينظر : قلائد العقيان لابن خاقان : 98 .

[5] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 420 .

[6] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 73 . وينظر : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج3 : 388 .

[7] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 73 . وينظر : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج3 : 379 .

ونجد ابن غصن وابن سيده وابن حداد وابن اللبانة قد استعطفوا بقصائد وإن كانت دون قصائد ابن زيدون وابن عمار طولاً ، أما ابن أزرق والفُكيك فقد استعطفا أميرهما بمقطوعات تتكون من بضعة أبيات . وعندما كان الشاعر يفشل في تحقيق هدفه المتمثل في استدرار عطف حاكمه ، والحصول على عفوه وصفحه كان يلجأ إلى مخاطبة وسيط علّه يتوسط له ويتشفّع فيه ؛ فابن زيدون خاطب ثلاثة من أصدقائه بقصائد طوال[1]. أما ابن عمار فقد خاطب أبناء المعتمد الثلاث ؛ فخاطب الراضي بمقطوعة ، ثم خاطب أخويه الرشيد والمأمون بقصيدتينِ تكادان تتساويان في طولهما ، كما خاطب صديقاً له بقصيدة مطلعها :

أدركْ أخاكَ ولوْ بِقافيةٍ كَالظلِّ يوقظُ نائمَ الزَّهرِ[2]

[الكامل]

حيث استشفع فيها بصديقه ، ورجاه أن يبذل مساعيه من أجل إطلاق سراحه ، وتخليصه من نكبته .

لقد فشل كلا الشاعرين وأخفقا في الحصول على العفو الذي كانا يصبوان إليه ، أما ابن غصن فرأى أن يخاطب ملك سرقسطة (المقتدر) ويطلب شفاعته ؛ حيث خاطبه بقصيدة أتت أكلها ، إذ إنّه نال العفو ، وخرج من سجنه بفضل شفاعة المقتدر .

ويمكننا القول : إنّ القصائد الطوال كانت الأعمّ الأغلب في الأشعار الاستعطافية فقد رأى الشعراء أن يطيلوا في أشعارهم الاستعطافية ؛ ليطنبوا في الحديث عن معاناتهم، وليلحّوا على مَنْ يخاطبون من أجل الحصول على عطفهم وعفوهم ، وليمزجوا استعطافهم بأغراض شعرية أخرى رأوا أنّها تساعدهم في تحقيق هدفهم ، أما المقطوعات الشعرية فكانت قليلة ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ بعضها قد يكون جزءاً من قصائد لم تصل إلينا كاملة ، أو لأنّ الشاعر اكتفى بإنشائها بهذا الحجم ظنّاً منه أنها تفي بالحاجة التي نُظمت من أجلها ؛ فابن عمار – مثلاً – خاطب الراضي بن المعتمد واستشفع فيه بدايةً بمقطوعة ، وعندما اخفق في الحصول على شفاعته رأى أن يخاطب

---

[1] خاطب أبا حفص بن برد بقصيدة مطلعها :

ما على ظني باس يجرح االدهر وياسو . الديوان : 81 .

وخاطب أبا بكر مسلم بن أفلح بقصيدة مطلعها: شحطنا وما بالدار نأي ولا شحطُ وشطّ بمن نهوى المزار وما شطّوا . الديوان : 84 . وخاطب صديقاً آخر بقصيدة مطلعها :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم . الديوان : 123 .

[2] قلائد العقيان لابن خاقان : 92 .

أخويه بقصيدتينِ ، ويلحّ عليهما إلحاحاً أشد من إلحاحه على الراضي كي يتوسـطا لـه ويتشفعا فيه .

قلما نجد مقطوعة أو قصيدة استعطافية اقتصرت على موضوع الاستعطاف ؛ فالمقطوعات والقصائد حوت إلى جانب الاستعطاف أغراضاً ومواضيع أخرى تحدثتُ عنها في الفصل السابق ، وكان المديح أكثر الأغراض الشعرية ملازمة للاستعطاف .

وأمر آخر أودّ الحديث عنه هنا وهو مقدمات القصائد ، فقد رأينـا أنّ الشـعراء المستعطفين لم يستهلوا قصائدهم في موضوع واحد ، فبعضهم حذا حذو الأقدمين وافتتح قصائده بذكر المرأة والتغزّل بها ؛ فابن زيدون استهل ستاً من قصائده التسعة التي وقفتُ عليها بمقدمات غزلية ، وكانت تلك المقدمات حافلة بمشاعر التوجّع والشوق وآلام الحب واضطرابات العشق ، الأمر الذي يجعلنا نشعر أنّ تلك المقدمات وإن كانت غزلية فإنّـها لا تنفصل عن الموضوع الأساسي وهو الحديث عن آلامه ومعاناته في سـجنه قبـل أن يفضي إلى استعطاف ابن جهور ، أو طلب الشفاعة من أصدقائه .

كما استُهِلّت بعض القصائد الاستعطافية بوصفٍ للطبيعة ، والتمس الشعراء مـن عناصرها الرحمة ، وجعلوها تشاركهم آلامهم وأحزانهم ، وتشاطرهم صعابهم ومآسيهم، وينطبق ذلك على ابن زيدون في لاميته الأولى، وعلى ابن عمار في قصيدته الميميـة ، لقد بدت عناصر الطبيعة في هاتين القصيدتين ثائرة وغاضبة وحزينة علـى مـا حـلّ بالشاعرين فكانت المقدمة في القصيدتين مدخلاً ملائماً عبّر الشاعران من خلالهما عمـا يجيش في صدريهما من مشاعر وأحاسيس .

وافتُتِحت قصائد أخرى بالحكمة ، فقد افتتح ابن زيدون قصيدته السـينية التـي يخاطب فيها صديقه أبا حفص بن برد ويرجوه أن يتشفع فيه افتتحها بالحكمـة وصنـع صنيعه ابن حداد عندما خاطب ابن صمادح ورجاه أن يطلق سراح أخيه السجين ، أمـا ابن عمار فقد استهل قصيدته البائية التي أرسلها إلى المعتمد بالوصف ، حيث وصـف حاله البائسة وأموره المضطربة ، ثم افتتح قصيدته الثائيـة بـهجاء الأعـداء والوشـاة والهجوم عليهم ، ولمّا استشفع بأبناء المعتمد بدأ المقطوعة التي خاطب فيـها الراضـي بمدحه وبمدح والده ، وكذلك فعل ابن غصن الحجاري عندما استشفع بعاهل سرقسـطة ؛ فاستهل القصيدة التي أرسلها إليه بمدحه والإشادة به ، وفعل الفُكيك أيضاً في مقطوعتيـه اللتين بدأهما بمدح المعتمد ، أمّا ابن الحنّاط فرأى أن يستهل مقطوعته التي أرسلها إلـى أبي الوليد بن جهور برثاءٍ لوالده ومدحٍ له .

كان الشعراء المستعطفون يفتتحون قصـــائدهم بافتتاحيــات يجعلونــها مقدمـــة لاستعطافهم ، وكان هذا الأمر في بدايات محنهم ، أما عندما طالت معاناتهم ، وبدأ اليأس يتسرب إلى نفوسهم اختلف أمرهم ؛ فأخذوا ينظمون القصائد التي يستهلونها بالاستعطاف مباشرة ، فهذا ابن زيدون يستعطف سجانه بعدما طالت نكبته وأذلّـــه السـجن وطعــن كبرياءه في الصميم ، فيخاطبه في قصيدته اللامية الثانيـــة ، ويســتهلها بالاســتعطاف المهين، حيث رجا سجّانه بتذلل وهوان أن يعفو عنه ويخلّصه من النكبة التي وقع فيها .
وذات الأمر نجده عند ابن عمار الـــذي طـــالت معاناتـــه ، وأدرك أنّ تلـك الأشـعار الاستعطافية التي أرسلها إلى المعتمد وإلى أبنائه لم تُجدِ نفعاً ، فرأى أن يستعطف المعتمد بقصيدة حائية بدأها بالاستعطاف مباشرة ، وكادت تلك القصيدة أن تكون سبباً في العفــو عنه لولا خطأ ارتكبه قرّب المنيّة منه ، أما ابن سيده الضريـــر فكــان شــديد الخــوف والجزع من إقبال الدولة ؛ فاستهل القصيدة التي خاطبه فيها بالاستعطاف مباشرة .

وخلاصة القول أنّ الشاعر عندما كان في مفتتح نكبته وبداية محنته كان يظنّ أن محنته ستزول وشدته ستدول ، وأنّ ما يتعرّض له سحابة صيف ستنقشع ؛ فأخذ ينظـــم القصائد ويجوّدها ، ويتفنن فيها ، ويضمنها أغراضاً شتّى يكون الاستعطاف إحداهــــا ، وكان الشاعر يهدف من ورائها إلى إظهار مقدرته الشعرية ، ثم الحصول علـــى العفــو والصفح، أما عندما طالت محنة الشاعر ، وكسرت جناحه وفلت حدّه لم يعد له إلا هــدف واحد وهو الانفكاك من قيود المحنة التي قيّدته ؛ فأخذ ينظم القصائد التي يستعطف بـــها الحاكم ، ويبدأ قصيدته بالاستعطاف والمديح ، ولا يتطرق فيها إلى غرض آخر سواهما.

أما بالنسبة لتلك الأشعار الاستعطافية التي خـــاطب الشـــاعر فيـــها محبوبتـــه، فتراوحت بين قصائد طوال ومقطوعات قصيرة ؛ فابن زيدون الذي لـــم نجـد لـــه إلا مقطوعة واحدة في استعطاف سجّانه نجد له مقطوعات عديدة في استعطاف محبوبته كما كان له قصائد طوال أشهرها النونيّة[1] والقافيّة[2] واللاميّة[3] والحائيّة[4]، وابن حداد أيضـاً خاطب محبوبته مستعطفاً إياها بالقصائد الطوال والمقطوعات القصار ، أما ابن راشـــد وابن أبي البشر فقد خاطب كلٌّ منهما محبوبته بمقطوعات ، ولعلّ مقدرة هذين الشاعرين الشعرية لم تمكنهما من نظم القصائد الطوال كما فعل من سبقهما .

---

(1) ومطلعها : أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا . الديوان : 9 .
(2) ومطلعها : إنّي ذكرتكِ بالزهراء مشتـــاقا والأفقُ طلقٌ ومرأى الأرض قد راقا . الديوان : 46 .
(3) ومطلعها : لئن قصر اليأس عنك الأمـــل وحال تجنّيك دون الحيل . الديوان : 34 .
(4) ومطلعها : إليكِ من الأنام غدا ارتياحـــي وأنتِ على الزمان مدى اقتراحي . الديوان : 48 .

كانت القصائد والمقطوعات التي استعطف بها الشعراء محبوباتهم تحوي أغراضاً شتى ، ويأتي في مقدمتها التغزّل بالمحبوبة ، ووصف حال الشاعر بعدما هجرته محبوبته وابتعدت عنه ، أما بدايات القصائد الغزلية الاستعطافية فلم تكن واحدة وإن كانت في مجملها تعبّر عن بؤس الشاعر وشقائه ؛ بسبب ابتعاد محبوبته عنه ، لقد استُهلت بعض القصائد بإجراء موازنة بين ماضي الشاعر السعيد عندما كان ينعم بقرب محبوبته ووصالها وبين حاضره البائس بسبب بُعدها عنه وهجرها إياه[1]، وأشعار أخرى استهلت بحديث الشاعر عن حزنه الدائم وبكائه المتواصل[2]، ونجد ابن حداد يستهل قصيدة له بالتوسل لمحبوبته النصرانية ، ويستحلفها بعيسى – عليه السلام – كي تعطف عليه وتمنحه الوصال الذي يبتغيه[3].

كان النصيب الأقل من الأشعار الاستعطافية موجهاً إلى الوالد الواجد على ابنه ، وقد وقفت عند ثلاث قصائد ومقطوعة شعرية واحدة ، القصيدة الأولى للمعتمد افتتحها بدعوة والده إلى التصبّر ونبذ الحزن والهمّ جانباً ، ثم مدحه وأشاد بشجاعته ، وانتقل لوصف حاله البائسة ونفسه المنكسرة بعدما وصله تهديد أبيه ووعيده ، وحمل على الأعداء والوشاة الذين يبطنون ما لا يظهرون ، وفخر بنفسه وبدماثة أخلاقه ، ثم أفضى بعد ذلك إلى استعطاف والده وطلب العفو والصفح منه .

وأما القصيدتان الأخريان فكانتا للراضي بن المعتمد شاعر بني عبّاد بعد أبيه ، وقد افتتحهما بالاعتذار من والده ، ثم فخر بالقصيدة الأولى بنفسه قبل أن يستعطف والده، أما في الثانية فقد استعطف والده أولاً ثم توسّل بابنه الصغير الذي حمل القصيدة لوالده لينال رضاه ويستدر عطفه .

يتضح لنا من الحديث السابق أنّ الأشعار الاستعطافية إما أنها كانت منظومة في قصائد طوال – وهو الأعم الأغلب – وإما في مقطوعات لا تتعدى بضعة أبيات ، ثم لاحظنا أنّ المقطوعة أو القصيدة الاستعطافية احتوت على أغراض شعرية شتى ظنّ الشاعر أنها تساعده في تحقيق هدفه ، إذ إننا لا نجد قصيدة شعرية واحدة اقتصرت على

---

(1) كما في نونية ابن زيدون الشهيرة . ديوانه : 9 .

(2) كما في مقطوعتين لابن حداد ، الأولى مطلعها :

إنّ المدامع والزفير   قد أعلنا ما في الضمير . ديوانه : 222 .

والثانية مطلعها :

رويدك أيها الدمع الهتون   فدون عيان من أهوى عيون . ديوانه : 264 .

(3) والقصيدة مطلعها :

عساكِ بحق عيساكِ   مريحة قلبي الشاكي . ديوانه : 241 .

موضوع الاستعطاف وإن كنا واجدين ذلك في المقطوعات الشعرية الاستعطافية ، ثم إنّ افتتاحيات القصائد اختلفت من قصيدة لأخرى ، فبعضها حذا أصحابها حـذو الأقدمين فافتتحوها بالنسيب وذكر المرأة ، وبعضها استهلت بوصف الطبيعة والالتجـاء إليـها ، وأحياناً كان الشاعر يفتتح قصيدته بالاستعطاف مباشرة .

ثانياً : اللغة :

كانت اللغة في الشعر الأندلسي بعامة لغة طبيعية سهلة لم ترق في صعوبتها إلى المعجم اللغوي الذي تميزت به ألفاظ كثير من الشعر المشرقي ، وكان شعر الاسـتعطاف بالذات أكثر سهولة من سواه ، ذلك أنّ الشاعر المستعطف كان يسعى إلى الحصول على عطف مَن يخاطبه واستمالة قلبه بألفاظ يفهمها دون أن يجعل صعوبة ألفاظه عائقاً فـي سبيل تحقيق هدفه ؛ فاستطاعت تراكيبه وألفاظه أن تؤدي معانيها بطريقة طبيعية سهلة لا تكلّف فيها .

كان الشعراء المستعطفون يلحّون على مَن يخاطبونهم كي يعطفوا عليهم ويعفـوا عنهم ، ونراهم في سبيل ذلك يتناولون المعنى الواحد أكثر من مرّة ، ويعرضونـه فـي صور مختلفة بأبيات شعرية اختلفت ألفاظها ، واتفقـت معانيـها أو تشـابهت ، وكـان الشعراء يلجؤون لتحقيق ذلك إلى الألفاظ المتواردة (وهي التي يقام لفظ مقام لفظ لمعـانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد كقولهم : لمّ الشعث وأصلح الفاسد ورتـق الفتـق وشـعب الصدع)[1]، وقد أكثر الشعراء المستعطفون – لا سيّما أولئك الذيـن طـالت معاناتـهم فأمعنوا في الاستعطاف – من الأبيات الشعرية ذات الألفاظ المتواردة في قصائدهم ، فهذا ابن زيدون يقول في إحدى قصائده :

هبني جهلتُ فكانَ العِلْقُ سيئةً   لا عُذرَ منها سوى أنّي من البشرِ[2]

[البسيط]

ويقول في قصيدة أخرى :

ومثلي قد تهفو به نشوة الصِّبا   ومثْلُكَ مَن يعفو وما لكَ من مِثْلِ[3]

[الطويل]

---

[1] اتفاق المباني وافتراق المعاني : سليمان بن بنين الدقيقي النحوي ، تحقيق يحيى عبد الرؤوف جبر ، دار عمار للنشر والتوزيع – عمان ، ط1 ، 1405هـ / 1985م : 45 . والجمل المذكورة أمثلة على اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني .

[2] ديوان ابن زيدون : 151 .

[3] ديوان ابن زيدون : 162 .

إنّ هذين البيتين وإن اختلفت ألفاظهما إلا أنّهما يتشابهان في معناهما ؛ فالشاعر يعتذر في كلا البيتين لأبي الحزم بن جهور عن خطئه ، ويبيّن أنّه لم يكن مقصوداً؛ لأنّ البشر خطّاؤون بطبيعتهم ، وليس فيهم معصوم عن الخطأ أو الزلل .

وعندما نُكب ابن زيدون نكبته العاطفية بهجر محبوبته وابتعادها عنه أخذ يخاطبها ويتوسل إليها علّها تعطف عليه وتعود إلى سابق عهدها معه ، ونلاحظ جلّ أشعاره في هذا المضمار تدور حول معانٍ محدودة استطاع الشاعر أن يرددها بصورة مختلفة وألفاظ متباينة ، ومن ذلك قوله موازناً بين لحظات سعادته وهنائه حيث كانت محبوبته قريبة منه ، وبين لحظات شقائه وتعاسته بعدما أمست محبوبته هاجرة إيّاه بعيدة عنه :

أضحى التنائي بديلاً مِن تدانينا ... ونابَ عن طيبِ لقيانا تَجافينا

إنّ الزمان الذي ما زالَ يضحكنا ... أُنساً بقربهم قد عادَ يبكينا

وقد نكونُ وما يُخشى تفرُّقنا ... فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا[1]

[البسيط]

فالتنائي وبكاء الزمان والتفرّق ألفاظ عبّرت عن تعاسة الشاعر ، أمّا التداني وإضحاك الزمان والتلاقي فعبّرت عن سعادته وهنائه .

كما أخبر ابن زيدون محبوبته بحزنه الشديد وبكائه المتواصل بسبب هجرها وفراقها ، يقول :

تبكي فراقك عينٌ أنتِ ناظرها ... قد لجّ في هجرها عن هجركِ الوَسَنُ[2]

[البسيط]

ويقول في قصيدة أخرى :

رعى الله يوماً فيه أشكو صبابتي ... وأجفانُ عيني بالدموع شواهدُ[3]

[الطويل]

والشاعر استخدم في البيت الأول الفعل (تبكي) ، أمّا في البيت الثاني فجعل الدموع التي تنهمر من عينيه شواهد على حزنه وبكائه المتواصل .

كما ونجد ابن زيدون يكرر المعنى الواحد في صور مختلفة في أشعاره التي استعطف بها سجانه وتلك التي استعطف بها محبوبته ولاّدة ، فها هو يقول لسجانه :

---

[1] ديوان ابن زيدون : 9 – 10 .

[2] ديوان ابن زيدون : 77 .

[3] ديوان ابن زيدون : 46 .

قد كنت أحسبني والنجمُ في قَرَنٍ ففيمَ أصبحت منحطّاً إلى العَفَرِ[1]

[البسيط]

ويقول لمحبوته :

أرخصتَني من بعد ما أغْلَيتني وحَطَطْتني ولطالما أعليتَني[2]

[الكامل]

يشكو الشاعر في هذين البيتين من أمر واحد وهو انحطاطه من الأوج إلى الحضيض ، حيث كان مقترناً بالنجم ، ثم سجنه أبو الحزم فأمسى لصيقاً بالتراب ، كما كان بقرب محبوبته غالياً عالياً ، أمسى ببعدها عنه رخيصاً حطيطاً .

ونجد شعراء آخرين غير ابن زيدون يصنعون صنيعه ؛ فهذا ابن عمار يخاطب ثلاثة من أبناء المعتمد ملتمساً شفاعتهم بصور مختلفة وألفاظ متباينة ، وعندما استعطف أباهم أعرب عن أمله بعفوه وصفحه ، يقول :

سجاياكَ إنْ عافيتَ أندى وأسمحُ وعذرِكَ إن عاقبتَ أجلى وأوضحُ

وإن كانَ بين الخطتينِ مزيــة فأنتَ إلى الأدنى من الله تجنــحُ[3]

[الطويل]

ويقول في القصيدة نفسها :

ألا إنّ بطشاً للمؤيَّد يُرتمــى ولكنّ حلمــاً للمــؤيّد يرجــحُ

نعم ليَ ذَنْبٌ غير أنّ لحلمــه صفاةٌ يزلُّ الذنْبُ عنها فيسفــحُ[4]

[الطويل]

لقد صاغ الشاعر أمله بعفو المعتمد بصور متباينة ؛ فالمعتمد إن خيّر بين عقاب الشاعر والعفو عنه فإنّه سيختار ما يدنيه من الله ويقرّبه منه ، ثم إنّ المعتمـد يعاقب المذنبين ، ويبطش بالأعداء ، لكنّه قد يسعهم بحلمه ويتغمدهم برحمته ، وعلى الرغم من اعتراف الشاعر بذنبه إلاّ أنّه يعلّق آماله على حلم المعتمد ، ذلك الحلم الذي يفوق الذنوب مهما عظمت ؛ فتسفح عنه كما تسفح الأمطار المنهمرة عن الصخرة الصلدة .

---

[1] ديوان ابن زيدون : 150 .

[2] ديوان ابن زيدون : 6 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 420 . وقلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 153 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 421 . وقلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 153 .

وهذا ابن حداد يتحدث عن بكائه المتواصل في أشعاره التي بثّها محبوبته عساه بذلك يستدرّ عطفها ويستميل قلبها ، يقول :

فكم أبكي عليك دماً ولا ترثينَ للباكي[1]

[مجزوء الوافر]

ويقول في قصيدة أخرى :

رويدكَ أيّها الدمعُ الهتون فدون عيان مَن أهوى عيون[2]

[الوافر]

لقد تحدث الشاعر في هذين البيتين عن بكائه ؛ فذكر الفعل (أبكى) في البيت الأول ، وذكر (الدمع الهتون) في بيته الثاني .

كما عرّض الشعراء المستعطفون بمن يحاولون إفساد العلاقة بينهم وبين مَن يستعطفون وعبروا عن هؤلاء بألفاظ متواردة مثل (الأعداء ، العدا ، الوشاة ، الواشون، القوم ذوو الدغل ...) .

أمّا الترادف[3] الذي عرّفه بعض علماء اللغة على أنّه (ما اختلف لفظه واتفق معناه)[4] فقد أثرى اللغة ، (ولعلّ أبرز العوامل في اشتمال لغتنا على هذا الثراء أنّ المهجور في الاستعمال من ألفاظها كُتِبَ له البقاء ، فإلى جانب الكلمات المستعملة كان مدوّنو المعجمات يسجلون الكلمات المهجورة ، وما هُجِر في زمان معين كان قبل مستعملاً في عصر من العصور ، أو كان لهجة لقبيلة خاصة انقرضت أو غلبتها لهجة أقوى منها، وهجران اللفظ ليس كافياً لإماتته؛ لأنّ من الممكن إحياءه بتجديد استعماله)[5] ومن هنا كان للمعنى الواحد ألفاظ مختلفة تعبّر عنه .

---

(1) ديوان ابن حداد : 241 .

(2) ديوان ابن حداد : 246 .

(3) أنكر بعض علماء اللغة وجود الترادف ، ومن هؤلاء ابن فارس الذي بيّن أنّ للمعنى الواحد اسماً واحداً ، وأمّا ما بعده من أسماء فهي صفات ، يختلف معنى كلّ صفة عن معنى الأخرى ؛ فاسم السيف دلّ على معنى ، أمّا الحسام والصارم والمهند ... فهي صفات للسيف ، أمّا الأفعال فرأى ابن فارس أنّ معاني الأحداث التي تفيدها تشتمل على فروق دقيقة لا تسمح بالقول بالترادف فيها نحو قعد وجلس ، فالقعود يختلف عن الجلوس ، فيقال : كان مضطجعاً فجلس ، وكان قائماً فقعد ، فيكون القعود عن القيام ، والجلوس عن حالة دونه . ينظر : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها : أحمد بن فارس ، المكتبة السلفية – القاهرة ، 1328هـ : 65 – 66 . كما ينظر حجج من قال بالترادف ومن أنكره في كتاب دراسات في فقه اللغة : صبحي الصالح ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط12 ، 1994م : 292 – 301 .

(4) اتفاق المباني وافتراق المعاني لابن بنين : 45 .

(5) دراسات في فقه اللغة العربية لصبحي الصالح : 293 .

وقد وُجد الترادف في الأشعار الاستعطافية التي بحثتُ بـها ، ورأيتُ بعض الشعراء يستخدمونه أحياناً في البيت الواحد ، كقول ابن عمار :

وقالوا : سيجزيه فلان بذنبه   فقلتُ : وقد يعفو فلان ويصفحُ[1]

[الطويل]

فالفعلان (يعفو ويصفح) عبرا عن معنى واحد .

وقوله :

وانتحب في صلاصل الرعد تحكي   ضجتي في سلاسلي وقُيودي[2]

[الخفيف]

فالسلاسل هي القيود .

وهذا المعتمد يخاطب قيده قائلاً :

قيدي أما تعلمني مسلماً   أبيتَ أن تشفقَ أو ترحما[3]

[السريع]

فالفعلان (تشفق وترحم) اختلفا لفظاً ولكن اتفقا معنى .

كما استخدم الشعراء الترادف في أبيات مختلفة ، فهذا ابن زيدون يخاطب أحد أصدقائه متشفعاً فيه ، فيقول :

فلئن أمسيتُ محبو   ساً فللغيثِ احتباسُ[4]

[مجزوء الرمل]

ويقول مستشفعاً بصديق آخر في قصيدة أخرى :

مئون من الأيام خمس قطعتها   أسير وإن لم يبدُ شدّ ولا ربطُ[5]

[الطويل]

فكلمتا (محبوس وأسير) مترادفتان لهما نفس المعنى .

ويقول في قصائد مختلفة :

إن طال في السجنِ إيداعي فلا عجبٌ   قد يودع الجفنَ حدُّ الصارم الذكرُ[6]

[البسيط]

---

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 421 . وقلائد العقيان لابن خاقان : 98 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 426 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 152 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 73 . وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ، ج3 : 379 .

(4) ديوان ابن زيدون : 82 .

(5) ديوان ابن زيدون : 86 .

(6) ديوان ابن زيدون : 149 .

وبقاء الحسام في الجفنِ يَثْنـــي منه بعد المضاء والتصميم[1]

[الخفيف]

أنا سيفك الصّدئ الذي مهما تشأ تعدّ الصقال إليه والتذريبا[2]

[الكامل]

فالصارم والحسام والسيف أسماء مختلفة لمسمى واحد .

وكثرت في الأشعار الاستعطافية ألفاظ وعبـــارات عــبّرت عـــن ذلّ الشـــعراء المستعطفين وهوانهم ، حيث كانت تلك النكبات التي تعرّض لها أولئك الشعراء تـــهزّهم وتعصف بهم ، فمهم من هزّته النكبات هزاً من أول لحظة ، ومنهم من بدا متماسكاً فـــي مفتتح نكبته ثم ما لبث أن اهتزّ وانحنى ؛ فاضطرب أمره وخـــارت عزيمتـــه ، وعلـــى الرغم من أنّ بعض أولئك الشعراء كان من عليّة القوم وذوي الجاه ، لكنّهم عندما نُكبـــوا انحنوا ولم يتجالدوا تجالد العظماء عند المحن ، وهذا يدلّ على أنّهم لـــم يكونـــوا أهـــلاً للرئاسة والجاه ، وإنّما نهضوا من الحضيض إلى المناصب الرفيعة ، ولكنّ نفوسهم ظلّت تنطوي على صغار ذاتي ، فلمّا جُرّدوا من مناصبهم ، وتعرضوا للمحن بـــدت حقـــائق جوهرهم ؛ فأمعنوا في التذلل المهين والاستعطاف المشين ، فها هو ذو الوزارتين ابـــن زيدون الذي كان في بدايات سجنه متماسكاً ومعتدّاً بنفسه يتخلّى عن تماسكه ويـــتراجع عن اعتداده بعدما أثقل السجن كاهله ؛ فيهرق ماء وجهه ، وتتســـلل عبـــارات التذلـــل والهوان إلى شعره ؛ فتارة ينعت نفسه بالذليل الذي يلتمس العطف ويستجدي الرحمة :

(إبائي) في جواركمُ الذليلُ وحدّي في رجائكمُ الكليلُ[3]

[الوافر]

وتارة أخرى يصف نفسه بالسيف الصدئ الذي أتلفه طول بقائه في قرابه .

وهذا ابن عمار يمعن في التذلل والهوان عندما استعطف كي يعود من منفـــاه ؛ فوصف نفسه بالعبد الخاضع الذليل :

أنا العبدُ في ذلّ الخضوع لو أنّني أرى البدرَ تاجي والنجومَ خواتمي

وإنّي إذا أنصفتَ بعـدكَ خـادم لدهري وكان الدّهرُ عندكَ خادمي[4]

[الطويل]

وعندما أذنب ذنباً عظيماً ، وشعر أنّ عقابه سيكون قاسياً أفرط في التذلل ، فقال:

---

[1] ديوان ابن زيدون : 124 .

[2] ديوان ابن زيدون : 132 .

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله : 332 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 375 – 376 .

أصبحتُ في السّوقِ يُنادى على رأسي بأنواعٍ من المالِ
فهل فتًى يبتاعنـــي ماجـــدٌ أخدمه مـــدّةَ إمهالـــي
تاالله لا جـارَ علـى نقـــده من ضمّني بالثمنِ الغالي
أربح بها مولاي من صفقـــةٍ في سلعةٍ من برك العالي[1]

[السريع]

(إنّها معانٍ وكلمات لا ينطق بها إلاّ عبد رقيق وقف على منصة النخّاس يعرض نفســه على المبتاعين ، ويتغنّى بمحاسنه ليغري الحاضرين بالتنافس على شرائه والمسارعة في اقتنائه)[2] .

وحسْب الشاعر ذلاً إنّه يرضى بأيّ حُكم يراه المعتمد بحقّه ، ولو كان في ذلـــك الحُكم موت له ؛ فالشاعر سيستقبل الحُكم بصدر رحب ، وسيبقى قلبه عامراً بحبّ قاتله :

ويهنيهِ إن متّ السلو فإنّني أموتُ وبي شوقٌ إليه مبرّحُ[3]

[الطويل]

وليس ابن عمار وحده الذي يتقبّل حُكم أميره بخيره وشرّه ، بل نجد ابن ســـيده يتحدث عن الأمر نفسه بصورة مشابهة :

وإن تتأكّد في دمي لكَ نيّةٌ بسفكٍ فإنّي لا أحبُّ له حَقْـنا
إذا قتلة أرضتْكَ منّا فهاتها حبيبٌ إلينا ما رضيت به عنّا[4]

[الطويل]

كان المعتمد – الملك وابن الملك – أكثر الشعراء تماســكاً فــي نكبتــه ؛ فقــد استعطف ابن تاشفين تلميحاً وليس تصريحاً ، وعلى الرغم من ذلك نجد في شـــعره مـــا يتنافى مع جلال الملك وهيبته ؛ كالتماسه الشفقة والرحمة من القيد :

قيدي أما تعلمني مسلماً أبيتَ أن تُشفق أو ترحما[5]

[السريع]

إنّ الألفاظ (الذليل والذلّ والعبد والخادم وأخدمه ومولاي وتشفق وترحـــم ...) التـــي وردت في الأبيات السابقة ألفاظ عبّرت عن الذلّ الذي وصل إليه الشعراء المستعطفون .

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 419 .
[2] الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي لفاصل والي : 429 .
[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 421 . وقلائد العقيان لابن خاقان : 98 .
[4] جذوة المقتبس للحميدي ، الباب الثامن : 293 .
[5] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 73 . وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج3 : 379 .

وإلى جانب ذلك وُجدت ألفاظ وعبارات لها علاقة بالاستشفاع ، كقول ابن زيدون مخاطباً أبا الحزم بن جهور :

لكَ الشفاعةُ لا تُثنى أعنّتها دون القبول بمقبولٍ من العذرِ[1]

[البسيط]

وقوله :

للشفيعِ الثناءُ والحمدُ في صو بِ الحيا للرياحِ لا للغيومِ[2]

[الخفيف]

فاشفعْ أكُنْ مثلَ ممطورٍ ببلدته جذلانَ بالوطنِ المألوفِ والوطرِ[3]

[البسيط]

وقول ابن عمار مخاطباً المأمون بن المعتمد :

هلاّ سألت شفاعةَ المأمونِ أو قلتَ ما في نفسهِ يكفيني[4]

[الكامل]

وقوله مخاطباً أخاه الراضي :

هبْكَ احتجبتَ لوجهِ عُذرٍ بيّنٍ بذل الشفاعةِ أيّ شيءٍ فيه[5]

[الكامل]

وقول الراضي مخاطباً أباه المعتمد :

هَبْ زلّتي لبنوّتي واغفرْ فإنّ اللهَ غافر[6]

[مجزوء الكامل]

وقول المعتمد مخاطباً قيده :

ارحم طفيلاً طائشاً لبّه لم يخشَ أن يأتيكَ مسترحما[7]

[السريع]

فالألفاظ (الشفاعة والشفيع واشفع واغفر وارحم ...) ألفاظ لها علاقة بطلب العطف والحثّ على العفو .

---

[1] ديوان ابن زيدون : 151 .

[2] ديوان ابن زيدون : 125 .

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله : 261 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 424 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 151 .

[5] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 423 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 151 .

[6] نفح الطيب للمقّري ، ج4 : 254 .

[7] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 73 . وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج3 : 379 .

لقد بكى الشعراء المستعطفون وذرفوا الدموع أمام محبوباتهم ، ونجد في شعرهم كثيراً من **الألفاظ التي تدلّ على البكاء** ، مثل : (أبكى ، البكاء ، الدموع ، الدمع الهتون ...) ولكنّهم لم يفعلوا ذلك عندما استعطفوا الحكام الذين نكبوهم ، وكأنّ الشاعر أجاز لنفسه البكاء أمام محبوبته ورأى أنّ ذلك لا يمتهن رجولته ولا ينتقص من كرامته ، أمّا البكاء أمام الحاكم فلم يجزه الشاعر لنفسه ، وكأنّه يتنافى مع رجولته ويتعارض مع قدره ، ولم يكن البكاء هو الوحيد الذي حاول الشاعر أن يستميل به قلب محبوبته ، ، فهذا ابن زيدون يذكر محبوبته الأميرة بألفاظ تدلّ على عظمة المُلك وفخامته :

ربيبُ مُلكٍ كأنّ الله أنشأه   مسكاً وقدّر إنشاءَ الورى طينا

أو صاغه ورِقاً محضاً وتوّجه   من ناصعِ التّبرِ إبداعاً وتحسينا[1]

[البسيط]

وهذا ابن حداد الذي كانت محبوبته نصرانية يحفل شعره بألفاظ لها علاقة بالنصارى ؛ كالصلبان والرهبان والنسّاك والكنائس :

فإنّ الحُسنَ قد ولاّ   كَ إحيائي وإهلاكي

وأولعني بصلبانٍ   ورهبانٍ ونُسّاكِ

ولم آتِ الكنائس عن   هوًى فيهنّ لولاكِ[2]

[مجزوء الوافر]

ونجد في الأشعار الاستعطافية **ألفاظاً دلّت على بؤس الشعراء المستعطفين وسوء حالهم** بسبب المحن التي تعرّضوا لها ؛ فذكروا ما سببته لهم تلك المحن من تغيير بدا على أجسادهم ؛ فابن زيدون ذكر الشيب الذي كسا رأسه وهو ما زال في حداثة سنّه، ومقتبل شبابه :

لمْ تطوِ برد شبابي كِبرةٌ وأرى   برقَ المشيبِ اعتلى في عارضِ الشّعرِ[3]

[البسيط]

وتحدث ابن سيده عن هزاله وضعفه بسبب الهموم التي لازمته :

ونضو هموم طلحته طياته   فلا غارباً أبقينَ منه ولا متنا[4]

[الطويل]

---

[1] ديوان ابن زيدون : 11 .

[2] ديوان ابن حداد : 241 .

[3] ديوان ابن زيدون : 148 .

[4] جذوة المقتبس للحميدي ، الباب الثامن : 298 .

أمّا المعتمد فقد أطنب في الحديث عن سوء حاله عندما استعطف والده ، واختار ألفاظاً تعبّر عن ذلك أدقّ تعبير ؛ فذكر جزعه ودمع عينيه وانخفاض صوته وانكسار طرفه ، كما ذكر تغيُّر لونه وشيب رأسه :

فالنفسُ جازعةٌ والعينُ دامعةٌ والصوتُ منخفضٌ والطرفُ منكسرُ

وقد حلِتُ لوناً وما بالجسمِ من سَقَمٍ وشبتُ رأساً ولم يبلغنـي الكِبَرُ

ومت إلاّ ذماء فـيّ يمسكه أنّي عهدتُكَ تعفو حين تقتدرُ[1]

[البسيط]

أكثر الشعراء المستعطفون في قصائدهم من الصيغ الإنشائية التي خرجت عن معناها الأصلي لتؤدي معانيَ أخرى أفادت الشعراء المستعطفين في تحقيق الهدف الذي كانوا يصبون إليه ، وجاء الاستفهام في مقدمة تلك الصيغ ، والاستفهام (هو طلب العلم بالشيء ولم يكن معروفاً من قبل بأداة خاصة ، ولكنّ أدوات الاستفهام قد تخرج عن معانيها الأصلية إلى معانٍ أخرى على سبيل المجاز تُفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال)[2] ، ومن هذه المعاني التي خرج إليها الاستفهام ، ووُجدت بكثرة في الأشعار الاستعطافية الاسترحام[3] ، ومثال ذلك قول ابن زيدون مستعطفاً في قصائد مختلفة :

قد كنتُ أحسبني والنجمُ في قَرَنٍ ففيمَ أصبحتُ منحطّاً إلى العَفَرِ؟[4]

[البسيط]

أفصبرُ مئينَ خمساً من الأيا مِ ناهيكَ عن عـذابٍ أليـمِ[5]

[الخفيف]

فما لكَ لا تختصّني بشفاعةٍ يلوحُ على دهري لميسمها علط؟[6]

[الطويل]

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 48 . والبيان المغرب لابن عذارى المراكشي ، ج3 : 75 . والحلة السيراء لابن الآبار : 57 .

[2] في البلاغة العربية – علم المعاني : عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية – بيروت ، ط1 ، 1974م : 104 .

[3] ينظر : المعاني التي قد يخرج إليها الاستفهام في كتابي في البلاغة العربية – علم المعاني لعبد العزيز عتيق : 104 . والبلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني : فضل حسن عباس ، دار الفرقان – عمان ، ط1 ، 1405هـ / 1985م : 135 .

[4] ديوان ابن زيدون : 150 .

[5] ديوان ابن زيدون : 124 .

[6] ديوان ابن زيدون : 88 .

ومن الاستفهام الذي خرج معناه إلى الاسترحام قول ابن عمار في قصيدة خـــاطب بـــها الراضي بن المعتمد :

هَبْكَ احتجبتَ لوجه عُذْرٍ بيّنٍ … بذل الشفاعةِ أيّ شيءٍ فيه؟[1]

[الكامل]

ومنه قول الفكيك :

فمن رأى شاعراً بالسجنِ مطّرحاً … في ظلمةٍ وهو بالبهتانِ مظلومُ؟[2]

[البسيط]

ومنه قول المعتمد مستعطفاً قيده :

قيدي أما تعلمني مسلماً … أبيتَ أن تُشفق أو ترحما؟[3]

[السريع]

كذلك خرج معنى الاستفهام إلى النفي في كثير من الأبيات الشعرية الاستعطافية، ومن ذلك قول ابن زيدون :

أفي العدلِ إن وافتك تترى رسائلي … فلم تتركن وضعاً لها في يدي عدل؟[4]

[الطويل]

فالشاعر يرى أنّه ليس من العدل أن يُهمل سجّانه رسائله المتتابعة ، وقوله فـــي معرض افتخاره بنفسه :

هل الرياحُ بنجمِ الأرضِ عاصفة ؟ … أم الكسوفُ لغير الشمسِ والقمرِ؟؟[5]

[البسيط]

فالرياح لا تعصف بنجم الأرض ، والكسوف لا يكون إلاّ للشمس والقمر .

ومنه قول ابن عمار :

وهل أنا إلاّ عبدُ طاعتكَ التي … إذا مِتُّ عنها قامَ بعدي وارثُ؟[6]

[الطويل]

فالشاعر ليس إلاّ عبداً لمن يستعطفه .

وقوله في قصيدة أخرى :

---

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 423 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 151 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم4 ، مجلد1 : 373 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 73 . وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج3 : 379 .

(4) ديوان ابن زيدون : 160 .

(5) ديوان ابن زيدون : 148 .

(6) الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 406 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 143 .

عليَّ وإلاّ ما بكاءُ الغمائمِ ؟ وفيَّ وإلاّ ما نياحُ الحمائمِ؟[1]

[الطويل]

فالغمائم لا تبكي إلا على مصابه ، والحمائم لا تنوح إلا في محنته .

ومن الاستفهام الذي خرج معناه إلى النفي قول ابن اللبّانة :

وهبه أطاق عن مثواكَ صرفي أيقدرُ صرفَ قلبي عن هواكَ؟[2]

[الوافر]

فعدو الشاعر عاجز عن صرف قلب الشاعر عن هوى مَن يخاطبه .

كما أفاد الاستفهام معنى التقرير في بعض القصائد الاستعطافية ، ومن ذلك قول ابن عمار :

وهبني قد أعقبتُ أعمالَ مفسدٍ أما تفسد الأعمالُ ثمّت تصلحُ؟[3]

[الطويل]

وقول ابن زيدون مخاطباً محبوبته :

ألم ألزمِ الصبّر كيما أخف ؟ ألم أكثِر الهجرَ كي لا أمل ؟

ألم أرضَ منكِ بغير الرضى وأبدي السرور بما لم أنل؟

ألم أغتفر موبقات الذّنوبِ؟ عمداً أتيتُ بها أم زلل؟[4]

[المتقارب]

وقوله مخاطباً ابن عبدوس غريمه في حبّ ولاّدة :

ألم تنش من أدبي نفحةً حسبت بها المسكَ طيباً يفض؟[5]

[المتقارب]

كما خرج الاستفهام إلى معنى التمني كقول ابن زيدون :

وأين جوابٌ منكَ ترضى به العُلا إذا سألتني بعد ألسنة الحفل؟[6]

[الطويل]

وقوله متشوقاً إلى محبوبته ، متمنياً لقاءها :

يا هل أجالسُ أقواماً أحبّهمُ ؟ كنّا وكانوا على عهدٍ وقد ظعنوا[7]

---

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 372 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد2 : 366 .

(3) قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 153 .

(4) ديوان ابن زيدون : 34 – 35 .

(5) ديوان ابن زيدون : 90 .

(6) ديوان ابن زيدون : 163 .

(7) ديوان ابن زيدون ورسائله : 13 .

[البسيط]

كما وخرج الاستفهام إلى معانٍ كالتحضيض والإنكار والتسوية والتحقير في معرض هجوم الشاعر على أعدائه وشانئيه ، لكنّ هذه المعاني كانت قليلة في الأشعار الاستعطافية لا تستحق الذكر .

كما خرج الأمر والنهي عن معناهما الأصلي ؛ لتفيدا معاني أخرى كان في مقدمتها الاسترحام ، ومن ذلك قول ابن زيدون مخاطباً سجّانه أبا الحزم بن جهور :

لا تله عني فلم أسألك مُعتسِفاً ردّ الصبا بعد إيفاءٍ على الكبر[1]

[البسيط]

وقوله مخاطباً محبوبته ولاّدة :

دومي على العهدِ ما دمْنا محافظةً فالحرُّ مَن دانَ إنصافاً كما دينا[2]

[البسيط]

ومن ذلك أيضاً قول ابن عمار :

أقلني بما بيني وبينك من رضى له نحو روحِ اللهِ بابٌ مُفتّحُ[3]

[الطويل]

كما نجد في الأشعار الاستعطافية صيغاً إنشائية أخرى خرجت عن معناها الأصلي كالنداء والتمني إلاّ أنّها لم تكن شائعة شيوع الصيغ الإنشائية السابقة .

كان الشعراء المستعطفون يعبّرون عما يجيش في صدورهم دون تكلّف يُذكر ، ولكنّ هذا لا ينفي وجود بعض التعقيد والتكلّف في أشعارهم ، ومن ذلك بيت لابن زيدون قلّد فيه الشعراء المشارقة ، وأسفّ فيه إسفافاً شديداً حين ساق مجموعة من أفعال الأمر على سبيل الرجاء والالتماس :

أجِرْ أعِدِ آمن أحسنِ ابدأ عُدْ أكفِ حط

تحفّ ابسُط استألفْ صُنِ احمِ اصطنع أعلِ[4]

[الطويل]

---

[1] ديوان ابن زيدون : 151 .

[2] ديوان ابن زيدون : 13 .

[3] قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 153 .

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله : 271 .

أجر : ابسط حمايتك على من يستجير بك ، أعدِ : أعن ، اكف : أعطِ كفاية ، حطّ : تعهد ، تحفّ : رحّب ، اصطنع : اتخذ الصنائع التي تجذب بها القلوب إليك ، أعلِ : ارفع من تشاء . ينظر : ديوان ابن زيدون ورسائله هامش ص 271 .

وبطريقة مشابهة خاطب ابن زيدون فن محبوبته الشاعرة ببيت احتـــوى ســت خصال متتالية من صيغ الطباق والتقسيم ، وإن كان قد أجاد في هذا البيت كصنعة بديعية إلاّ أنّه لا يخلو من تكلّف وتعقيد لفظي :

تِه احتملْ واستطل اصبرْ وعز أهن   وولِّ أقبلْ وقل اسمع ومُر أطع[1]

[البسيط]

كذلك نجد تكلفاً وتعقيداً في بيت ابن عمار الذي خاطب به الرشيد بن المعتمد :

وإلى أينَ في الشّفيعِ إذا ما   لم ألذ منك عنده بالرشيد[2]

[الخفيف]

كما نجد تكلّفاً واضحاً في بيت الراضي بن المعتمد الذي استعطف به والده :

وأحسن ما سمعت به عزيزٌ   يناديه فيرحمه ذليلُ[3]

[الوافر]

ولعلّ الشاعر أراد القول : وأحسن ما سمعت به ذليلٌ ينـــادي عزيـــزاً مســترحماً أيّـــاه فيستجيب له ويرحمه .

وخلاصة حديثنا السابق أنّ هناك أموراً يمكن ملاحظتـــها فـــي لغـــة الأشـــعار الاستعطافية : منها أنّ اللغة كانت سهلة لم ترقَ إلى مســـتوى جزالـــة ألفـــاظ الشـــعر المشرقي، كما ردّد الشعراء المستعطفون معانيهم بألفاظ مختلفة وصور متباينة معتمديـــن على الألفاظ المتواردة والترادف ، ونلحظ في الأشعار الاستعطافية ألفاظاً وعبارات لـــها علاقة بالاستعطاف والاعتذار ، كما نلحظ ألفاظاً وعبارات أخرى عبّرت عـــن معانـــاة الشعراء وآلامهم أثناء محنهم تارة ، ودلّت على المستوى المـــهين الـــذي وصـــل إليـــه الشعراء المستعطفون من التذلل وإهراق ماء الوجه تارة أخـــرى ، كمـــا نجـــد صيغـــاً إنشائية خرجت عن معناها الأصلي لتؤدي معاني أخرى خدمت الشـــعراء فـــي تحقيـــق أهدافهم ، وعلى الرغم من أنّ التعقيد والتكلف كانا نادرينِ في الأشعار الاســـتعطافية إلاّ أنّهما وجدا في بعض الأبيات .

ثالثاً : الخيال والصور :

حفلت الأشعار الاستعطافية بمجموعة من الصور تنمّ عن الخيال الأدبي الـــذي كان يتمتع به الشعراء المستعطفون ، وكانت الصور الفنية في أشعارهم غير متكلفة فـــي

---

[1] ديوان ابن زيدون : 68 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 428 .

[3] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 72 .

عامتها ، كما أنهم التزموا في الأعمّ الأغلب بـالصور التقليديـة الخاصـة بـالممدوح والمحبوبة، وكأنّ المحن والنكبات التي تعرّض لها هـؤلاء الشـعراء قيـدت إبداعـهم وخيالهم، وعلى الرغم من ذلك لا نعدم عندهم بعضـاً مـن الصـور الفنيـة الجديـدة والتشبيهات المبتكرة التي ستكون موضوع حديثنا .

كان ابن زيدون من أكثر الشعراء المستعطفين إنتاجاً شعرياً ، واستطاع أن يوفر لقصائده عنصر الجمال الفني بما استخدمه من تصوير كان بعضه مبتكراً جديداً ، ومـن ذلك قوله يمدح سجّانه أبا الحزم بن جهور :

وذو تُدْرَأ للعزم تحت أناتــه ... كمونُ الرّدَى في فَترةِ الأعينِ النّجلِ

تُغِصُ ثنائي مثلما غصّ جاهداً ... سِوارُ الفتاةِ الرّادِ بالمَعصمِ الخَـدلِ[1]

[الطويل]

فالممدوح كما صوّره الشاعر ذو عزّة ومنعة يكمن العزم والحزم تحت هدوئـه واتزانه ، كما يكمن التأثير النافذ في انكسار العيون الساحرة ، ومحامد الممدوح كثـيرة يضيق ثناء الشاعر عن استيعابها ، كما يضيق السوار بمعصم الغادة الحسناء الممتلـئ . ويمدحه في القصيدة ذاتها قائلاً :

هُمامٌ عريقٌ في الكِرامِ وقلّما ... تَرى الفرعَ إلاّ مُستمدّاً من الأصلِ

إذا أشكلَ الخطب الملمّ فإنّه ... وآراءه كالخطّ يوضح بالشّكـلِ[2]

[الطويل]

فالممدوح همام كريم ، والكرم ليس طارئاً عليه بل هو أصيل في آبائه وأجـداده الذين هم كأصل الشجرة ، أما أبناؤهم – وأبو الحزم واحـد منـهم – فـهم كفروعـها وغصونها ، والممدوح أيضاً ذو بصيرة ثاقبة ورأي صائب ، وآراء الحكماء تبقى ناقصة ما لم يعززها رأي أبي الحزم ، إنّ مثال رأيه وآراء الحكماء عند اشتداد الخطوب كالخط المهمل المبهم والشكل الذي يوضحه ويزيل الإبهام عنه .

أما ابن عمار فيمدح الرشيد بن المعتمد استجلاباً لقلبه والتماساً لشـفاعته في سلسلة من التشبيهات البليغة ، إذ يقول :

أنتَ إمـا اعترضتُـم دُرّةُ التّـا ... جِ فرندُ الحُسام وسطى الفريدِ

وإذا مـا مُدِحتـم نكتـة الخُطبـ ... ـةِ فَصُ الحديثِ بيتُ القصيدِ

وإذا ما ركبتم الخيلَ صدر الجيـ ... ـشِ عينُ اللواءِ قلبُ الحديـدِ

---

(1) ديوان ابن زيدون : 160 .

(2) ديوان ابن زيدون : 160 .

أنتَ فيهم إن يُعتموا ليلةَ القـــد ـــرِ وإذ يصبحون يـومَ العيـدِ[1]

[الخفيف]

لقد كان الغرض من تشبيهات ابن زيدون وابن عمار (تقرير حال المشبه حتى تتضح صورته في النفس)[2].

فكلا الشاعرين جعل تشبيهاته في معرض المدح ، حيث بيّن ابن زيدون أنّ مَـن يستعطفه ذو عزّة ومنَعة ، محامده كثيرة ، يجمع إلى جانب كرمه عقلاً راجحـاً ورأيـاً سديداً ، أمّا ابن عمار فجعل الرشيد يتقدّم على سائر آل عبّاد بسلسلة التشـبيهات التـي ساقها ، وكأنّ الشاعرين أرادا حثّ مَن يخاطبون على الرفق فيهما ، والعفو عنهما ، كي يثبتا أنّهما أهلٌ لما مُدِحا به .

لقد بيّن الشاعر بهذه التشبيهات أنّ الممدوح يتقدّم على سـائر آل عبّـاد ، وأنّ شفاعته لا تُردّ ، وكأنّه بذلك يحثّه على التشفّع فيه وبذل أقصى جهوده من أجل ذلـك ؛ ليثبت أنّه أهلٌ لما مدحه به الشاعر .

ونرى اللون واضحاً جلياً في بعض صورهم وتشبيهاتهم وبخاصـة فـي تلـك الأشعار التي أرسلوا بها إلى محبوباتهم مستعطفين إياهنّ ؛فهذا ابـن زيـدون يتغـزّل بمحبوبته (ولادة) سليلة الملوك التي فاقت بنات جنسها حُسناً وجمالاً ، وكأنّ الله خلقـها من المسك وخلق غيرها من الطين ، إنّ محبوبة الشاعر بيضاء البشـرة كأنـها فضـة صافية ، وشعرها ذهبيّ لامع كأنها توّجت بتاج من الذهب الخالص الناصع :

ربيبُ مُلْكٍ كأنّ اللهَ أنشـأه مِسكاً وقدّرَ إنشاءَ الورى طِيـنا

أو صاغه وَرِقاً مَحضاً وتوّجه من ناصع التّبرِ إبداعاً و تحسينا[3]

[البسيط]

أما ابن أبي البشر فشبّه دمه بالحناء الذي خضّب خديّ محبوبته الأحمرين :

أظنّ خديكَ من جاري دمي اختضبا لقد تناهيتَ في قتلي وقد ظرفا[4]

[البسيط]

وبدت الحركة في بعض صورهم وتشبيهاتهم ، فهذا ابن عمار يشـبّه المعتمـد بالبحر ويشبّه نفسه بالسفينة التي تمخر في عبابه ، ونرى تشبيهه هذا ينبـض بحركـة

---

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 428 .

(2) البلاغة فنونها وأفنانها – علم البيان والبديع – : فضل حسن عباس ، دار الفرقان – عمان ، ط1 ، 1407هـ / 1987م : 113 .

(3) ديوان ابن زيدون : 10 .

(4) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، ج1 : 11 .

البحر المضطرب ، وحركة راكبيه وقد هاج البحر وتلاطمت الأمواج ، وتلاعبت بسفينتهم ، وأوشكوا على الغرق وأخذوا ينظرون بلهفة إلى مَن يمدّ لهم يد الرحمة ؛ فينقذهم ويخلصهم من محنتهم :

بحرٌ إذا رَكِبَ العُفاةُ سكونَـه — وهبَ الغنى في عزّة و سكون
واليومَ قد أصبحتُ في غمراتِه — إن لم تُغثني رحمةٌ تُنجيني
بَعُدتْ سواحِلُه عليّ وأدركتْ — أمواجه فتلاعبتْ بسفيني
لا شكَّ في أنّي غريقُ عُبابه — إنْ لم يمُدَّ الفتْحُ لي بيمينِ[1]

[الكامل]

واستخدم الشعراء التشبيهات في معرض وصفهم للسجن الذي اعتقلوا فيه ؛ فابن عمار اعتقل في سجن عالٍ كأنّه صرح بنته الجنّ ؛ لترقى إلى النسور وطيور السماء الجارحة :

عالٍ كأنّ الجنّ إذ مردت — جعلته مرقاة إلى النسرِ[2]

[الكامل]

أما ابن غصن فقد زُجّ به في سجن ضيق ؛ كأنه ظلف شاة ، إما قيده فكان صوته كصوت الخطيب الذي يعلو مؤذّناً بقدوم الخطوب والمحن :

في محلٍّ كأنّه ظِلفُ شاةٍ — ليس فيه لذي دبيبٍ دبيبُ
وكأنّ الكبْلَ الثقيلَ إذا ما — رنّ في الساقِ للخطوب خطيبُ[3]

[الخفيف]

لقد كان الغرض من التشبيهين السابقين (بيان حال المشبه) ، حيث بيّن ابن عمار وابن غصن حال السجنين اللذين اعتقلا فيهما ؛ فالأول كان مرتفعاً ، أمّا الآخر فكان ضيّقاً[4] .

وعندما افتخر الشاعر بنفسه وبدا متجالداً في مصيبته أمام الشامتينَ بحاله لجأ في ذلك إلى التشبيه الضمني ؛ لأنّ فيه تعبيراً دقيقاً عن حال الشاعر المنكوب المنكسر الذي يأبى أن يُظهر انكساره أمام أعدائه وشانئيه ، يقول ابن زيدون مفتخراً بنفسه أمام الأعداء والشامتينَ :

---

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 424 .

(2) قلائد العقيان لابن خاقان : 92 .

(3) أعتاب الكتاب لابن الآبار : 220 .

(4) البلاغة فنونها وأفنانها – علم البيان والبديع لفضل عباس : 114 .

ولا يُغبطُ الأعداءُ كونيّ في السّجـــنِ
فإنّي رأيتُ الشّمسَ تُحصَنُ بالدّجـنِ
وما كنتُ إلاّ الصارمَ العضبَ في جَفْنٍ
أو الليثَ في غابٍ أو الصقرَ في وكنِ[1]

[الطويل]

فالصورة التي رسمها الشاعر لنفسه وقد سُجن كالشمس تختفي وراء الغيوم الكثيفة ، ولا بدّ لتلك الغيوم أن تنقشع يوماً ؛ فتشرق الشمس من جديد ، وهو كالسيف البتّـــار الـــذي يودع في قرابه لحين الحاجة إليه ، أو كالأسد والصقر اللذينِ يقبعان في أوكارهما حينـــاً ثم ينطلقان ، وكان غرض الشاعر من هذه الصور الفنية (تزيين المشبه)[2] .

أما ابن عمار فيسلك سبيل التشبيه الضمني عند حديثه عن أعدائـــه وشـــانئيه ، فيقول :

ولا تلتفت رأيَ الوشاةِ وقولَهُم فَكُلُّ إناءٍ بالذي فيه يَرشحُ[3]

[الطويل]

فالوشاة والمفسدون كالأواني التي ترشح بما فيها ، فلا يتوقع منهم إلاّ أن يُظهِروا بعض ما تضمّه صدورهم .

وإلى جانب التشبيهات نرى الشعراء المستعطفين يســـتخدمون الاســتعارات فيقومـــون بتشخيص الموجودات من حولهم ، وإسقاط الروح والحياة على الجمادات لجعلها كائنـــات تحسّ وتشعر بمعاناتهم ، وتخفّف عنهم ، (وهذا الاتجاه يعكس حاجة الشاعر المنكـــوب الشديدة والملحّة لوجود شريك له في المحنة قريب من القلب والروح ، يبثه شكواه ويجـد عنده صدراً واسعاً يرتاح إليه ويداً رقيقة تحنو على جراحه)[4]، ولقد استهلّ ابن زيـدون وابن عمار قصيدتين من قصائدهما الاستعطافية بالتماس الرحمة من الكائنات المحيطـــة بهما، فالأول استهلّ قصيدته بقوله :

ألم يأنِ أن يبكي الغمامُ على مثلي ويطلبُ ثأري البرقُ منصلتُ النصلِ
وهلاّ أقامت أنجُمُ الليـلِ مأتمـاً لتندبَ في الآفاقِ ما ضَاعَ من نثلي

---

[1] ديوان ابن زيدون : 43 .

[2] البلاغة فنونها وأفنانها – علم البيان والمعاني لفضل عباس : 114 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 421 . وينظر : قلائد العقيان لابن خاقان : 98 .

[4] تجربة السجن في الشعر الأندلسي لرشا عبد الله الخطيب ، المجمع الثقافي – أبو ظبي ، 1999م : 178 – 179 .

ولو أنصفتني وهي أشكال همّتي — لألقت بأيـدي الذلّ لمّا رأت ذلّـي[1]

[الطويل]

أما الثاني فافتتح قصيدته قائلاً :

عليّ وإلاّ ما بكـاء الغمائـمِ ؟ — وفيّ وإلاّ ما نيـاحُ الحمائـمِ ؟

وعنّي أثار الرعدُ صرخةَ طالبٍ — لثأرٍ وهزّ البرقُ صفحةَ صارمِ

وما لبست زهر النجوم حدادها — لغيري ولا قامت له في مآتمِ[2]

[الطويل]

بدأ الشاعران قصيدتيهما بأسلوب استفهامي فقاما بتشخيص الكائنـات وأسـقطا الروح والحياة على الجمادات ؛ فالغمام يبكي على ما حلّ بهما ، والبرق والرعد يطالبان بالثأر لحقّهما المهضوم ، أما نجوم الليل فقد أقامت المآتم ولبست ملابس الحـداد حزنـاً على ما أصابهما .

كانت الطبيعة حاضرة في أشعار الأندلسيين الذين أبدعوا في وصفها وأجادوا في تشخيصها ؛ فابن زيدون جعل النسيم يعتلّ ، وجعل الزهر يبكي إشفاقاً عليه وتعاطفاً معه بعدما هجرته محبوبته :

إنّي ذكرتُكِ بالزّهراءِ مُشتاقـا — والأفقُ طَلقٌ ومرأى الأرضِ قدْ رَاقا

وللنّسيمِ اعتلالٌ في أصائلِـه — كأنّـه رَقّ لـي فاعتـلّ إشفَـاقـا

نَلهو بِما يَستميلُ العينَ من زهرٍ — جالَ الندى فيه حتى مالَ أعنـاقـا

كأنّ أعينَـه إذ عاينـتْ أرَقـي — بكتْ لِما بي فجالَ الدّمعُ رَقـراقـا[3]

[البسيط]

أما المعتمد فشكا إلى القيد ما يعانيه والتمس منه الرحمة والشفقة ، فقـد جعلتـه الوحدة يبحث عن رفيق يناجيه ويبثه آلامه وأحزانه ، وإن كان ذاك الرفيق هو ذاته سبب آلامه وشقائه ، يقول :

قيدي أما تعلمني مُسلماً — أبيـتَ أن تُشفق أو ترحما

دمي شرابٌ لكَ واللحمُ — قد أكلته لا تهشم الأعظما[4]

[السريع]

---

[1] ديوان ابن زيدون : 159 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 372 .

[3] ديوان ابن زيدون : 46 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 73 . وينظر : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج3 : 379 .

إنّ الشعراء المستعطفين اسقطوا الحياة على الكائنات والجمادات القريبة منـــهم ، وجعلوها كالبشر تشاركهم همومهم ومصائبهم في استعارات رائعــــة تعكــس الدوافــع المضطربة داخل نفوسهم ، واتخذوا من تلك العناصر والكائنات شركاء لهم في همومـــهم تحس وتتألم وتتوجع ؛ لذلك دبّت الحياة في تلك الكائنات فبكت وحزنت وطالبت بالثـأر ، وشفقت ورحمت كل ذلك في إطار وصفٍ لمشاعر الشعراء المضطربة التي مرّوا بها .

واستخدم الشعراء الاستعارة التمثيلية ، كما استخدموا التشـــبيه الضمنـــي فـــي معرض فخرهم بنفسهم وتجلّدهم أمام الأعداء والشامتين ، يقول ابن زيدون:

يلبدُ الوَرْدُ السَبَنْتـــى   وله بعدُ افتــراسُ

فتأمّل كيف يغشـــى   مقلةَ المجد النعاسُ

ويفتّ المسك في التّر   ب فيوطأ و يداسُ[1]

[مجزوء الرمل]

لقد جعل الشاعر مثاله وقد حُبس ونُكب كمثال الأسد الجريء الذي يلبد لفريسته، وكمثال المجد الذي تعتري مقلته النعاس ، إنّ إهانة الشاعر وإذلاله كإلقاء المسك النفيس في التراب لتدوسه الأقدام وتطأ عليه .

واعتمد الشعراء المستعطفون أيضاً على أسلوب الكناية ، وأكثروا مـــن ذلــك ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنّ الكناية لا تحتاج إلى الخيال العميق من ناحية ، ثم أنّها من وسائل تقصير العبارة من ناحية أخرى ؛ فابن زيدون خاطب أمه الحزينة قائلاً لها :

أمقتولةَ الأجفانِ مالكِ والهاً   ألم تَرِكِ الأيامُ نَجماً هوى قبلي[2]

[الطويل]

ويكنى الشاعر بالنجم الذي هوى عن نفسه وقد حُطّ من الأوج إلى الحضيــض ، وذُلّ بعد عزّ .

ويستخدم الكناية مرّة أخرى في المعنى ذاته ، فيقول :

قد كنتُ أحسبني والنجمَ في قَرَنِ   ففيمَ أصبحتُ منحطّاً إلى العَفَرِ؟[3]

[البسيط]

فالشاعر استخدم عبارة (والنجم في قرن) كناية عن الرفعة ، واستخدم عبـــارة (منحطّاً إلى العفر) كناية عن الدنوّ والانحطاط .

---

[1] ديوان ابن زيدون : 83 .

[2] ديوان ابن زيدون : 160 .

[3] ديوان ابن زيدون : 150 .

ويمدح ابن زيدون سجّانه قائلاً :

كم اشترى بكَرى عَينيه مــن سَــهر   هدوءَ عينِ الهُدى في ذلك السّهرِ

في حضرةٍ غَابَ صرف الدهرِ خشيته   عنها ونام القَطا فيها ولم يُثـــر[1]

[البسيط]

فالشاعر كنى بعبارة (نام القطا فلم يثر) عن الأمن والأمان اللذينِ سادا البـــلاد في ظل حكم أبي الحزم بن جهور .

أما ابن اللبانة فشكا من الأيام أثناء استعطاف أميره ، فقال :

أجفَتْني فلم يَنْبت ربيع   وحطتني فلم يثبت يفاع[2]

[الوافر]

وكنى الشاعر بقوله (لم ينبت ربيع) و (لم يثبت يفاع) عـــن قســوة الأيـــام وشدتها .

واستخدم الشعراء الكنايات في معرض استعطافهم محبوباتهم ، فقد خاطب ابـــن زيدون محبوبته قائلاً لها :

وفي الجوابِ متاعٌ إن شفعتِ به   بيضُ الأيادي التي ما زلتِ تولينا[3]

[البسيط]

فالأيادي البيضاء كناية عن ما فعلته تلك الأيادي وقدمته للشاعر .

أما أبو الفضل مشرف بن راشد فأعلم محبوبته بأساه وضناه ؛ بسبب ابتعادهـــا عنه وهجرها إياه :

فالأسى بينَ ضُلوعِي   والضَنَا بين ثيابي[4]

[مجزوء الرمل]

ونرى الشاعر يستخدم الكناية عن نسبة حين ينسب الأسى إلى ضلوعه، والضنـــا إلى ثيابه .

إنّ الشعراء السابقين قد استخدموا الكنايات في الأمثلة السابقة ؛ فابن زيدون قـــد استخدم كناية الصفة[5] في عباراته (نجماً هوى ، والنجم في قرن ، منحطّاً إلى العفــر)

---

[1] ديوان ابن زيدون : 149 .

[2] الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد2 : 686 .

[3] ديوان ابن زيدون : 13 .

[4] خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي ، قسم4 ، ج1 : 16 .

[5] ينظر أقسام الكناية في كتاب في البلاغة العربية – علم البيان : عبد العزيز عتيق ، دار النهضة – بيروت ، ط1 ، 1974م : 210 .

ليعبّر عن الحال الذي كان عليه ، والحال الذي آل إليه بعدما نُكِب وسُجِن ، وعندما مدح سجّانه تمهيداً لاستعطافه استخدم كناية الصفة بعبارته (نام القطا فيها فلم يثر) ليصف الزمن الآمن الذي ساد في ظل حُكم ابن جهور ، ثم استخدم كناية الموصوف بقوله : (بيض الأيادي) تعبيراً عن ما قدّمته تلك الأيادي للشاعر ، ولجأ ابن اللبّانة إلى كناية الصفة بعبارتيه (لم ينبت ربيع ولم يثبت يفاع) ليعبّر عن قسوة الأيام التي ابتلي بها ونُكِب ، أمّا ابن راشد فنسب الأسى لضلوعه والضنا لثيابه مستخدماً كناية النسبة .

إنّ العبارات السابقة لم تحتج إلى ذلك الخيال العميق الذي وجدناه في التشبيهات والاستعارات ، ثم أنّها عبارات موجزة جمعت معاني كثيرة في ألفاظ قليلة ، فكانت وسيلة لتقصير العبارة ؛ لأنّها أغنت عن الإطناب في الحديث والاسترسال في الوصف .

نلاحظ مما سبق أنّ الشعراء المستعطفين قد اهتموا بالتصوير الفني ، وكانت بعض صورهم جديدة مبتكرة ، وقد لجأوا إلى الصورة الفنية واتخذوها وسيلة لتوضيح معانيهم ، وجعلها أكثر تأثيراً وجمالاً ، كما حاولوا من خلال تلك الصور استثارة عطف مَن يستعطفون واستمالة قلوبهم .

رابعاً : المحسنات المعنوية واللفظية :

نُظمت الأشعار الاستعطافية في مجملها في لحظات قاسية وفترات عصيبة ، وعلى الرغم من ذلك كانت هذه الأشعار مكسوّة بحلل بهية تزيدها بهاءً ورقّة ، ومن هذه الحلل المحسنات المعنوية واللفظية التي جاءت خدمةً للنص وللمعنى دون تكلّف يُذكر ، وكانت في مقدمة المحسنات المعنوية الطباق والمقابلة ، وقد لجأ الشعراء المستعطفون إليهما في **معرض موازنتهم بين ما كانوا عليه قبل نكبتهم وما آلوا إليه بعدها** ؛ فهذا ابن زيدون يوازن بين أيام عزّه ورفعته ، حيث كان يطأ النجم بأخمصه وبين أيام ذلّه وهوانه، حيث أمسى خدّه موطئاً لمن يخطو :

أما وأرتني النّجمَ موطئَ أخمصي لقد أوطأتْ خدّي لأخمص مَن يخطو[1]

[الطويل]

وكما عرفنا فقد نُكب ابن زيدون مرتينِ : مرّة من أبي الحزم بن جهور الذي زجّ به في السجن ، وأخرى من محبوبته التي قلته وابتعدت عنه ، وكما استعطف سجّانه كي يطلقه استعطف محبوبته كي ترقّ لحاله وتعود إليه ، ونراه يكثر من استخدام الطباق والمقابلة في استعطافها ، وخاصة في قصيدته النونية الشهيرة التي قابل فيها بين التداني

---

[1] ديوان ابن زيدون : 86 .

والطيب والتلاقي والضحك ، والليالي البيضاء من ناحية وبين التنائي والتجافي والتفـوّق والبكاء والأيام السوداء من ناحية أخرى :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا — وناب عن طيبِ لقيانا تجافينا

إنّ الزمان الذي ما زال يضحكنا — أُنساً بقربهم قد عاد يبكيـــنا

وقد نكون وما يُخشى تفرّقـــنا — فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا

حالتْ لفقدِكُم أيّامنا فغــــــدتْ — سوداً وكانتْ بِكم بيضاً ليالينا[1]

[البسيط]

ويمزج الشاعر المقابلة مع التقسيم حين يستعطف محبوبته ويخاطبها قائلاً :

ته أحتمل واستطل اصبر وعزّ أهُن — وولّ أقبِل وقُل أسمع ومُر أُطِع[2]

[البسيط]

ويطابق ابن عمار بين البُعد والقرب حين كان يأنس بقرب المعتمد أما بعـــد أن أخطأ في حقه فقد أصبح بعده آنس من قربه :

فما أغرب الأيام فيما قضت به — تريني بُعدي عنكَ آنس من قربي[3]

[الطويل]

أما ابن أبو البشر فيقابل بين الجنة ونعيمها وبين الجحيم وشقائه ، فقد كان يعيش في نعيم عندما كان قريباً من محبوبته ينعم بوصالها ، ثم أمسى يعيش في شـــقاء حيـــن ابتعدت عنه وهجرته :

فيه لي جنّة وفيه نعيمُ — وعذابٌ أشقى به وجحيمُ[4]

[الخفيف]

ويتحدث ابن حداد عن إساءته التي علم بها ملكه فغضـــب عليـــه ، لقـــد كـــان الشاعر يحظى برضوان الملك أما بعد أن أساء فقد ناب السخط عن ذلك الرضوان :

وسما إلى الملك الرّضي ابن صُمادح — فأدالني بالسّخطِ من رضوانه[5]

[الكامل]

ولجأ الشعراء إلى الطباق والمقابلة في **معرض حديثهم عن الزمان وتقلباتـــه** ، **وتغيّره من حال إلى حال** ؛ فالدهر لا يدوم له شأن ولا ينفكّ عـــن التلاعـــب بالإنســـان

---

(1) ديوان ابن زيدون : 9 – 10 .

(2) ديوان ابن زيدون : 68 .

(3) الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 136 .

(4) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، ج1 : 15 .

(5) ديوان ابن حداد : 301 .

ومصيره ، فتارة يحطه من الأوج إلى الحضيض وأخرى يُعليه من الأسفل إلى الأعلى ، لقد تحدث ابن زيدون عن هذا الأمر في مفتتح قصيدته السينية ، ونكاد لا نجد بيتاً واحداً في مفتتح تلك القصيدة إلاّ وفيه طباق أو مقابلة ، كما في قوله :

ما على ظني بـــاسُ	**يجرحُ الدّهرُ ويأسو**
وربما أشرفَ بالمرء	**على الآمال يَـأسُ**
وقدْ يُنجيكَ إغفــالٌ	**ويرديكَ احتــراسُ**
ولَكَمْ أجدى قعــودٌ	**ولَكَمْ أكدى التماسُ**
وكذا الدهرُ إذا مــا	**عزّ ناسٌ ذلَّ ناسُ**
وبنو الأيامِ أخيافٌ	**سراةٌ و خُسّــاسُ**[1]

[مجزوء الرمل]

لقد طابق الشاعر في أبياته هذه بين يجرح ويأسو ، وبين الأمل واليأس، وقـابل بين ينجيك إغفال ويرديك احتراس ، ، كما قابل بين أجدى قعود وأكدى التمـاس ، ثـم طابق بين عزّ وذلّ ، وبين السّراة والخساس ، فكان الطباق والمقابلة في قصيدته خدمـة للمعنى الذي أراده دونما تكلف يُذكر .

وتحدّث ابن حداد عن الدهر وتقلباته حديثاً مشابهاً لحديث ابن زيدون فـرأى أنّ الحظوظ تلعب دوراً كبيراً في إسعاد المرء وإتعاسه ، والدهر عندما ينفع أحداً أو يضـرّه فإنّه لا يصنع ذلك عن سابق إصرار ، وإنما يكون مثاله كمثال الماء المنهمر من السـماء ينفع بقعة ويضرّ أخرى :

فَدَعِ الزّمـانَ فإنّـه لـم يعتمـد	**بجلاله أحداً ولا بِهَوانِـه**
كالمُزنِ لم يُخصص بنافع صَوبه	**أفقاً ولم يخترْ أذى طوفانه**[2]

[الكامل]

فالشاعر طابق بين الجلال والهوان في البيت الأول ، أما في البيت الثاني فطابق بين النفع والضرر .

أما ابن غصن الحجاري فقد تأسى بالدنيا ورأى أنها لا تخلو من الفرح كما أنـها لا تخلو من الهمّ ؛ فالفرح والهمّ ملازمان للإنسان في حياته إن غاب عنه فرح حلّ محله همّ ، وإن انقشع همّ ناب مكانه فرح :

---

(1) ديوان ابن زيدون : 81 .

(2) ديوان ابن حداد : 301 .

أرى نوبَ الدّنيا تروح وتغتدي فمن فرحٍ ناءٍ وهمّ مخيم[1]

[الطويل]

كما لجأ الشعراء إلى استخدام الطباق والمقابلة في معرض مدحهم لمن يستعطفون ، فهذا ابن زيدون يمدح سجّانه أبا الحزم بن جهور ويشيد بحبّه للسلم ونبذه للحرب ، ويقابل بين يُمن السلم وشؤم الحرب ، فيقول :

وزير سلمٍ كفاه يُمن طائره شؤم الحروب ورأى مَحْصدُ المرر[2]

[البسيط]

كما مدحه وأشاد بعلمه بقصيدة أخرى وطابق بين الخصوص والعموم، وبين الجاهل والعليم بقوله :

واحدٌ سلّمَ الجميعُ له الأمرَ فكان الخصوصُ وفقَ العموم

قلّدَ الغُمْرُ ذا التجارب فيه واكتفى جاهلٌ بعلمِ العليم[3]

[الخفيف]

ومدح ابن عمار المعتمد ، ورأى أنّ الجبابرة لا يخاطبونه إلاّ بعدما يرفعون أياديهم إليه ، ويضعون جباههم أمامه :

ما يعرضُ الجبّارُ منه لحاجةٍ إلاّ برفعِ يدٍ ووضعِ جبينِ[4]

[الكامل]

ويعبّر ابن عمار عن حبه للمعتمد ، ذلك الحب الذي سيمكنه من الحصول على العفو الذي ينشده ، والصفح الذي يبتغيه :

أهابكَ للحقِّ الذي لكَ في دمي وأرجوكَ للحبِّ الذي لكَ في قلبي[5]

[الطويل]

لقد طابق ابن عمار في هذا البيت الذي أثنى عليه دارسو الأدب[6] بين أهاب وأرجو . كما قابل في بيت آخر استشفع فيه بأحد أبناء المعتمد بين عزّ الغنى وذلّة المسكين :

---

[1] إعتاب الكتاب لابن الآبار : 219 .

[2] ديوان ابن زيدون : 149 .

[3] ديوان ابن زيدون : 124 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 425 .

[5] الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 136 .

[6] قال ابن الآبار عن هذا البيت (أنّه – على سهولة مبناه – من أحسن ما قيل في معناه ، وبمثله فلتخدع الألباب، وتُستعطف الأعداء للأحباب) . ينظر : الحلة السيراء ، ج2 : 136 .

حيث التقى الخَصَمان حَقاً والتقى　　　عزّ الغنى بذلّة المسكينِ[1]

[الكامل]

أما ابن سيده فرأى أنّ دمه إنّما كوّن بفضل أعطيات أميره ، وكان حقـاً علـى الأمير أن يفني ما كوّنه إن هو أراد ذلك :

دمٌ كوّنَتْهُ مكرماتكَ والذي　　　يكوّنُ لا عتْبٌ عليه إذا أفنى[2]

[الطويل]

ونرى الشاعر قد طابق في هذا البيت بين التكوين والفناء .

واستخدم الشعراء الطباق والمقابلة في معرض إسهابهم الحديث عن معاناتـهم وسوء حالهم جرّاء ما ألمّ بهم ، فهذا ابن عمار يُظهِر نفسه بمظهر الإنسان المضطـرب الخائف الذي لا يعرف إذا كان خيره في الاقتراب من المعتمد أم في البُعد عنه :

وأصبحتُ لا أدري أفي البُعد راحتي

فأجعله حظّي أم الحظُّ في القِربِ[3]

[الطويل]

أما ابن راشد فأعلم محبوبته ببؤسه وسوء حاله بعدما هجرته ، وتوسّل إليها كـي ترثي لحاله ، وتدع السخط وتعود للرضى ؛ لأنها تظلمه عندما تقابل حبه لـها ببغـض وهجر :

وأجز وُدي بمثله وَدَعِ السّخطَ　　　وعُد للرضى فللختم فــضُّ

يا شقيقَ الفؤادِ حُكْمُكَ جـورٌ　　　لكَ مني حُبٌ ولي منك بُغضُ[4]

[الخفيف]

ويشترك معه في المعاناة ابن أبي البشر الذي أمسى دائم البكاء ، بائس العيـش بسبب فراق محبوبته ، فكلما كتب إليها أحرفاً محت دموعه تلك الأحرف :

إذا كتبتْ يدُه أحرفاً　　　إليكِ محا دمعُه أحرفا[5]

كان الطباق الذي أكثر الشعراء المستعطفون في استخدامه طباق الإيجاب ، وهو الذي يتم دون استخدام وسائط لغوية كالنفي أو النهي ، أما طباق السلب فكان قليلاً فـي الأشعار الاستعطافية ومنه قول ابن زيدون :

---

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 424 .

(2) جذوة المقتبس للحميدي ، باب 8 : 293 .

(3) الحلة السيراء لابن الآبار ، ج2 : 137 .

(4) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي ، قسم4 ، ج1 : 16 .

(5) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، ج1 : 10 .

من مبلغ المبلسينا بانتزاحهم　　　حزناً معَ الدّهرِ لا يَبلي ويُبلينا[1]

[البسيط]

والشاعر طابق بين يبلي ولا يبلي مستخدماً لا النافية .

وهناك ضرب آخر من المحسنات المعنوية نكاد نجده في معظم الأشعار الاستعطافية وهو الافتنان[2]، ونرى هذا الضرب في القصيدة الواحدة التي تجمع إلى جانب الاستعطاف غرضاً شعرياً أو أكثر ، وأحياناً نجده في البيت الواحد ، ومثاله قول ابن الحناط ، في مستهل قصيدة استعطاف بها أبا الوليد بن جهور :

إنّا إلى الله في الرُّزْء الذي فجعـا　　　والحمدُ لله في الحكم الذي وقعـا

أبٌ كريمٌ غدا الفـردوسُ مسكنـه　　　وابنٌ نجيبٌ تولى الأمر واضطلعـا

للهِ شمسُ ضحى في اللّحدِ قدْ غَربتْ　　　فأعقبتْ قمراً في السّعدِ قدْ طَلَعَـا[3]

[البسيط]

ونرى الشاعر يجمع في كلّ بيت من الأبيات السابقة بين تهنئة أبي الوليد بن جهور باستلامه مقاليد الحكم ، وبين تعزيته بوفاة والده جاعلاً ذلك مقدمة لاستعطافه .

وإلى جانب الافتنان وُجدت التورية على الرغم من أنها كانت قليلة في الأشعار الاستعطافية، ومثالها قول ابن زيدون :

وهلاّ أقامت أنجم الليل مأتماً　　　لتندب في الآفاق ما ضاع من تتلي[4]

[الطويل]

والتتل ضرب من الطيب ، وفي الفعل (ضاع) تورية ، فهو يأتي بمعنى هلك ، ويأتي بمعنى فاح[5] .

كما أنّنا لا نجد التورية إلاّ عند ابن زيدون فإنّنا لا نجد المدح الذي يشبه الذمّ إلاّ عنده أيضاً ، فقد مدح ابن جهور تمهيداً لاستعطافه ، فقال :

محاسنُ ما للحُسنِ في البدرِ عِلَّة　　　سوى أنّها باتتْ تُملُّ فيستملي[6]

[الطويل]

---

[1] ديوان ابن زيدون : 9 .

[2] الافتنان : هو الجمع بين فنّين مختلفين ؛ كالغزل والحماسة والمدح والهجاء والتعزية والتهنئة . ينظر : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع : أحمد الهاشمي ، دار الكتب العلمية – مصر ، (د.ت) ، ط6 : 291.

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 449 .

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله : 261 . أما في ديوان ابن زيدون فقد اختلفت رواية البيت ، فالكلمة الأخيرة فيه (تتلي) في ديوان ابن زيدون ورسائله:261، أما في ديوان ابن زيدون فالكلمة الأخيرة في البيت (نثلي): 159 .

[5] ديوان ابن زيدون ورسائله : 261 .

[6] ديوان ابن زيدون : 160 .

ويقصد الشاعر أنّ محاسن الأمير تمدّ البدر بالحُسن والبهاء ، ولا عيب في البدر إلاّ أنّـه يقتبس جماله من بهاء الأمير[1].

أما المحسنات اللفظية التي استخدمها الشعراء المستعطفون فيأتي الجناس بنوعيه التام والناقص في مقدمتها ، ويعد ابن زيدون من المكثرين فـي اسـتخدامه ؛ فمقدرتـه الشعرية وتمكنه من علوم اللغة ، وإحاطته بثقافة واسعة كانت أموراً مكّنته من استخدامه دون تكلّف يذكر ، فها هو ذا يجانس بين وِزر ووَزر جناساً ناقصاً بقوله :

ما للذنوب التي جاني كبائرِها　　　غيري يُحملني أوزَارها وَزَري[2]

[البسيط]

كما يجانس بين خُلق وخلق أثناء مدحه لأبي الحزم بن جهور :

خطر يقتضي الكمال بنَوْعَيْ　　　خُلُق بارعٍ وخَلْق وسيم[3]

[الخفيف]

ويشكو الشاعر النكبة التي داهمته وهو في مقتبل الشباب ، ونـراه أثنـاء ذلـك يجانس بين النَّبل وهي السهام ، وبين النُّبل وهي المروءة والفضل :

لعمر الليالي أن يكن طالَ نَزعُها　　　لقد قرطست بالنَّبل في موضعِ النُّبلِ[4]

[الطويل]

كما يجانس بين الانتهاش وهو القضم بالأضراس والانتهاس وهو القضم بمقدمة الأسـنان بقوله :

أذوبٌ هامت بلحمي　　　فانتهاشٌ وانتهاسُ[5]

[مجزوء الرمل]

وعندما خاطب ابن زيدون محبوبته واستعطفها ورجاها أن تعود إلى وصاله ، وتخلصـه من ضنك الهجر وألم الفراق استخدم الجناس كما استخدم ضروباً أخرى مـن البديـع ، وكأنّه أراد من وراء ذلك لفت نظر محبوبته الشاعرة إلى براعتـه الشـعرية وثقافتـه اللغوية، فها هو يجانس في قصيدته النونية بين الأسى والتأسي بقوله :

---

(1) ديوان ابن زيدون ورسائله : 26 .

(2) ديوان ابن زيدون : 149 .

(3) ديوان ابن زيدون : 124 .

(4) ديوان ابن زيدون : 159 .

(5) ديوان ابن زيدون : 82 .

نكادُ حينَ تُناجيكُم ضمائِرُنا يَقضي علينا الأسى لولا تأسّينا[1]

[البسيط]

واستهل الشاعر قصيدة استعطافية أرسلها إلى أبي الحزم بن جهور بالتغزل بمحبوبته ، ويجانس في مفتتحها بين الحوار والحور بقوله :

فهمتُ معنى الهوى مِن وَحي طرفكِ لي إنّ الحوارَ لمفهومٌ من الحَوَرِ[2]

[البسيط]

أما الجناس التام فنادراً ما نجده في الأشعار الاستعطافية ؛ لأنّه قلّما يأتي عفو الخاطر ، ومثاله قول الفُكيك في قصيدة استعطف بها المعتمد :

كم قائلٍ لي وأثوابي مدنّسةٌ وقد غدوتُ مُذالاً مثل أذيالِ

أصرتَ ترفل في الأسمال؟ قلت لهم : أسماليَ اليوم بين الناس أسمى لي[3]

[البسيط]

ومنه أيضاً قول المعتمد يرثي ابنيْه استمالةً لقلب سجّانه ، واستدراراً لعطفه :

أبا خالدٍ أورثتني الهمّ خالداً أبا نصر مذ ودّعتَ ودّعني نصري[4]

[الطويل]

وهناك ضرب آخر من المحسنات اللفظية لا نجده إلاّ عند ابن زيدون ، وهو ردّ الصدر على العجز أو التصدير ، ومثاله قوله :

والصدر مُذ وردت رفهاً نواحيه توم العقود لم تجنح إلى صدرِ[5]

[البسيط]

والبيت هذا من قصيدة استعطف بها سجّانه وافتتحها بالتغزّل بمحبوبته ، ويقصد أنّ القلائد الجميلة لم تقنع إلاّ بصدر محبوبته مكاناً ومستقراً لها .

كما نجد التصدير في بيت آخر يمدح فيه أبا الحزم :

وزعيمٌ بأن يذلّل الصعب مثابي إلى الهُمام الزعيمِ[6]

[الخفيف]

نستطيع القول أنّ المحسنات البديعية كانت قليلة بشكل عام في الأشعار الاستعطافية ، وكان أكثر ما استخدمه الشعراء منها الطباق والمقابلة ، وقد لجأ الشعراء

---

[1] ديوان ابن زيدون : 10 .

[2] ديوان ابن زيدون : 147 .

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم4 ، مجلد1 : 374 .

[4] قلائد العقيان لابن خاقان : 12 .

[5] ديوان ابن زيدون : 147 .

[6] ديوان ابن زيدون : 125 .

المستعطفون إليهما خدمةً للمعنى الذي أرادوه فازداد بهما وضوحاً وتأثيراً ، وقد استخدم الشعراء الطباق والمقابلة في معرض موازنتهم بين ما كانوا عليه وما آلوا إليه ، كما لجأوا إليهما في معرض مدحهم لمن يستعطفون، وفي حديثهم عن غدر الزمان وتقلبه ، وفي إطنابهم الحديث عن المعاناة التي رافقتهم بعد نكبتهم .

كما أكثر الشعراء المستعطفون من استخدام الافتنان والجناس في أشعارهم، أما التورية والتصدير والتقسيم والمدح بما يشبه الذمّ فقلّما وردت في الأشعار الاستعطافية .

وأمر آخر يجب التنويه إليه وهو أنّ الشعراء المستعطفين كانوا يهدفون من وراء أشعارهم الاستعطافية الحصول على عفو مَن يخاطبون واستدرار عطفهم ، وليس إلى إظهار براعتهم في نظم الأشعار ، وتزويقها وتنميقها بالمحسنات ، ويفسر لنا ذلك ابن زيدون الذي أكثر من المحسنات في مفتتح نكبته ، ثم عندما اكتوى بنارها ولم يعد يحتملها أخذ يخاطب سجّانه بأشعار تكاد تخلو تماماً من أي ضرب من ضروب المحسنات البديعية .

خامساً : الأوزان والقوافي :

نظمت جلّ الأشعار الاستعطافية على نمط القصيدة التقليدية التي تعتمد على أساسين هما : وحدة الوزن ووحدة القافية ، ولم يشذّ عن ذلك إلاّ ابن زيدون وابن غصن الحجاريّ ؛ فابن زيدون نظم مسمطين[1] في الاستعطاف: الأول مطلعه (تنشق من عرف الصبا ما تنشقا) ومنه :

رمتني الليالي عن قِسيِّ النّوائبِ
فما أخطأتني مرسلاتُ المصائبِ
أقضي نهاري بالأماني الكواذبِ
وآوي إلى لَيلٍ بَطيء الكواكبِ
وأبطأُ سَارٍ كوكبٌ بات يُكــــلأ[2]

[الطويل]

والمسمط الثاني مطلعه (سقى الغيث أطلال الأحبة بالحمى) ، ومنه :

أهيـــمُ بجبّـــارٍ يعــزُّ وأخضــعُ

---

[1] المسمط : نسبة إلى السمْط وهو القلادة ، حيث يضع الشاعر لأوزانه وقوافيه نظاماً خاصاً يراعيه في كلّ أقسام القصيدة ، وتتكرر فيه قافية أو أكثر بعد كلّ عدد معين من الأشطُر . ينظر : موسيقى الشعر : إبراهيم أنيس ، مطبعة الإنجلوالمصرية – القاهرة ، (د.ت) ، ط5 : 307 .

[2] ديوان ابن زيدون : 38 .

شذا المسكِ من أردانه يتضـــوّعُ
إذا جئتُ أشكوه الجوى ليس يسمعُ
فما أنا في شيء من الوصل أطمعُ
ولا أن يــزور المقلتيــنِ منــامُ[1]

[الطويل]

كما نظم ابن زيدون أرجوزة استعطافية مطلعها (يا دمع صبّ مـــا شـئت أن تصوبا) ، ومنها :

قد طال ما تجرّم الذنوبا ولم يدع في العُذر لي نصيبا
إن قرّتِ العينُ بأن أؤوبا لم آلُ أن أسترضيَ الغضوبا
حسبي أن أحرِّم المغيبا قد ينفع المذنبَ أن يتـــوبا[2]

[الرجز]

أما عبد الملك بن غصن الحجاري فقد نظم قصيدة طويلة احتوت ألف بيت مـــن الشعر ، وأرسلها إلى سجّانه ، وقال عنها مفتخراً بها :

وألفُ بيتٍ من القريض إذا ماتَ جميعُ الأنامِ لم تمتِ
لو أنّ شعر الورى ينظم في عقد لكانت بموضع السطةِ[3]

لكنّ هذه القصيدة الطويلة لم تصلنا كاملة ، وإنما وصلنا بعض مـــن أبياتـــها ، ونلاحظ من الأبيات التي وصلتنا أنّ الشاعر لم يلتزم فيها ببحر واحد أوبقافية واحـــدة ، وإنما قسمها إلى أقسام وجعل لكل قسم بحراً وقافية .

كانت البحور التامة هي الأكثر شيوعاً في الأشعار الاستعطافية ، وقلّمـــا نظـــم الشعراء المستعطفون أشعارهم في بحور مجزوءة ، وهـــذا يـــدل علـــى أنّ الأشـــعار الاستعطافية لم ينظمها الشعراء في بدايات محنهم، وإنما نظموها بعد أن مرّ على نكبتـهم أمد ؛ فهدأت ثورة فزعهم واستكانت نفوسهم باليأس والهمّ المستمر؛ لأنّ الشعر إن قيـــل وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي، وتطلّب بحراً قصيراً يتلاءم وسرعة التنفـس وازدياد النبضات القلبية[4]، وعلى الرغم من (أنّ القدماء من شعراء العرب لم يتخـــذوا

---

[1] ديوان ابن زيدون : 29 .
[2] ديوان ابن زيدون : 17 .
[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم3 ، مجلد1 : 333 .
[4] موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس : 176 – 178 .

لكل موضوع وزناً خاصاً من بحور الشعر)[1] إلاّ أنّ البحر الطويل كان أكثر البحـــور استخداماً في الأشعار الاستعطافية ؛ لأنّ موسيقى هذا البحر هادئة خفيفة تتلاءم وتنسجم مع مواقف التحسّر والتأسّف والتشكّي والتألّم ، وهذه مواقف تحتاج إلى تأمّل وعمـــق لا يصلح لها غير البحر الطويل، وذلك لما تحتويه موسيقاه من طول وكثرة فـــي المقـــاطع وخفاء في الجرس ، وكلها صفات تتيح للمستعطَف تفهّم الأشعار الاســـتعطافية دون أن ينشغل بدندنة النغم وجلبة التفاعيل[2]، وإضافة إلـــى البحــر الطويــل أكــثر الشــعراء المستعطفون من استخدام البحور : البسيط والكامل والخفيف والوافر ، وهذه البحور ذات أوزان طويلة ومقاطع كثيرة ، وكان الشعراء المستعطفون يتخيرونها عادة ليصبّوا فيـــها أشجانهم وما ينفّس عن حزنهم وجزعهم[3].

أما بالنسبة للقوافي فقد كانت حروف النون واللام والراء والميم والحاء والبـــاء أكثر الحروف التي جعلها الشعراء المستعطفون روياً في أشعارهم ، وهي حروف تجيء روياً بكثرة في عموم الشعر العربي ، وتلتها حروف الكـــاف والقـــاف والـــذال وهـــي حروف متوسطة الشيوع في الروي ، أما الضاد على الرغم من أنه من الحروف التـــي يقلّ شيوعها في الروي إلاّ أنه كان روياً لقصيدتين اثنتين ، ولا نجد أياً مـــن القصـــائد والمقطوعات الاستعطافية ختمت أبياتها بحرف يندر مجيئه روياً كالذال والغين والخـــاء والشين والزاي والظاء والواو[4]، وكانت معظم قوافي الأشعار الاســـتعطافية مطلقـــة ، وكانت المقيدة منها قليلة ، ونجد الردف[5] في بعض القوافي ، وكان أحياناً بالألف التـــي ينبغي أن تلتزم بالقوافي كلّها[6]، وأحياناً أخرى كان الشاعر يراوح فـــي أشـــعاره بيـــن الردف بالواو والياء، ومثال ذلك قصيدة ابن عمار التي أرسلها إلى الرشيد بن المعتمـــد الملقب بالفتح مستشفعاً فيه ، ومنها :

يا فتحُ جرِّدْها عنايةَ فـــارسٍ بطلٍ على حرب الوليّ أمينِ

---

[1] النقد الأدبي الحديث : محمد غنيمي هلال ، دار العودة – بيروت ، ط1 ، 1987م : 441 .

[2] المرشد إلى فهم أشعار العرب : عبد اللطيف المجذوب ، (د.ن) ، ط1 ، 1955م : 392 .

[3] موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس : 176 .

[4] موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس : 248 .

[5] الردف : حرف علة يسبق الروي مباشرة ، ويُلتزم في سائر الأبيات ، ولا يجوز أن يفصل بينهما حرف آخر. ينظر : العروض والقافية : عادل أبو عمشة ، مكتبة خالد بن الوليد – نابلس ، ط1 ، 1406هـ / 1986م : 198.

[6] ومثال ذلك قصيدة ابن زيدون الحائية ومطلعها :

أما وألحاظٍ مراضٍ صحاح تصبي وأعطافٍ نشاوى صواح . ينظر : ديوانه : 145 .

واقرن شفاعَتكَ الكريمةَ عندَه بتواضعِ في عِزةٍ و سُكــونِ[1]

[الكامل]

ونجد أيضاً ألف التأسيس في بعض القصائد والمقطوعات الاستعطافية (وهــي الألف التي تسبق الروي ولكنها تكون معه في كلمة واحدة على أن يفصل بينهما حــرف أجنبي يسمى الدخيل)[2]، ومن ذلك قول ابن زيدون مستعطفاً محبوبته :

ما ضَرّ لو أنّكَ لــي راحِــمٌ وعلتي أنتَ بها عالم

تضحك في الحُبّ وأبكي أنا اللهُ فيما بيننا حاكــم[3]

[السريع]

لقد التزم الشاعر في القصيدة التي منها هذين البيتين بألف التأسيس ، وكثيراً مــا كان الشعراء يُشبِعون حركة حرف الروي فيتولد عن هذا الإشباع حرف علّــــة يكــون حرف وصل يعقب الروي ، ومن ذلك قول الفكيك :

إني لأعجب من سجن به أمِنَتْ نفسي من الخَوفِ في عِريس رئبال

ولم أرَ مثل السّيــفِ أغمـــده مَن انتضاه لأشعــاري وأقــوالــي[4]

[البسيط]

ومنه أيضاً قول ابن عمار مُعرّضاً بأعدائه وشانئيه :

ولا تلتفت رأي الوشاة وقولهم فكــلّ إنــاءِ بالذي فيــه يرشــحُ

تخيلتــهــم لا درّ للهِ درّهــمُ أشاروا تجاهي بالشمات وصرّحوا[5]

[الطويل]

وهكذا لاحظنا أنّ شعر الاستعطاف حفل بأوزان تنسجم وتتلاءم مع موضوعاته ، كما أنّ الشعراء المستعطفين حققوا الملاءمة بين أواخر الأبيات في أشـــعارهم ، حيــن اختاروا أفضل الحروف وأكثرها شيوعاً لروي قوافيهم .

سادساً : استلهام التراث :

استلهم الشعراء المستعطفون ثقافتهم وخبراتهم التراثية وضمنوهــا أشــعارهم ، وكان الشعراء يهدفون من وراء ذلك إلى إقناع مَن يخاطبون ببراعتهم ، كما كان للأمثلة التي اختاروها أثر في المقارنة بين أحوال الشعراء المنكوبين ، وأحوال أصحــاب تلــك

---

[1] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 425 .

[2] العروض والقافية لعادل أبو عمشة : 198 .

[3] ديوان ابن زيدون : 23 .

[4] الذخيرة لابن بسام ، قسم4 ، مجلد1 : 374 .

[5] الذخيرة لابن بسام ، قسم2 ، مجلد1 : 421 .

الأمثلة على أمل أن يلقي الشعراء المصير الذي لاقاه أولئك المتمثل بهم وهو الانعتـــاق والخلاص .

كان ابن زيدون أكثر الشعراء المستعطفين استلهاماً للتراث ، وهو – كما نعلم – ذو خبرة عريضة ، وثقافة واسعة بعلوم الدين والأدب والتاريخ ، وقد ضمن ثقافته تلـــك أشعاره الاستعطافية ، فلا نكاد نجد له قصيدة استعطافية إلاّ وفيها ذكر لحادثـــة أو مَثـــل استمده من مصادر معارفه المختلفة ، وكان القرآن الكريم في مقدَّمة المصادر المعرفيـــة التي أفاد منها الشاعر ، حيث ظهر جلياً تأثره في أسلوبه ، واتخذ من قصصـــه وســـيلة لعرض قضيته ، وبيان براعته ، ومن ذلك قوله مستعطفاً سجّانه :

نار بغي سرى إلى جنة الأمن ... لظاها فأصبحت كالصريم

بأبي أنتَ إن تشأ تــكُ برداً ... وسلاماً كنـــار إبراهيــمِ[1]

[الخفيف]

وقد أشار الشاعر في البيت الأول إلى لآية الكريمة " فطاف عليها طـــائف مـــن ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم "[2]، أما في البيت الثاني فأشار إلى قصـــة ســـيدنا إبراهيم – عليه السلام – الذي ألقى به قومه في النار ؛ ليحرّقوه فأنقذه الله منـــها بـــأن جعلها برداً وسلاماً عليه .

والشاعر نُكب وزُجّ به في السجن بفعل دسائس الوشاة الذين كانوا كأخوة يوسف – عليه السلام – حين ألقوا به في غيابات الجبّ ، واتّهموا الذئب زوراً وبهتاناً بدمه :

كان الوشاةُ وقد مُنيتُ بإفكهم ... أسباط يعقوبٍ وكنت الذيبا[3]

[الكامل]

وخاطب الشاعر أمه من سجنه ، وذكّرها بأم موسى – عليه السلام – ؛ ليصبّرها على فراقه ، ويؤملها بلقائه ، فقال لها :

أمقتولة الأجفـــانِ مالـــكِ والهاً ... ألم ترَكِ الأيام نجمـــاً هـــوى قبلـــي

أقِلي بكـــاءً لســـتِ أول حُـــرّةٍ ... طوت بالأسى كشحاً على مضض الثكلِ

وفي أم موسى عِبرةٌ إن رمتْ به ... إلى اليمّ في التّابوتِ فاعتبري واسلي[4]

[الطويل]

---

[1] ديوان ابن زيدون : 125 .

[2] القلم : آية 19 – 20 .

[3] ديوان ابن زيدون : 133 .

[4] ديوان ابن زيدون : 160 .

وتأسّى الشاعر مرّة أخرى بموسى – عليه السلام – حين بـــرّر هروبــه مــن السجن، فقال :

فررتُ فإن قالوا الفرار إرابةً فقد فرّ موسى حين همّ به القبطُ[1]

[الطويل]

وخاطب الشاعر سجّانه نافياً ما اتُّهِمَ به ، موضحاً أنّه لا يعقل أن ينكـــث فيــه القصائد التي نظمها في مدحه :

أأنكث فيكَ المدح من بعد قُوةٍ ولا أقتدي إلاّ بناقضةِ الغزْلِ[2]

[الطويل]

ويشير الشاعر في هذا البيت إلى الآية الكريمة { ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً }[3].

وعندما التمس الشاعر شفاعة صديقه أبي حفص بن برد عبّر عن المحبة التـــي يكنّها له ، لقد كانت تلك المحبة كالنص الذي لا يخالفه قياس :

ووِدادي لكَ نصٌّ لم يخالفه قياس[4]

[مجزوء الرمل]

لقد دلّ الشاعر في هذا البيت على علمه بأصول الفقه ، حيث يعد النص ســـواءً أكان من القرآن أم من السنة الشريفة أقوى مصادر التشريع ، ويفوق غيره من المصادر الأخرى كالاجتهاد والقياس ، وعبّر الشاعر في القصيدة ذاتها عن بؤسه وشقائه حين شكا أصدقاءه الذين تنكروا له وانقلبوا عليه بعدما نُكب :

ما ترى في مَعشرٍ حالوا عن العهد وخاسوا
ورأونـــي سامـــريـــاً يتقي منه المساسُ[5]

[مجزوء الرمل]

والشاعر في هذين البيتين يشير إلى قصة السامري الذي عبد العجل فعوقب بأن مُنع مــن مخالطة الناس ، فكان إذا مَسَّ الناس حُمّ الماسّ والممسوس ، فتحامى الناس وتحـــاموه ، وكان يصيح فيهم : لا مساس .

---

[1] ديوان ابن زيدون : 87 .
[2] ديوان ابن زيدون : 162 .
[3] النحل : آية 92 .
[4] ديوان ابن زيدون : 82 .
[5] ديوان ابن زيدون : 82 .

وإلى جانب القرآن الكريم رأينا ابن زيدون يوظف معرفته التاريخية الواسعة في أشعاره الاستعطافية ، فها هو يخاطب سجّانه قائلاً :

ولو أنني واقعتُ عمداً خطيئــةً لما كان بدعاً من سجاياك أن تُملي

فلم أستثرْ حَرب الفِجارِ ولم أطع مسيلمةَ إذ قال إنّي من الرســـلِ[1]

[الطويل]

ويشير الشاعر في هذين البيتين اللذين أرسلهما إلى ابن جهور مستعطفاً إياه إلــى حرب الفجار التي اقتتل العرب فيها في الأشهر الحرم ، ثم يشير إلى مســيلمة الكــذّاب الذي ادّعى النبوة في حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – واستفحل أمره حتى قضــى عليه المسلمون في بداية خلافة أبي بكر الصدّيق – رضي الله عنه – .

كما ضمّن ابن زيدون أشعاره أمثالاً شائعةً بين الناس ، ومن ذلك قوله :

أيهذا الوزيرُ ها أنا أشكو والعصا بدء قرعها للحليم[2]

[الخفيف]

ويشير إلى المَثل القائل (إنّ العصا قرعت لذي الحِلم)[3].

وإضافةً إلى ذلك فقد تأثر ابن زيدون بالأشعار التي نُظمت قبله لا سيما المشرقية منها ، حيث أفاد من معانيها وألفاظها وصورها ، ويظهر هذا الأمر جلياً واضحــاً فــي رسائله النثرية التي ضمنها الكثير من الأشعار المشرقية ، أما فــي قصــائده وأشــعاره الاستعطافية فقد تأثر بكثير من الشعراء الذين سبقوه ، فعندما يقول :

يلبدُ الوردُ السبنْتى وله بعدُ افتراسُ[4]

[مجزوء الرمل]

فإنّه ينظر إلى قول ابن الرومي :

سكنتُ سكوناً كان رهناً بِعَدوةٍ عماس ، كذاك الليث للوثب يلبدُ[5]

[الطويل]

أما عندما يقول مادحاً سجّانه أبا الحزم بن جهور :

---

(1) ديوان ابن زيدون : 161 – 162 .

(2) ديوان ابن زيدون : 134 .

(3) ذو الحلم : هو عامر بن الظرب ، كان من حكماء العرب ، لا تعدل بفهمه فهماً ، فلما تقدمت به السن أنكر من عقله شيئاً ، فقال لبنيه : قد كبرت سنّي فإذا رأيتموني خرجت عن كلامي فاقرعوا لي المجن بالعصا . ينظر : ديوان ابن زيدون ورسائله هامش صفحة 281 .

(4) ديوان ابن زيدون : 83 .

(5) ديوان ابن الرومي ، شرح أحمد بسج ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط1 ، 1415هـ / 1994م ، ج1 : 381.

ومتى يبدأ الصنيعةَ يولعـــ كَ تمامُ الخصالِ بالتتميمِ[1]
[الخفيف]

فهو ينظر إلى قول أبي تمام مادحاً :

هذا سحابٌ أنت سقت غمامه فعليك بعد الله فيضُ غمامـــه
إنّ ابتداء العرف مجدٌ باسقٌ والمجد كلُّ المجدِ في استتمامه[2]
[الكامل]

وحين سُجن الشاعر شبّه نفسه بالسيف الذي أودع غمده في غير قصيدة من قصائده وقد أخذ هذه الصورة عن علي بن الجهم الذي مرّ بتجربة مشابهة ، وقال :

قالوا:حُبستَ،فقلتُ ليس بضائري حبسي وأيّ مهندٍ لا يغمدُ[3]
[الكامل]

وقد حشد الشاعر أفعال أمر ونظمها في هذا البيت :

أجِرْ أعْدِ آمِنْ أبْدأْ عُدِ أكفِ حُطْ
تَخَفَّ ابْسُطِ استأنفْ صُنْ أحم أصطنع أعلِ[4]
[الطويل]

وقد سار في ذلك على درب المتنبي الذي قال :

أقِلْ،أنِلْ،اقطع،احمل،علّ،سلّ،أعد زد،هشّ،بشّ،تفضل،أدن،سُرّ،صلِ[5]
[البسيط]

ولم يكن ابن زيدون الوحيد من الشعراء المستعطفين الذي استلهم التراث ووظفه في أشعاره ، وإن كان أكثرهم فعلاً لذلك ، فهذا عبد الملك بن غصن الحجاري يتأسى بالأنبياء والمرسلين الذين عانوا أكثر مما عانى ، وابتلوا بأشدّ مما ابتُلي به ، ثم فرّج الله عليهم ، وبدّل بشدتهم فرجاً ، وحوّل عسرهم إلى يسر ، يقول :

أو يكن عثـــر الزمـــان فمـــرجـــوّ لإنعاشنا القريـــبُ المجيـــبُ
قد أجـــابَ الإلـــــهُ دعـــوةَ نـــوحٍ حين نادى بأنّـــه مغلـــوبُ

---

[1] ديوان ابن زيدون : 125 .

[2] ديوان أبي تمام بشرح الخطيب القزويني ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف – مصر (د.ت) ، مجلد3 : 151 .

[3] ديوان علي بن الجهم ، دار الآفاق الجديدة – بيروت ، (د.ت) : 159 .

[4] ديوان ابن زيدون : 162 .

[5] العُرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيب : 353 .

وشفــى ذو الجــلال علّــة أيــو ب وقد شارفَ الردى أيوبُ

وانقضى سجن يوسف وقد استيــ ــأسَ وارتدّ مُبصراً يعقوبُ[1]

[الخفيف]

وكما تأثر ابن زيدون بالشعر المشرقي فقد تأثر غيره من الشعراء المســتعطفين فيه ، فالشرق (كان يبدع ويصدر إبداعه ونتاج ثقافته إلى الأندلس؛ فيندفع أدباء الأندلس إلى تقليد ما وفد إليهم من شعراء المشرق وكتّابه)[2]، فهذا الفكيك يشبّه نفسه وقد سُــجن بالسيف الذي أودع في غمده :

إنّي لأعجبُ من سجنٍ به أمنتْ نفسي من الخوف في عريس رئبال

ولم أرَ مثــل السيــف أغمــده مَن انتضــاه لأشعــاري وأقــوالي[3]

[البسيط]

وهي صورة ابتدعها عليّ بن الجهم وقلّده فيها ابن زيدون ، ونجد ابــن عمــار يتأثر بالشعر المشرقي ، إذ يروي ابن بسام أنّه لما وردت على المعتمد قصيدته الحائيــة التي منها هذا البيت :

وبين ضُلوعي من هواه تَميمةٌ ستنفعُ لو أنّ الحِمامَ يُجلّحُ

[الطويل]

جعل الحاضرون من أعداء ابن عمار ينتقدونه ويعيبون شعره ، ويقولــون : أي معنــى أراد ؟ ما قال شيئاً ولا كاد ، فقال لهم المعتمد : مهما سلبه الله من المروءة والوفاء فلــم يسلبه الشعر ، إنما قلّب بيت أبي ذؤيب الهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمة لا تنفعُ[4]

[الكامل]

كما نجد ابن الحنّاط – الذي استعطف أبا الوليد بن جهور ، وســبق اســتعطافه بتعزية أبي الوليد بوفاة أبيه ، وتهنئته بالحُكم – يتأثر بعبد الله بن همّام الســلولي الــذي عزّى يزيد بن معاوية بوفاة أبيه ، إذ جمع بين تعزية يزيد وتهنئته بتوليه الحُكم قائلا :

اصبرْ يزيدُ فقد فارقتَ ذا كَرَمٍ واشكرْ حَباءَ الذي في المُلكِ أصفاكَ

لا رُزْء في الأقوامِ قد علموا كما رُزِئــتَ ولا عُقبــى كعقبــاكَ[5]

---

[1] إعتاب الكتاب لابن الآبار : 220 .

[2] الفكاهة في الأدب الأندلسي لرياض قزيحة ، المكتبة العصرية – بيروت ، ط1 ، 1418هـ / 1998م : 234.

[3] الذخيرة لابن بسام ، قسم4 ، مجلد1 : 374 .

[4] الذخيرة لابن بسام قسم2 ، مجلد1 : 422 .

[5] البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، (د.ت) ، ج2 : 66 .

[البسيط]

لقد استلهم الشعراء المستعطفون التراث ووظفوه في أشعارهم خدمة للمعنى الذي أرادوه ، وكان القرآن الكريم في مقدمة المعارف التي أفاد منها الشعراء ، حيث تـأثروا بأسلوبه وتأسّوا بقصصه ، ثم نظروا إلى الأدب المشرقي فأفادوا منه وأحيانـاً (غلـب الأنموذج الشرقي على الأديب الأندلسي حتى ليصعب على الدارس أن يعرف إذا كـان الأدب الأندلسي يعبّر عن واقع محلي أو يحاكي أنموذجاً أدبياً مشرقياً محض محاكاة)[1].

وبهذا فقد تبين لنا أنّ الأشعار الاستعطافية قد تفاوتت أحجامها بين قصائد طويلة ومقطوعات قصيرة ، وغلب عليها تعدد الأغراض حتى في المقطوعة القصيرة ، وكانت لغة الأشعار الاستعطافية في عمومها سهلة ، فلم تكن عائقاً أمام فـهم تلـك الأشـعار ، وإضافة إلى ذلك رأينا ألفاظاً دلّت على درك المذلّة التي وصل إليها أولئك الشعراء ، كما نجد ألفاظاً أخرى عبّرت عن بؤسهم وشقائهم أدقّ تعبير ، وقد سار الشعراء المستعطفون على درب التقليد بافتتاحيات قصائدهم التي استهلوها أحياناً بالنسيب مجـاراة للشـعراء الأقدمين ، كما قلّدوا مَن سبقوهم بخيالهم وصورهم ، وإن كنّا لا نعدم عندهم جديداً فـي هذين المجالين ، واستخدم الشعراء المستعطفون في أشعارهم بعض المحسنات اللفظيـة والمعنوية التي كان لها دور في تسليط الضـوء علـى بعـض المعـاني التـي أرادوا تأكيدها ، ودور في جلاء الصورة وإيضاحها عن طريق المطابقة خاصة وغيرها مـن المحسنات الأخرى ، أما بالنسبة للبحور والقوافـي ، فقـد اسـتخدم أكـثر الشـعراء المستعطفين البحور وحروف الروي الشائعة ، ولم يتعمدوا استخدام الغريب النادر منهما، وعرّج الشعراء على التراث فاستلهموه ووظفوه خدمة للمعاني التي أرادوها في أشعارهم الاستعطافية .

---

[1] دراسات في الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة – : إحسان عباس ، دار الثقافة – بيروت ، ط5 ، 1978م : 24 .

الخاتمة

لا بدّ ليَ وأنا أُنهي هذا البحث المُعَنْوَن بــ(الاستعطاف في الشعر الأندلسي – عصر ملوك الطوائف 422-484 هـ) أن أقفَ وقفة سريعة مستعرضاً أهم النتائج التي توصلتُ إليها ، والتي أوجزها بما هو آت :

1. حددتُ عصر ملوك الطوائف ، بدايته ونهايته ، وتطرقتُ إلى الحالتينِ السياسية والأدبية اللتينِ سادتا فيه ، حيث كانت الحالة السياسية متردية ، أمّا الحالة الأدبية فكانت على النقيض من ذلك ، فقد شهد هذا العصر رقياً فنياً وأدبياً وعمرانياً لم يشهد له مثيل في العصور التي سبقته .
2. حاولتُ أن أضع تعريفاً لشعر الاستعطاف ، وأن أتقصّى بداياته ، وتبيّن لي أنّ النابغة كان قدوة الشعراء المستعطفين إلاّ أنّه لم يكن رائد هذا الفن الشعري – كما كان يظن – إذ سبقه شعراء آخرون في نظم الأشعار الاستعطافية ، كما لاحظتُ أنّ شعر الاستعطاف وُجِد في شتى العصور إلاّ أنّ جلّه كان موجهاً للحاكم .
3. شهد عصر ملوك الطوائف ازدياداً ملحوظاً في الأشعار الاستعطافية ، حيثُ بيّنتُ سبب ذلك ، ثمّ أدرجتُ الأشعار الاستعطافية في فروع ثلاثة هي : استعطاف الحاكم ، واستعطاف المحبوبة ، واستعطاف الوالد ، ورأيتُ أنّ الفرع الأول يستحوذ على القسم الأكبر من الأشعار الاستعطافية ، كما رأيتُ أنّ الشعراء استعطفوا في هذا الفرع تصريحاً وتلميحاً ، والتصريح كان يتم بمخاطبة الحاكم المستَعطَف مباشرة والتماس العطف والعفو منه ، أو بمخاطبة وسيط علّه يتوسط للشاعر ويتشفّع فيه ، أمّا استعطاف المحبوبة واستعطاف الوالد فكان يتم تصريحاً ودون الاستعانة بوسيط أو شفيع .
4. لاحظتُ أنّ هناك علاقة بين الاستعطاف وبين التذلل المهين وإهراق ماء الوجه، وكان التذلل يزداد كلّما طالت محن الشعراء ، فقد حوت أشعارهم التي نظموها في فترة متأخرة ما يدلّ على تذللهم وهوانهم أكثر من تلك الأشعار التي نظموها في فترة متقدمة من محنهم ، والتذلل المهين وُجِدَ في شعر الشعراء المستعطفين كافة ، إلاّ أنّه كان يتفاوت من شاعر لآخر ومن فرع لآخر ؛ فالشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم أفرطوا في الاستعطاف المشين والتذلل المهين ، ونجد ذلك أيضاً عند معظم الشعراء

الذين استعطفوا الحكام ، أمّا الشعراء الذين استعطفوا والديهم فقد أقلّوا من التذلل وبدوا متماسكين ومحافظين على كرامتهم خلال استعطافهم .

5. قلّما وُجدت مقطوعة أو قصيدة اقتصرت على الاستعطاف فقد لجأ الشعراء المستعطفون إلى الافتنان وهو الجمع بين فنّين أو أكثر في البيت الواحد أو القصيدة الواحدة ؛ لذا فقد مزج الشعراء استعطافهم بأغراض شعرية ظنّوا أنّها تساعدهم في حصولهم على العطف الذي ينشدونه ، وقد تحدّثتُ عن هذه الأغراض مستشهداً بشواهد منها ، محاولاً بيان الغرض الشعري الذي يلائم الاستعطاف ، والغرض الذي لا يلائمه .

6. كانت لغة الأشعار الاستعطافية سهلة غير متكلّفة ، وكرّر الشعراء المستعطفون معانيهم في صور مختلفة وألفاظ متباينة ، وأكثروا من ألفاظ لها علاقة بالاعتذار والاستعطاف أو بالتذلل والهوان ، أو بما يدلّ على بؤسهم وشقائهم ، كما أكثر الشعراء المستعطفون من الصيغ الإنشائية التي خرجت عن معناها الحقيقي لتؤدي معاني أخرى لها علاقة بالاستعطاف .

7. كانت الصور الفنية بمجملها صوراً تقليدية إلاّ أنّ الباحث لا يعدم جديداً فيها ، كما أنّ الشعراء لم يخصّوا بحراً بذاته أو قافية بعينها لنظم أشعارهم الاستعطافية ، بل كانت البحور والقوافي الأكثر استخداماً في الشعر عامة هي التي أكثر الشعراء المستعطفون من استخدامها . كذلك حاول الشعراء المستعطفون توظيف الخيال الأدبي والمحسنات اللفظية والمعنوية لتحقيق الهدف الذي ينشدونه ، واستلهم الشعراء التراث في أشعارهم الاستعطافية وتأثّروا بالقرآن الكريم وبالشعر القديم لا سيما المشرقيّ منه .

8. توصّلتُ إلى نتائج ثانوية في البحث منها : السبب الذي من أجله سُجن ابن زيدون أشهر الشعراء المستعطفين ومدة سجنه ، ومحاولة إثبات أنّ القصيدة الميمية ليست جزءاً من رسالته الجدية ، كما حاولتُ بيان الأسباب التي جعلت ابن زيدون يخفق في استعطاف ابن جهور ، وسبب القطيعة بينه وبين محبوبته ، كما لخّصتُ قصة ابن عمار مع المعتمد بن عبّاد معتمداً في ذلك على المصادر الأدبية ، كذلك حاولتُ إثبات أنّ المعتمد استعطف سجّانه تلميحاً ، الأمر الذي أنكره الباحثون من قبل .

وفي الختام ، فتلك عصارة أحببتُ أن أختم بها البحث الذي أسألُ الله أن أكونَ قد

وُفِّقتُ في تقديمه وإعطائه ما يستحق من الجهد والدراسة ، وأسأله تعالى أن أكون ممّن يجتهد ويصيب إنّه سميع مجيب ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .

قائمة المصادر

- القرآن الكريم
- ابن الآبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله

ــ إعتاب الكتاب – تحقيق صالح الأشتر ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ط1 ، 1380هـ ، 1961م.

ــ الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1963م .

- الإبشيهي أبو الفتح شهاب الدين محمد بن أحمد .

ــ المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق سعيد محمد اللحام ، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1419هـ-1999م .

- ابن الأثير علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني .

ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة (انتشارات إسماعيليان – تهران) ، (د.ت) .

ــ الكامل في التاريخ ، دار صادر – بيروت ، 1399هـ -1979م ، وطبعة 1402هـ-1982م .

- الأدريسي الشريف أبو عبد الله بن إدريس .

ــ عالم الكتب – بيروت ، ط1 ، 1409هـ -1989م .

- إسماعيل أبو الفدا عماد الدين .

ــ المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية ، مصر ، ط1 ، 1907م .

- الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين بن حمد .

ــ الأغاني ، طبعة دار الكتب العلمية ، القاهرة ، ط1 ، 1346هـ-1928م ، وطبعة مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، 1389هـ-1970م .

- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي .

ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط1، 1399هـ-1979م .

- ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك .

ــ الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ط1 ، 1966م .

- البغدادي عبد القادر بن عمر .

ــ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، (د.ت) .

• البكري الأندلسي عبد الله بن عزيز .
ـ معجم ما أستعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، ط2 ، 1403هـ-1983م .
• البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر .
ـ أنساب الاشراف ، تحقيق محمد باقر المحمودي ، دار التعارف ، بيروت ، (د.ت) .
• ابن بنين الدقيقي سليمان .
ـ اتفاق المباني وافتراق المعاني ، تحقيق يحيى عبد الرؤوف جبر ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1، 1405هـ-1985م .
• أبو تمام حبيب بن أوس الطائي .
ـ ديوانه ، شرح الخطيب القزويني ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف، مصر ، (د.ت) .
• الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر .
ـ البيان والتبيين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) .
• ابن الجهم علي
ـ ديوانه ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، (د.ت) .
• ابن حداد الأندلسي
ـ ديوانه ، تحقيق يوسف علي الطويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1410هـ-1990م .
• ابن حزم الأندلسي أبو أحمد علي بن أحمد بن سعيد .
ـ طوق الحمامة في الألفة والآلاف ، تحقيق فاروق سعد ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت، (د.ت) .
• الحطيئة جرول بن أوس
ـ ديوانه ، شرح أبي سعيد السكري ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1387هـ-1867م .
• ابن حكمون القضائي أبو عبد الله محمد بن سلامة .
ـ فذلكة التواريخ ، تحقيق عبد الرحيم محمد عبد الحميد ، دار البشير ، عمان ، ط1 ، 1419هـ .
• ابن حنبل الإمام أحمد
ـ مسند الإمام أحمد ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ، (د.ت) .
• الحميدي أبو عبد الله محمد بن فتوح .

- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأنباري ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، 1403هـ-1983م .
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ط1 ، 1372هـ-1952م .

• ابن خاقان الفتح .

- قلائد العقيان ، المطبعة الخديوية ، القاهرة ، 1866م .

- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، تحقيق محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1403هـ-1983م .

• الخطيب البغدادي ، الحافظ بن علي .

- تاريخ بغداد ، المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، (د.ت) .

• ابن الخطيب لسان الدين .

- الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط1، 1397هـ-1977م .
- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام ، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف ، بيروت ، ط2 ، 1956م .

• ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن حمد .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت).
- الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق مأمون صاغرجي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط7 ، 1410هـ-1990م .

• ابن رشيق القيرواني

- ديوانه ، شرح صلاح الدين الهواري ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1416هـ-1996م.

• العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط5 ، 1401هـ-1981م ، وطبعة مطبعة حجازي ، القاهرة ، ط1 ، 1353هـ-1934م .

• ابن الرومي

- ديوانه ، شرح أحمد بسج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1415هـ-1994م .

• الزبيدي محمد بن محمد الحسيني

- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1989م .

- الزبيدي محمد مرتضى

— تاج العروس من جواهر القاموس ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د.ت) .

- الزمخشري جار الله محمود بن عمر

— الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، (د.ت) .

- ابن زيدون

— ديوانه ، شرح وتحقيق كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1975م.

— ديوانه ورسائله ، تحقيق علي عبد العظيم ، مكتبة نهضة مصر ، 1957م .

- ابن سعيد الأندلسي علي .

— رايات المبرزين وغايات المميزين ، تحقيق النعمان بن عبد المتعال ، مطابع الأهرام ، القاهرة ، 1393هـ-1973م .

- ابن سعيد المغربي .

— المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، (د.ت).

- ابن شرف القيرواني محمد .

— رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط1 ، 1983م .

- ابن عبد به الأندلسي ، شهاب الدين أحمد .

— العقد الفريد ، تحقيق عبد المجيد الرحيني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1983م.

- ابن عبد الملك الأنصاري .

— الذيل والتكملة في كتابي الموصول والصلة ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت (د.ت) .

- ابن عذارى المراكشي .

— البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج.س كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ط2 ، 1983م .

- العماد الأصفهاني .

— خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق عمر الدسوقي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر (د.ت) .

— خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد المرزوقي ، الدار التونسية للنشر ، 1966م.

- ابن عماد الحنبلي عبد الحي .

ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، (د.ت) .

- ابن عمران العبدي محمد .

ـ العفو والاعتذار ، تحقيق عبد القدوس ابو صالح ، دار البشير ، (د.م) ، ط3 ، 1414هـ-1993م .

- ابن عميرة الضبي أحمد بن يحيى ، دار الكتاب العربي ، (د.م) ، 1967م .

- ابن فارس أبو الحسين أحمد .

ـ الصاحبي في فقه اللغة ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، 1328هـ .

ـ مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1369هـ .

- أبو فراس الحمداني

ـ ديوانه ، شرح ابن خالويه ، تحقيق سامي الدهان ، (د.ن) ، بيروت ، (د.ت) .

- ابن قتيبة الدينوري عبد الله بن مسلم .

ـ الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، 1966م .

- القلقشندي .

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، المطبعة المنيرية ، القاهرة ، 1331هـ-1913م .

- ابن ماجه الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني .

ـ السنن ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، (د.م) ، (د.م) .

- المتنبي أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي .

ـ العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيب ، شرح ناصيف اليازجي ، (د.ن) ، 1887م .

- المثقب العبدي

ـ ديوانه ، جمع وتحقيق حسن حمد ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1996م .

- المرزباني محمد بن عمران بن موسى .

ـ معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار إحياء الكتب ، (د.م) ، 1960م .

- ابن المعتز عبد الله .

ـ طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار المعارف ، مصر ، ط4 ، (د.ت) .

- المقّري أحمد بن محمد .

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1388هـ-1968م .

- ابن منظور المصري أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم .

- أبو نواس في تاريخه وشعره ومبانله وعبثه ومجونه ، تحقيق محمد سعيد كمال ، مكتبة المعارف ، بيروت ، 1969م .
- لسان العرب ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، 1956م .

• ابن موسى الأندلسي أبو الحسن علي .

- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط1 ، 1982م .

• النابغة الذبياني

- شرح ديوانه ، تقديم وتعليق سيف الدين بركات واحمد عصام الكاتب دار مكتبـــة الحياة، بيروت ، ط1 ، 1989م .

• النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .

- نهاية الأرب في فنون الأدب ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر والطباعة ، (د.م) ، (د.ت) .

• ابن هشام المعافري أبو محمد عبد الملك .

- السيرة النبوية ، شرح وتحقيق مصطفى السقا وآخرون ، مطبعة مصطفى الحلبي ، مصر، 1355هـ-1936م .

• ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله .

- معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، 1374هـ-1955م .

قائمة المراجع

- أدهم علي

ـ المعتمد بن عباد ، مكتبة مصر ، (د.ت) .

- أنيس إبراهيم

ـ موسيقى الشعر ، مطبعة الأنجلوالمصرية ، القاهرة ، ط5 ، (د.ت) .

- بالنثيا آنخل

ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، (د.ت) ، القاهرة ، 1955م .

- البتنوني محمد لبيب

ـ رحلة الأندلس ، مطبعة مصر ، ط2 ، (د.ت) .

- البستاني بطرس

ـ أدباء العرب ، دار مارون عبود ، بيروت ، 1979م .

- بهجت ، منجد مصطفى

ـ الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1407هـ-1986م .

- بيريس هنري

ـ الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، مطبعة دار المعارف ، مصر ، ط1 ، 1408هـ-1988م .

- تايه خضر

ـ شعراء حول الرسول -صلى الله عليه وسلم ، دار البشير ، عمان ، ط1 ، 1419هـ-1998م .

- جبر يحيى عبد الرؤوف

ـ نصوص في إعداد البحوث وتحقيق المخطوطات ، دار الكتاب الجامعي ، نابلس ، 1413هـ-1993م .

- الجيوسي سلمى الخضراء ، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1988م .

- الحجي عبد الرحمن علي

ـ التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، دار القلم ، دمشق ، ط4 ، 1415هـ-1994م .

- الحر عبد المجيد

ـ ابن زيدون شاعر العشق والحنين ، دار الكتب العربية ، بيروت ، ط1 ، 1413هـ-1993م .

- حسن حسن جاد

ـ ابن زيدون عصره ، حياته ، أدبه ، المطبعة المنبرية ، مصر ، 1375هـ-1955م .

- حميد بدير متولي

ـ قضايا أندلسية ، دار المعرفة ، مصر ، ط1 ، 1964م .

- أبو خشب إبراهيم علي

ـ تاريخ الأدب العربي في الأندلس ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1966م .

- خضر فتحي

ـ دراسات أدبية ونحوية ، دار الأرقم ، رام الله ، ط1 ، 1987م .

- الخطيب رشا عبد الله

ـ تجربة السجن في الشعر الأندلسي ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، 1999م .

- الداية محمد رمضان

ـ مختارات من الشعر الأندلسي ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، 1969م .

- الدقاق عمر

ـ ملامح الشعر الأندلسي ، دار الشرق ، بيروت ، ط1 ، 1975م .

- الركابي جودت

ـ في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، (د.ن) .

- الشكعة مصطفى .

ـ الأدب الأندلسي ، موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط5 ، 1983 .

ـ فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، مطبعة المعرفة ، مصر ، 1378هـ-1958م .

- شلبي سعد إسماعيل

ـ البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، (د.ت) .

- الصالح صبحي

ـ دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، 1994م .

- ضيف شوقي .

ـ تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف ، مصر ، ط7 ، (د.ت) .

ـ تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، ط7 ، (د.ت) .

ـ ابن زيدون ، دار المعارف ، مصر ، ط5 ، (د.ت) .

- ضيف أحمد .

- بلاغة العرب في الأندلس ، مطبعة الاعتماد ، مصر ، ط2 ، 1356هـ-1938م .

- الطباع عبد الله أنيس
- القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الدانية ، دار ابن زيدون ، ط1 ، 1406هـ-1986م .

- عباس فضل حسن .
- البلاغة ، فنونها وأفنانها ، علم البيان والبديع ، دار الفرقان ، عمان ، ط1 ، 1407هـ-1987م .
- البلاغـــــة ، فنونها وأفنانها – علم المعاني ، دار الفرقان ، عمان ، ط21 ، 1405هـ-1985م .

- عتيق عبد العزيز .
- الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط2 ، 1976م .
- في البلاغة العربية ، علم البيان ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1974م .
- في البلاغة العربية ، علم المعاني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1974م .

- عطوي علي نجيب
- النابغة الذبياني ، شاعر المدح والاعتـــذار ، دار الكتـــب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1411هـ-1990م .

- أبو عمشة عادل
- العروض والقافية ، مكتبة خالد بن الوليد ، نابلس ، ط1 ، 1406هـ-1986م .

- غربال محمد شفيق
- الموسوعة العربية الميسرة ، دار الجيل ، مصر ، 1416هـ-1995م .

- غومس أميليو غرسية ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط2 ، 1956م .

- الفاخوري حنا
- الجامع في تاريخ الأدب العربي ، المكتبة البوليسية ، بيروت ، (د.ت).

- فروخ عمر
- تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، ط4 ، 1997م .

- قزيحة رياض
- الفكاهة في الأدب الأندلسي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، 1418هـ-1998م .

- المجذوب عبد اللطيف
- المرشد إلى فهم أشعار العرب ، (د.ن) ، ط1 ، 1955م .

- مرعشلي نديم

ـ ابن زيدون ، دار الشرق الجديد ، بيروت ، ط1 ، 1961م .

- المعجم الوسيط ، دار المعارف ، مصر ، 1972 .
- المنجد في اللغة والأعلام ، دار المشرق ، بيروت ، ط27 ، 1984م .
- نوفل سيد

ـ شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، (د.ت).

- الهاشمي أحمد

ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، دار الكتب العلمية ، مصر ، ط6 ، (د.ت) .

- هواري سيد

ـ دليل الباحثيـــن في كتابة التقارير ورسائل الماجستير والدكتوراه ، مكتبة عين شمس ، القاهرة ، 1980م .

- هلال محمد غنيمي

ـ النقد الأدبي الحديث ، دار العودة ، بيروت ، ط1 ، 1987م .

- والي فاضل فتحي محمد

ـ الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع ، حائل السعودية ، ط1 ، 1417هـ-1996م .

الملاحق

ملحق (1) : فهرس الشعراء والأعلام والقبائل .

ملحق (2) : فهرس البلدان والأمكنة .

ملحق (3) : فهرس الآيات القرآنية .

ملحق (4) : الأمويون في الأندلس .

ملحق (5) : دويلات الطوائف في الأندلس ، وخريطة تبيّن مواقعها .

ملحق (1) : فهرس الشعراء والأعلام والقبائل :

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

ملحق (2) : فهرس البلدان والأمكنة :

[1] مضيق جبل طارق الذي يفصل الأندلس عن المغرب ، يبلغ أدنى عرض له 15 كم ، وعمقه حوالي 450م ، وكان العرب يطلقون عليه اسم بحر الزقاق .

ملحق (3) : فهرس الآيات القرآنية الكريمة[1] :

(1) ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾ . النحل : آية 92 ، ص80 .

(2) ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ . الإسراء : آية 24 ، ص116 .

(3) ﴿ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله﴾ . الحج : آية 9 ، ص7 .

(4) ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ . الفرقان : آية 70 ، ص18 .

(5) ﴿وآخرين مقرنين بالأصفاد﴾ . سورة ص : آية 48 ، ص80 .

(6) ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم﴾ . القلم : آية 19 – 20 ، ص192 .

---

[1] حسب ترتيب السور في القرآن الكريم .

ملحق (4) : الأمويون في الأندلس :

عصر الإمارة :

1. عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الداخل) 138هـ .
2. هشام بن عبد الرحمن (الرضا) 172هـ .
3. الحكم بن هشام (الربضي) 180هـ .
4. عبد الرحمن الثاني بن الحكم (الأوسط) 206هـ .
5. محمد بن عبد الرحمن الثاني 238هـ .
6. المنذر بن محمد 273هـ .
7. عبد الله بن محمد 275هـ .

عصر الخلافة [1]:

1. عبد الرحمن الثالث (الخليفة الناصر) 300هـ .
2. الحكم الثاني بن عبد الرحمن الثالث (المستنصر) 350هـ .
3. هشام الثاني بن الحكم (المؤيد) حكم مرتين 366هـ – 400هـ[2] .
4. محمد الثاني بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الثالث (المهدي) حكم مرتين 399هـ – 400هـ .
5. سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الثالث (المستعين) 400هـ .
6. عبد الرحمن الرابع بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الثالث (المرتضى) 408هـ .
7. عبد الرحمن الخامس بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الثالث (المستظهر) 414هـ .
8. محمد الثالث بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الثالث (المستكفي) 414هـ .
9. هشام الثالث بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الثالث (المعتد) 418هـ ، آخر الخلفاء الأمويين[3] .

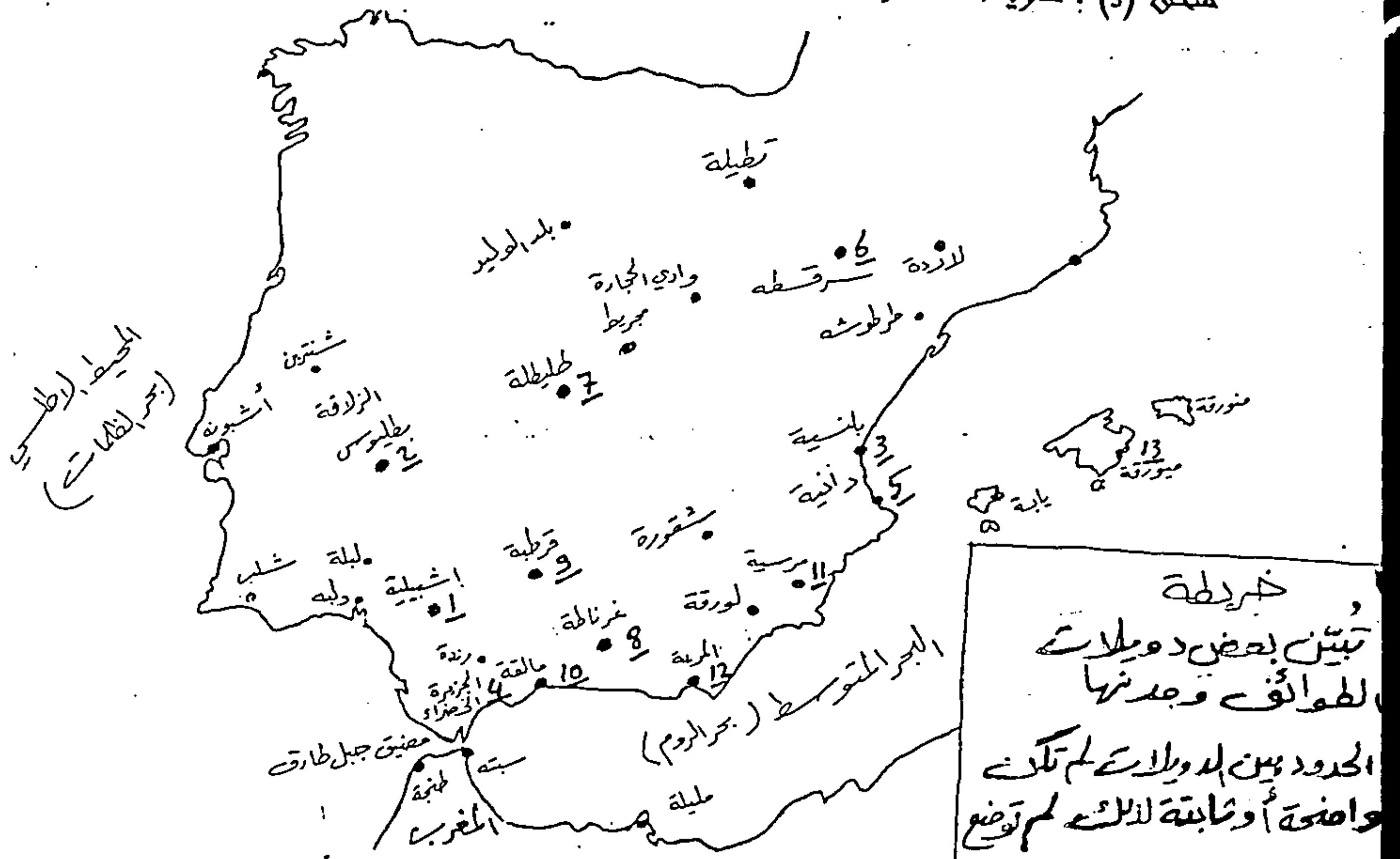
---

[1] تولى الخلافة خلفاء من البربر غير الخلفاء الأمويين المذكورين .

[2] تولى الخلافة فتًى صغيراً ؛ فحجر عليه المنصور بن أبي عامر واستبد بأمور الدولة ؛ فضاعت هيبة الخلافة.

[3] عُزِل عام 422هـ ؛ وبذلك انتهى عصر الخلافة ، وبدأ عصر ملوك الطوائف .

ملحق (5) : دويلات الطوائف في الأندلس ، وخريطة تبيّن مواقعها :



تفاوتت دويلات الطوائف في المساحة والقوة كما تفاوتت في أعمارها ؛ فقد كانت القوية منها – أحياناً – تحتوي الضعيفة ؛ لذا فقد اختلف عدد هذه الدويلات من زمن لآخر ، حيث زاد عددها في بعض الأزمان عن خمس وعشرين دويلة، وأهم تلك الدويلات :

1) إشبيلية : أعظم الدويلات ، حكمها بنو عبّاد ، ضمّت كثيراً من الدويلات الأخرى ، مثل : قرطبة ، ورندة ، وولبة ، ولبلة ، والجزيرة الخضراء ، فتحها المرابطون 484هـ .

2) بطليوس : حكمها بنو الأفطس ، فتحها المرابطون 487هـ .

3) بلنسية : حكمها العامريون[1] ، سقطت بيد الإسبان ، ثم فتحها المرابطون 495هـ .

4) الجزيرة الخضراء : حكمها بنو حمود ، وضمتها إشبيلية 450هـ .

5) دانية : حكمها العامريون ، ثم ضمّتها سرقسطة 468هـ .

6) سرقسطة : حكمها بنو هود ، واستولى عليها الإسبان 536هـ .

7) طليطلة : حكمها بنو ذي النون ، استولى عليها الإسبان 474هـ .

8) غرناطة : حكمها بنو زيري ، فتحها المرابطون 483هـ .

9) قرطبة : حكمها بنو جهور ، ثم ضمّتها إشبيلية 461هـ .

10) مالقة : حكمها بنو حمود ، فتحها المرابطون 483هـ .

11) مرسية : حكمها العامريون ، ثم ضمتها إشبيلية 471هـ ، وانفصلت عنها ، فتحها المرابطون 483هـ .

12) المرية : حكمها بنو صُمادح ، فتحها المرابطون 483هـ .

13) ميورقة : حكمها العامريون ، وفتحها المرابطون .

---

[1] أبناء المنصور بن أبي عامر ومواليه .

An-Najah National University
Faculty of Higher Studies

Supplication in AlAndalusi Poetry "The Age of Kings of Parties" (422-484 h)

By
Mohammad Jasser Jabali Ass'ad

Supervised by
Dr. Wa'el Abu-Saleh

This Study is submitted in Partial Fulfillment of the requirements for an M. A degree in Arabic Arts Literature, Faculty of Higher Studies at An-Najah National University

Nablus / Palestine
June, 2003

Abstract

This research included an identification of supplicotary poetry and a pursuit of it during the previous periods starting with the Pre-islamic period and ending with in Abassid's. It also contained a survey of supplicatory poetry that was composed during the age of kings of parties and brief biographies about its composers as well as their incentives for supplication and there styles .

This research also dealt with the objectives which mingled with supplicatory peotry and the destinctive artistic features of that peotry .